البارزاني وشهادة التاريخ

صاحب الامتياز
حافظ قاضي

رئيس التحرير
مؤيد طيب

حقوق الطبع محفوظة

العنوان
كوردستان العراق – دهوك
مبنى اتحاد نقابات عمال كوردستان
الطابق الثالث
هاتف: ٧٢٢٥٣٧٦ ـ ٧٢٢٢١٢٥

www.spirez.org
www.spirezpage.net

- **تسلسل الاصدار:** (٨٤)
- **عنوان الكتاب:** البارزاني وشهادة التاريخ
- **تأليف:** مجموعة من المؤلفين الكورد والروس
- **ترجمة عن الروسية:** باڤێ نازێ – د. عبدي حاجي
- **ادخال وتصميم:** شڤان احمد طيب
- **الغلاف:** بيار جميل
- **الاشراف الطباعي:** زاگروس محمود
- **الطبعة:** الاولى
- **عدد النسخ:** (١٠٠٠) نسخة
- **رقم الايداع:** (١٣٩) لسنة ٢٠٠٥
- **مطبعة وزارة التربية - اربيل**

SPIREZ PRESS & PUBLISHER
دار سبيرێز للطباعة والنشر

البارزاني
وشهادة التاريخ

مجموعة أبحاث وانطباعات للمؤلفين الكورد والروس

ترجمها عن الروسية

باقي نازي – د. عبدي حاجي

سپیریز   2005

مصطفى البارزاني

بقلم يوري نابييف

(عن لجنة إعداد الكتاب)

إن تاريخ الحركة التحررية الكوردية في القرن العشرين مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعائلة البارزانيين. أجيالاً عدة من هذه العائلة دافعت ببطولة عن حقوق شعبها، والآن في جنوب كوردستان، لا يزال أبناء هذه العائلة – مسعود البارزاني ونيّجيرڤان البرزانى وغيرهما – يتابعون بنجاح نضال أجدادهم العظماء.

لاشك إن اشهر وأعظم الشخصيات في عائلة البارزاني هو مصطفى البارزاني، ففي العالم كله، لن تجد كورديا لا يعرف اسم البارزاني، وعندما كان على قيد الحياة، نظمت الأشعار والأغاني عنه وكذلك الحكايات والأساطير التي تداخلت بشكل عضوي في نسيج الفلكلور الكوردي الغني، هذه ألاغاني والحكايات بنيت على أساس الأحداث الواقعية التي حصلت معه، ومازالت تلهم الشعب في نضاله لنيل حقه في الحياة.

لم ينحني البارزاني قط أمام العدو، لذا غدا شعلة للأكراد أينما وجدوا. إن اسم البارزاني والقضية التي ناضل من أجلها غدا مثلاً يحتذى به بين الشبيبة الكوردية.

في هذا العام، نحتفل بمرور مائة عام على ميلاد ملا مصطفى، وأي تأثير تركه على مصير الاكراد في الاتحاد السوفيتي السابق، ليس معروفاً للكثيرين.

الآن نقدم للقارئ الروسي لمحات عن حياة مصطفى البارزاني، وبنشر هذا الكتاب نقوم بواجبنا تجاه نضال هذه الشخصية الكوردية العظيمة، التي ارتبط اسمه بقضية شعبه التحررية.

انه البارزاني، الإنسان الأسطوري، الذي ترك اثره بعمق في تاريخ الكورد المعاصر.

إلى القارئ الروسي

بقلم خوشافي بابكر

ممثل حكومة إقليم كوردستان في روسيا

نلفت انتباه القارئ، إن هذه المجموعة من المقالات الخاصة، في هذا الكتاب، هو الأول من نوعه باللغة الروسية حول حياة ونضال البطل القومي الكوردي الجنرال مصطفى البارزاني (١٩٠٣ – ١٩٧٩) الذي سمي بين الشعب بملا مصطفى تحبباً واحتراماً.

لا نغالي إذا قلنا إن البارزاني يعتبر من أشهر القادة والسياسيين الكورد بعد صلاح الدين، ممن أنجبهم الشعب الكوردي.

إن هذه الشخصية التاريخية، ليس فقط ذو أهمية إقليمية، وإنما له مكانته العالمية ايضاً، وبفضل نضاله تحركت القضية الكوردية وتصاعدت من نقطة الصفر لتبلغ مرحلة نجني ثمارها اليوم.

عندما قاد البارزاني الحركة القومية لم ينطلق من نضال جزء واحد من حركة الأكراد في العراق أو إيران أو تركيا... لذا أصبح رمزاً للنضال ليس في كوردستان العراق وإنما للأكراد جميعا. وكان أول من تعامل مع الدبلوماسية بمهارة وحنكة وأجادها، وطرح القضية الكوردية على الميادين العالمية. في الوضع العالمي الذي كان مقسماً بين قطبين، استطاع أن يناور بين الكتلتين، لصالح القضية الوطنية، لذا كان يسمى تارة ((بالشيوعي)) وتارة أخرى ((بالإقطاعي)) أو ((الشخصية البرجوازية)) وقد كان ينطلق دائماً من مصلحة الشعب الكوردي.

لقد كان البارزاني دائماً مع شعبه، كان لديه حس وطني وشعور بالمسؤولية والتضحية بالذات في أقصى درجاتها. كل ذلك كان نابعاً من الجو التربوي الذي كان يسود منطقة بارزان. حيث كان يعيش اليهود والمسيحيين والمسلمين بوئام، وكان يسود المنطقة نوعاً من المساواة الاجتماعية، كل ذلك بفضلة العائلة البارزانية.

من الجدير بالذكر، ان الآشوريين (كمسيحيين) واليهود، لم يعيشوا فقط بوئام مع الأكراد (المسلمين) فحسب بل شاركوا في جميع الانتفاضات التي قام بها الشعب الكوردي.

لابد من الاشارة إلى خاصية الجو العائلي الذي تكونت فيه شخصية البارزاني.

لقد ترعرع في احضان الطريقة النقشبندية التي تزعمها والده وأخواه الشيخ عبد السلام والشيخ أحمد. مع العلم، ان أخويه كانا بعيدين عن التعصب الديني، وقدما مساعدات كبيرة وقيمة للأرمن ابان محنتهم وإبادتهم من قبل الأتراك.

لقد كان البارزاني يتقاسم مع الشيخ أحمد أفكاره في الإصلاحات الدينية، ويبقى في ذاكرة البارزانيين كمصلح ديني متميز، على سبيل المثال لا الحصر، حرم الشيخ أحمد في منطقة برزان، قطع الشجر، وصيد الحيوانات، والطيور، واستثنى منها الأفعى السامة. مستخدما مكانته الاجتماعية في منع الزواج القسري، وتزويج الفتيات والشباب عند رفض اهل أحد الطرفين، ان أرادا ذلك. ان فلسفته وتعاليمه الأخلاقية مازالت مرعية وسارية في برزان حتى الآن.

ان مصطفى ذاته، الذي كان من دعاة التقدم، كان يكن احتراماً عميقاً للعادات والتقاليد الاجتماعية. ان روح المحافظة الحقيقية عند البارزاني بخلاف عقلية التخلف ساعدته على قطع دابر الطريق أمام انصاره الذين كانوا يسعون إلى تبني الأفكار الراديكالية التي اعتبرت كموضة للعصر، وركز على الافعال لا على الأقوال. واعتبر نفسه خادماً لشعبه، ولم يسمح لنفسه بالتكبر على الآخرين، كما لم يسمح لأي كان بتصغيره والحد من مكانته، لقد كان عظيماً وبسيطاً في آن واحد.

ان البذرة التي زرعها قائدنا، أعطت نتائج عظيمة، ولعل أفضل هدية تهدي لذكرى مئوية ميلاده هي تلك التغيرات الجارية في كوردستان العراق، بفضل الدور الفعال للحزب الذي أسسه، حيث بان النور في نهاية النفق للشعب الكوردي.

نقف على الطريق الصحيح الذي يؤدي بالشعب الكوردي ذو الأربعين مليوناً إلى الانضمام إلى عائلة الأمم.

ان هذا الكتاب يضم بين صفحاته، نصوص أدبية وعلمية عن ابن الشعب الكوردي البار مصطفى البارزاني.

ان نص دينيس كوماروف، يثير الانتباه مع العلم انه علمي وتاريخي بحت عن مراحل نضال وحياة البارزاني. وهذا أول عمل له باللغة الروسية.

ومذكرات كيسيلوف مهمة جداً، ويدين له الشعب الكوردي لانه انقذ الملا مصطفى في عام (١٩٦٢) بوجود مؤامرة لاغتياله. وفي هذه المجموعة أيضا، خاطرة الكاتب الكوردي باڤى نازى المميز بنكهتها الأدبية والانطباعية.

لابد من الاشارة أيضا لمقالة صديقنا المحترم والعالم الشهير في مجال الاستشراق الروسي ميخائيل لازاروف. وأنا مسرور أيضاً لان القارئ سيحظى بقراءة مقالات الأكاديمي شاكر محو.

ان يوم صدور الكتاب في موسكو عن مصطفى البارزاني سيكون له مكانته في تاريخ العلاقات الكوردية الروسية، وهنا أجد واجباً علي الاشارة إلى الجهود التي بذلتها هيئة اعداد الكتاب لا سيما ما بذله من جهد پافر شختمان لتحضير ونشر هذا الكتاب.

وفي الختام، ينبغي الاشارة إلى الانسان الذي ساهم في تحضير هذا الكتاب ولكنه رحل قبل الأوان، انه الكوردي الوطني والناشط في مجال الثقافة الكوردية تيتال عفو.

من المؤسف انه غادر قبل ان يطبع الكتاب، لكن ذكراه ستبقى في قلوبنا إلى الابد.

المسافة والمراحل وحكم التاريخ

بقلم بافيّ نازيّ

لعل، كل امرئ يخشى المسافة التي تفصل ما بين ماضيه وحاضره. حيث تعتبر هذه المسافة السيرة الذاتية للانسان، وهي قد تحتوي على مشاعر الخوف والندم أو الشعور بالذنب والخطيئة أو الشعور بالعزة والفخر والنجاح وفي النتيجة يقدم كل انسان حساباً بأعماله لنفسه وللآخرين معاً.

ان السيرة الذاتية للانسان تنطوي على صفحات مقروءة وأخرى منسية وأخرى تحتوي على اسرار للكتمان. أما سيرة حياة البارزاني، فتشكل استثناءاً لهذه القاعدة العامة. ان من عرفه عن قرب وعاش معه ومن درس سيرته الذاتية، يجمعهم رأي واحد، وهو ان البارزاني لم يخطو في حياته خطوة واحدة يمس بالكرامة الانسانية، وحافظ دائماً على مكانته وشرفه مهما كانت الظروف والمصاعب التي حلت به. ولم يفقد ثقته بنفسه، على الرغم من اختفاء الضوء في نهاية النفق أحياناً كثيرة. وقد تميز البارزاني أيضاً وفق آراء مرافقيه في نضاله بأن الخوف لم يجد له طريقاً إلى قلبه أبداً. وان ثقة أنصاره وشعبه به كانت نابعة من ثقته المطلقة بمستقبل واعد. ان قلة من الناس يستطيعون التحكم بمشاعرهم سواءاً بعد الانتصار أو الهزيمة، والذي يملك القدرة على التحكم في نفسه في هذه الأحوال، لاشك يحمل صفات العظمة. لقد كان البارزاني من هؤلاء القلة. اذ انه بعد الهزيمة في المعركة كان يجمع قواه للتحضير إلى معركة جديدة. وبعد الانتصار كان لايفقد صوابه، أي انه لم يكن يفقد الثقة بعد الهزيمة والتواضع بعد الظفر؛ لذا أحبه الشعب وكنّ له الاحترام وهذه الميزات هي التي جعلته خالداً في ذاكرة الشعب.

قلما يحدث في التاريخ عندما يقترن اسم قوم باسم شخص. لقد كان البارزاني واحداً من هؤلاء النوادر الذين ارتبط اسمهم باسم شعبهم. وهنا اتساءل: هل هناك عظمة تفوق هذه العظمة؟ وقلما يحدث ان شعباً ما، وعن هويته القومية والوطنية بفضل شخص بعينه!.

انا شخصياً انتمي إلى ذاك الجيل الذي وعى على حسه القومي بفضل شخصية البارزاني. بعد ان كان حدود الوطن في مخيلتي لا يتعدى حدود مدينتنا الصغيرة وفي وقت كان الانتماء الديني ينوب عن الانتماء القومي. وعندما كنا نُسأل: ((من انتم)) كنا نجيب ((نحن مسلمون)).

ان جيل تلك المرحلة كان يفكر بهذه الطريقة ويتصرف ضمن هذا الاطار والفهم، لكن عندما عاد البارزاني من الاتحاد السوفيتي بدأت الموجة القومية عند الكورد تطغى على سواها من دينية وعشائرية في داخلنا. وباندلاع ثورة ايلول، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ النضال القومي في عموم كوردستان. وهنا لابد من الاجابة على ما يلي: ما الذي أعطته هذه الثورة؟ وأية آثار خلفتها؟ بالحقيقة يجب القول ان جميع السياسيين من الاكراد المعاصرين، اينما كان موقعهم، وأياً كان موقفهم، مدينين لهذه الثورة – الانتفاضة – وهم ابناء، البارزاني الخالد.

لذا نستطيع القول بثقة: ان افكار وأعمال البارزاني مازالت حية بيننا حتى الآن.

مرة أخرى: ماذا عن المسافة وحكم التاريخ؟.

منذ النقطة التي انطلقنا منها في وعي ذاتنا والى يومنا هذا، مسافة طويلة، وما كنا نعتبره خطئاً في سياسة البارزاني حسم التاريخ قراره بها وتبين باننا نحن كنا مخطئين. على سبيل المثال كنا نتساءل: لماذا لا يلجأ البارزاني كالحركات الثورية الأخرى في تلك الفترة إلى اسلوب الارهاب؟!.

آنذاك دخل الارهاب كموضة للعصر، وكان يحبذه الجيل الناشئ، حتى بدا خطف الطائرات عملاً رومانسياً!. من جهة أخرى كان الاعداء الكورد يستخدم جميع الاساليب القذرة، كان لايرحم الاطفال والنساء، ويقتل الأسرى. وبالمقابل عندما كان أحد البيشمركة يود الانتقام والرد بامثل كان البارزاني يمنعهم بالقول: ((يجب ان لا نفعل كما يفعلون)).

وأسأل ثانية: لماذا لم يلجأ البارزاني إلى اسلوب الارهاب؟.

ان الاجابة على هذا التساؤل يرد على لسان معاصريه حيث كان يشبه الارهاب بالرعود في الربيع! حيث تصدر صوتاً قوياً وقرقعة وضجيجاً لكنها لا تهب الخير للأرض. وحتى انها قد تسبب الأضرار. أما النضال القومي فكان يشبهه بالامطار التي تهطل في الوقت المناسب وعلى ان الثورة الوطنية يجب ان لا تسبق الزمن. لا سيما النضال القومي الكوردي، حيث يتطلب الصبر والتأني والنفس الطويل.

والأهم من ذلك ان القضية الكوردية عادلة. لذلك اذا كانت الحقيقة والعدل إلى جانب الكورد فلماذا اللجوء إلى عمل يسيئ اليها؟!

ان أية قضية قومية وعادلة لا يجوز تشويهها وتحويلها إلى قضية خاطئة.

من المعلوم ان احدى اسباب الهزائم التي كانت تلحق بالكورد هو تحليهم بالقيم والمبادئ والأخلاق الانسانية حتى في المعارك مع اعدائهم. حتى انهم كانوا يعتبرون قتل العدو من الخلف عملاً غادراً!؟ وما الارهاب الا شكلاً من أشكال الغدر. ومع انه كان مغرياً وكان يمكن تبرير اللجوء إلى مثل تلك الاساليب الا انهم رفضوه.

يبدو ان الاصالة القومية والانسانية في شخصية البارزاني جعلته يتجنب هذه الاساليب في نضاله.

لقد استخدم اعداء الكورد كافة أساليب الابادة، وليس فقط افقاره وحرمانه من حقوقه، اضافة إلى تحيز القوى الدولية ولامبالاتهم تجاه مآسي الكورد ومصيره مما حولهم إلى شركاء في الاعتداء على الشعب الكوردي، ومع ذلك لم يتخلى الكورد عن توجههم الانساني ولم يردوا على ارهاب الدولة بارهاب مضاد.

لقد رفض البارزاني نهج الارهاب مع ان الدول العظمى لجأت اليها كلما سنحت لها الفرصة ومتى رغبت في تصفية المناوئين لها عن طريق عملائها مثلاً. وكان البارزاني على علم بذلك لكنه بقي محافظاً على موقفه وموقعه!. ان دوافع ذلك قد يكون الحس الداخلي والعادات والتقاليد القومية والعائلية له. وقد يكون البعد السياسي ومهما يكن السبب فقد كان على صواب.

و بفضل هذا النهج الصحيح، حافظت الحركة الوطنية الكوردية على سمعتها على النطاق العالمي ولغاية اليوم.

المسافة والمراحل وحكم الزمن... جميع هذه الأبعاد تفصله عنا، ان المسافات التي تقاس بالأعوام طويلة. والمراحل التي تقاس بالأعمال والمآثر الممزوجة بالعرق والدم،

يصعب نسيانها. ومع ذلك فالحكم في النهاية للتاريخ والكلمة والقرار له ويحكم دون مواربة أو تحيز.

ان البارزاني اصبح خالداً في ذاكرة شعبه وكم يود هذا الشعب لو عاش بينهم أبداً. وهنا تنطبق هذه الرغبة مع ما قاله مكسيم غوركي عن تولستوي: ((يا الهي! اعمل استثناءاً واجعله خالداً)) ان تولستوي قد مات لكنه بقي حياً إلى الأبد.

ان البارزاني قد مات جسداً لكنه مازال ماثلاً امامنا بروحه وفكره وأصبح مثلاً لنا.

عندما حدثت تراجيديا (زيوا) كان البارزاني قد فارقنا زهاء ٨ سنوات. لكن عندما وقفت أماً كردية على اشلاء الجثث الذين قتلوا من جراء قصف الطائرات الصدامية وهي ترفع يديها إلى السماء منادية: ((ايها البارزاني! الا ترى ما يفعلون بنا؟!)) وما ان نطقت المرأة بتلك الكلمات حتى اختفت المسافات واحترقت المراحل!.

لقد نفذ الزمن حكمه وقال كلمته والقرار غير قابل للطعن.

مهما قلب التاريخ صفحاته فسيبقى اسم البارزاني مدوناً أبداً، وليس من باب الصدفة عندما يذكر ابناء شعبنا اسم البارزاني فيضيفون إلى جانبه كلمة ((الخالد)).

العمليات السرية للوبيانكا والكرملن في اعوام ١٩٣٠-١٩٥٠

الجنرال بافل سوبوبالتوف

.....في عام ١٩٤٧ عرض علي وزير امن الدولة أباكوف، إجراء مباحثات مع البارزاني، وقبول لجوءه السياسي ومن معه، ومن ثم توزيعهم على مساكن في مناطق اوزبكستان الريفيه بقرب طشقند.

قدمت نفسي إلى البارزاني باسم ما تفييف وكنائب للمدير العام لوكالة تاس والممثل الرسمي للسفارة السوفيتية. ولأول مرة في حياتي وجدت نفسي مع نبيل أصيل. لكن البارزاني أثار في نفسي انطباعاً بانه شخص عسكري متمرس وذو خبرة، وفي مجرى حديثه أشار ان الاكراد في غضون المائة عام الأخيرة، قاموا بمائة انتفاضة ضد الاتراك والفرس والعراقيين والانكليز. واكثر من ٦٠ مرة توجه الكورد إلى روسيا لدعمهم، وكانت روسيا تلبي دعوتهم اكثر المرات. ولذا من الطبيعي – حسب قوله – ان يتوجهوا الينا

طلباً للمساعدة في هذا الوقت العصيب، لا سيما بعد ان قضت السلطات الايرانية على جمهورية مهاباد.

قبل فترة وجيزة من هذه الأحداث، وقع قادة الاكراد الثائرين في الفخ الذي نصبه الشاه. إذ دعاهم إلى طهران للتفاوض. لكنه اعتقلهم وأعدمهم، البارزاني وحده نجا من المؤامرة. عندما دعاه الشاه للتفاوض، اشترط البارزاني عليه بان يرسل عدة أفراد من عائلته اليهم كرهائن في المقر خلال فترة التفاوض، استغل البارزاني هذه الفترة لتجميع معظم قواته في المناطق الشمالية من ايران، والمتاخمة للحدود السوفيتية. أما نحن – الروس – فكنا نسعى لاستخدام الكورد ضد النفوذ الانكلو-امريكي واضعافه في الشرق الأوسط، لا سيما في البلاد المجاورة لنا. لذا أبلغت البارزاني، بان الجانب السوفيتي وافق على ان يدرس البارزاني وقسماً من ضباطه في معاهدنا الحربية، واكدت له ان توزيعهم على مناطق أسيا الوسطى اجراء وقتي، وحين يأتي الوقت المناسب سيعودون إلى كوردستان.

ومنعني آباكوفوف، ابلاغ سكرتير الحزب الشيوعي الأذربيجاني باغيروف، عن مضمون المباحثات التي أجريتها مع البارزاني، لا سيما موافقة ستالين لفسح المجال أمام الضباط الاكراد بالتعلم في المعاهد العسكرية. لان باغيروف، كان يسعى لإستخدام البارزاني ورجاله، لكي لا يستقر الوضع في أذربيجان الايرانية، وأما في موسكو فكانت روؤيتهم أبعد من ذلك إذ كانوا يعتقدون ان بمقدور البارزاني أن يلعب دوراً اكثر أهمية وهو الاطاحة بالحكومة العراقية الموالية للانكليز. وبدعم الاكراد نستطيع وقف ضخ النفط وذلك بتعطيل الأنابيب النفطية العراقية (في الموصل) لكي يمنع امداد النفط للقوات العسكرية الانكلو-أمريكي في الشرق الاوسط. وكان هذا هو الأهم.

جرد البارزاني ومن معه من السلاح وارسلوا إلى اوزبكستان، وبعد خمس سنوات (في آذار عام ١٩٥٢) أرسلت إلى ضواحي طشقند في أوزبكستان لايجاد حلول للمشاكل الناشئة.

لم يرضى البارزاني بالبقاء دون عمل ومعاملة السلطات المحلية حيالهم. فتوجه إلى ستالين مطالباً مساعدتهم، وتنفيذ ما وعدوه به سابقاً، فقد كان يصر على تشكيل وحدات عسكرية كوردية، كما طالب بإيجاد صلات مستمرة مع رجاله الذين وزعوا في ضواحي طشقند.

حسب الخطة المرسومة من قبلي وبتكليف من وزير الأمن ايغناتوف، كان يتعين تشكيل كتيبة خاصة بالاكراد –قوامها ١٥٠٠ شخص- للقيام بعمليات عسكرية –تخريبية- في الشرق الأوسط، وكان من الممكن استخدام الكورد، لتنفيذ الخطة المرسومة للاطاحة بحكومة نوري السعيد في بغداد، مما كان سيؤدي إلى اضعاف مواقع البريطانيين في الشرق الأوسط عامة.

كان على الاكراد الاسهام بدور محدد في مشاريعنا المرتبطة بتعطيل أنابيب النفط في كل من العراق وايران وسوريا في حالة اندلاع الحرب أو في حالة نشوب تهديد حرب نووية مباشر على الاتحاد السوفيتي. أعلن البارزاني عن رغبته في التوقيع على اتفاقية التعاون مع الحكومة السوفيتية، شريطة ان تقدم الحكومة السوفيتية ضماناً بتشكيل جمهورية كوردية. بعد الاصغاء إلى البارزاني، أجبته على انني لست مخولاً بالخوض في مناقشة مثل هذه الأمور, لكننا لم نعارض على تشكيل حكومة كوردية في المنفى (في الخارج).

في نيسان عام ١٩٥٢ استقر البارزاني مع جماعته في تعاونيه كبيرة بضواحي طشقند، وفي موسكو اتخذ القرار بتشكيل ادارة محلية للاكراد، وكلفت وزارة الأمن بتدريب الاكراد في الشؤون العسكرية وتقديم المساعدة لايجاد صلة مع الاكراد في الخارج. وان محاولتنا لايجاد أناس من المحيطين بالبارزاني للتعاون معنا باءت بالفشل.

في ربيع عام ١٩٥٣ حدث ما لم يكن بالحسبان، لقد رآني البارزاني بالبزة العسكرية وبرتبة لواء أثناء حضوره للمحاضرات التي كان يتلقاها في الاكاديمية العسكرية التي كنت أعمل فيها. وقال عبر مترجمه الذي كان برتبة ملازم: ((انا مسرور جداً أن أرى ممثل الحكومة في مثل هذه الرتبة العسكرية العالية)) وأنا بدوري تمنيت له النجاح في تحصيل العلوم العسكرية.

لقد كان البارزاني يدرك تمام الادراك، بان مستقبل الكورد مرتبط باستغلال التناقضات بين الدول الكبرى التي لها مصالح في الشرق الأوسط.

ان القاء نظرة معمقة على سياسة الدول العظمى تظهر بوضوح على انهم لم يسعوا قط لايجاد حل عادل للمشكلة الكوردية، وان مصير هذا الشعب لم يبحث لا في الكرملن ولا في لندن ولا في واشنطن، وما كان يهمنا وكذلك الغرب هو السيطرة على منابع النفط في الشرق الأوسط. ان هذه هي الحقيقة وان كانت تتضمن عملاً لا أخلاقياً.

سوسلوف الذي كلف فيما بعد، بدراسة المسألة الكوردية، وعد البارزاني بالدعم الكامل في نضاله في سبيل الحكم الذاتي لسبب وحيد وهو اسقاط نظام نوري السعيد في العراق.

لقد وعد الأمريكان من جانبهم أيضاً بدعم البارزاني لاسقاط الحكومة العراقية الموالية للانكليز واستبدالها بحكومة موالية لها، إلا انهم وفي اللحظة الحاسمة اتخذوا موقف المتفرج حتى اتفقوا مع البريطانيين، بكلمة أخرى تلاعبوا بمصير الشعب الكوردي كيفما شاؤوا.

لغاية النصف الثاني من الخمسينات كان الاكراد الحلفاء الوحيدين لنا في الشرق الأوسط، وعندما سقط نظام نوري السعيد من جراء انقلاب عسكري (وبدعمنا أيضا)، أصبح لنا حلفاء جدد تجسدت في حكومات العراق، سوريا ومصر. من وجهة نظر جيوسياسية كانوا اكثر أهمية من الكورد.

لقد لعب العراق وسوريا دوراً هاماً في سياستنا في الشرق الأوسط لمواجهة الغرب في هذه المنطقة المضطربة.

ان مآسات البارزاني وشعبه يكمن في انهم كانوا بمثابة، الورقة الرابحة، لاستخدامهم في الوقت المناسب.

البارزاني ونضال الأكراد الجنوبيين

بقلم: د. دينيس كوماروف

ولد مصطفى البارزاني في ١٤ آذار عام ١٩٠٣ في ناحية برزان التابعة لولاية الموصل والخاضعة للامبراطورية العثمانية.

تقع برزان في المرتفعات الجبلية القريبة من نهر الزاب الكبير. ان عالم هذه المنطقة مشهور بعلاقاتها البطرياكية. لقد كان السلطان يسعى إلى التغلغل بينهم ولكن دون جدوى. كانت عشيرة باروجي منذ القدم تقطن في برزان، حيث يمتد جذورها من القرن الثامن عشر حتى القرن التاسع عشر. لقد كان شيوخ النقشبندية تاج الدين وعبد السلام (جد ملا مصطفى) يديرون شؤون العشيرة. وكانت عشيرة باروجي تخضع للسلطة الروحية النقشبندية ومعها العشائر المجاورة كالمزوري وشيرواني وغيرهما. وسميت هذه المجموعات العشائرية فيما بعد، ((بالبارزانيين)). وغدت برزان عاصمة لهذه الامارتية التيوقراطية. كان قد بني فيها منزل لاداء الذكر ولقاءات المتصوفين. وكان مصطفى البارزاني ينتمي إلى شيوخ هذه الامارتية البطرياكية.

ينتمي سكان برزان إلى طوائف متعددة من حيث تركيبها القومي والديني. إلى جانب الاكراد، كان الآشوريون واليهود، يشكلون جزءاً من سكانها. فعاشت هذه الاقوام مع الاكراد بوئام وسلام. فكان شيوخ البارزانيين يعاملون اليهود والنصارى معاملة حسنة، ولهذا السبب تمتعوا بنفوذ ومكانة رفيعة بين المسيحيين واليهود والاكراد بالطبع. وفي ما يتعلق بالسلطة، كان شيوخ البرزان لا يحبذون التودد إلى السلطات، و يرفضون الهدايا منها. ولذا استطاعوا الحفاظ على استقلاليتهم.

قبيل ولادة مصطفى بوقت، قام والده الشيخ محمد بانتفاضة ضد الأتراك. فيما بعد لجأ الاتراك إلى الخديعة فدعوا الشيخ الثائر إلى الموصل لاجراء المفاوضات، الا انهم اعتقلوه ومن ثم اعدموه. واما رجاله فزجوا في السجون. وبعد ذلك قامت السلطات بتهجير العشيرة هذه من برزان وتوزيعها على الأقضية المختلفة التابعة لولاية الموصل. ولم يسمح لهم بالعودة إلى ديارهم الا بعد مرور عام.

بعد مقتل الشيخ محمد ترأس العشيرة ابنه الأكبر عبد السلام البارزاني. فأقام بما يسمى بالتعادل في استثمار الأرض. فسن قانونا، بموجبه وزعت الأراضي بالتساوي على العوائل القاطنة، ولم يستثنى عائلته من هذه القاعدة. وبخلاف زعماء العشائر الأخرى ساوى نفسه في الحقوق مع ابناء رعيته. وقد أثارت هذه الاصلاحات استياءاً شديداً لدى السلطات العثمانية. وما قام به شيوخ برزان ميزهم عن زعماء العشائر الذين نالوا حصة الاسد من الأراضي، وحرموا افراد العشيرة كلياً منها. ولذا كان ارتباط البارزانيون بشيوخهم قوية.

وما ان تسلم الشيخ عبد السلام زمام الامور في عشيرته، حتى أبدى عدم ولائه وخضوعه للسلطات التركية، بل اظهر عداءه لها. على العموم كان روح الاستقلالية من سيمات هذه العائلة. في عام ١٩٠٥ قام عبد السلام بحركته الاولى ضد السلطات التركية. لكنه فشل. عندئذ اوعزت السلطات باعتقال اسرة الشيخ الثائر، وزجت بها في سجن الموصل (كان بين المعتقلين والدته وشقيقه مصطفى الذي كان يبلغ من العمر ثلاث سنوات). ولم يمض وقت طويل على اعتقالهما اذ افرج عنهما.

بعد قيام ثورة ((تركيا الفتاة))، قام البارزانيون في خريف عام ١٩٠٨ مجدداً بحركتهم. واستقبل الاكراد نبأ انتقال السلطة إلى لجنة ((الاتحاد والترقي))، بحذر، لأنهم خشيوا من تشديد الخناق عليهم والحد من حرية ارادة البارزانيين الطليقة. ولذا دعا عبد السلام زعماء الكوردالى اجتماع في قرية بريفكان. والمطالب التي وجهوها إلى الدولة والواردة في البرقية المرسلة إلى استانبول تدور حول تحديد الحكم الذاتي لمنطقة بهدينان وعلى أن تصبح اللغة الكوردية لغة رسمية في المدارس وكتابة المعاملات. وعلى أن يكون المسؤولون الاداريون من الأكراد، وما يجمع من الضرائب ينبغي صرفها لبناء المدارس وتعبيد الطرق. وعلى أن تكون القوانين على اسس الشريعة الاسلامية. لم تلق هذه المطاليب آذاناً صاغية

من لدن السلطة الحديثة، وهذا ما دفع بالشيخ عبد السلام الى انتفاضة عشيرة الهماوند. في اثناء هذه الحوادث ظهرت شخصية بارزة اخرى. هو الشاعر والقائد محمود البرزنجي والذي أصبح فيما بعد من زعماء الحركة التحررية الكوردية. كان والده سعيد البرزنجي شيخاً للطريقة الكاكائية. وكانت مدينة سليمانية تحت ادارته. ولقد قتل على أيدي السلطة العراقية باشتباك مع العرب، وبتدبير من السلطة الجديدة في استانبول. فثأر محمود على مقتل أبيه وحرض العشائر القاطنة حول السليمانية، على الانتفاضة. وتمكن الاتراك بصعوبة بالغة من تهدئة الأكراد، لقاء تنازلات كبيرة. ومن ضمن هذه التنازلات، وجب تعيين شقيق القتيل، نائباً عن السليمانية، على الرغم من عدم معرفته للغة التركية. لكن في نهاية العام جرت انتفاضة جديدة، كان الشيخ عبد السلام مبادراً لها هذه المرة. قبيل القيام بهذه الانتفاضة، أرغم عبد السلام على الاختفاء، لملاحقة الأتراك له. لقد وجد الشيخ عبد السلام مكاناً آمناً في جبال الهكاري بين الآشوريين. لقد كان الشيخ موضع التقدير لدى هؤلاء. من ثم عاد إلى برزان داعياً اياهم إلى الانتفاضة. فلبى البارزانيون النداء ودحروا القوات التركية المرسلة لمحاربتهم. ومن جراء ذلك، انضم قسم كبير من اكراد ولاية الموصل اليهم. مما اجبر الاتراك على التنازل ثانية. فعينوا عدوهم الشيخ عبد السلام والياً على بصرى مرغماً. وهنا ينبغي الاشارة ان برزان تبوأت مكانة خاصة لدى المنظمات الكوردية التي تأسست تواً في كل من استانبول والقاهرة. حيث كانت تمول المنطقة الثائرة باستمرار بادبياتها.

لقد تحسنت علاقة البارزانيين مع القسطنطينيه، بعد مجئ الحزب الليبرالي (حزب العدالة والوفاق) إلى السلطة، الداعي إلى فيدرالية الامبراطورية. ولكن بعد عودة تركيا ((الفتاة)) مجدداً إلى السلطة، تأزمت العلاقات مابينهما ثانية. بدأ البارزانيون بالبحث عن صلة الوصل مع الانكليز والروس. وحسب التقارير الواردة من القنصليات الروسية، هناك اسماء بعض من قادة الكورد، ممن رغبوا الانضواء تحت راية السلطة الروسية. وفي رسالته إلى الشخصية الكوردية المعروفة سعيد طه (ابن أخ الشيخ عبيد الله النهري الذي ثار تحت شعار تشكيل دولة كوردستان المستقلة) كتب الشيخ عبد السلام مايلي: ((لا يعلم الاتراك، انه قد يأتي يوم ويحتاج الكورد فيه إلى دعم هائل، ولذا ينبغي تحسين العلاقات مع روسيا.)) في آذار عام ١٩١٤، عندما اعلن الأتراك عن زيادة الضرائب بنسبة ٢٥٪، قام الشيخ عبد السلام بانتفاضة جديدة. في الوقت ذاته أرسل برقية إلى وزير الداخلية (طلعت باشا

الشهير، الذي نظم فيما بعد المجزرة ضد الأرمن)، مدعياً فيها انه ثار بتوصية من القنصل الروسي في الموصل، والذي وعده بالدعم والثناء. على ما يبدو أراد بذلك تخويف الاتراك وتحريضهم ضد الروس، في سبيل الحصول على الدعم الحقيقي من موسكو. ان هذا الاسلوب الساذج، الذي اتبعه كان اثبات لقصر نظره السياسي. فانضم اكراد عشيرة همونـد والجاف ودزاي والآخرون إلى الشيخ عبد السلام. وطالب الثائرون من روسيا الحماية، لكنهم لم ينالوا شيئاً. اخفقت محاولات عبد السلام مجدداً، فلجأ إلى اورميا (آنذاك كانت محتلة من قبل الروس) ومن ثم أنتقل إلى ناخچيڤان. فخصص له راتباً تقاعدياً مقداره (١٥٠ روبل). وسرعان ما تكون لديه مشروعاً نضالياً جديداً ضد الاتراك. بعد أن التقى مع القائمين على شؤون القفقاز، عاد مجدداً إلى اورميا وأقترح على نائب القائم باعمال القنصلية الروسية السفر إلى شمدينان لتحريض الآشوريين القاطنين هناك. وبدلاً من دعمه تلقي تهديداً بتخلى روسيا عن مساعدته، ان قام ضد تركيا (آنذاك لم ترغب بترسبورغ بالدخول في صراع مع الأتراك). لقد حذر الشيخ طه، عبد السلام بان الاتراك يودون اصطياده، لذا نصحه بالاختفاء عن الانظار، لكن الشيخ عبد السلام لم يصغ له، لذلك في أواسط ايلول عام ١٩١٤ القي القبض عليه في الشريط الحدودي المحازي لايران وزج في سجن الموصل، بمساعدة بعض القادة الاكراد الايرانيين الذين باعوا انفسهم للاتراك. حسب ما رواه. ب.نيكتيين، الذي كان آنذاك قنصلاً في اورميا، ان المذنب بتسليم عبد السلام إلى الأتراك، هو الشخصية الكوردية المعروفة سيمكو. (كان سيمكو آنذاك يعتمد على الاتراك في محاربته للايرانيين). هو الذي حث عبد السلام على التفاوض مع الأتراك وتم اعتقاله. ورداً على ذلك نظم الروس حملة تأديبية ضد من ساعد من العشائر في تسليم عبد السلام. من جراء الحملة دمرت قرى كثيرة لاتباع تلك العشائر. الا ان هذا لم ينقذه من الاعدام. في كانون الاول عام ١٩١٦ تم اعدامه واربعة من اتباعه في ميدان الموصل. من بعده ترأس أخاه أحمد البالغ من العمر ١٨ عاماً العشيرة. ويقول نيكيتيين: ((ان الشيخ عبد السلام، لم يكن ضالعاً في الألاعيب السياسية، لذا وقع ضحيتها.)) برأينا القول ان الشيخ لم يكن محظوظاً. لنتذكر انه اعتقل في ايلول عام ١٩١٤، عشية المنعطفات التاريخية في المنطقة. والأصح ان هذه الانعطافات كانت قد بدأت، الا انها كانت في طريقها إلى تركيا. لانه في ٣٠ من تشرين الأول اطلقت الباخرتان الألمانيتان ؛

((غبن)) و((برسلاو)) اللتان أبحرتا تحت العلم التركي نيرانهما على اوديب وسفاستوبل. ومن ثم تلاها الجهاد والاستنفار العام. لقد دخلت تركيا الحرب العالمية الأولى.

كوردستان الجنوبية تصبح عراقية

ان الحرب العالمية الأولى، غيرت معالم الخارطة السياسية والقومية في المنطقة. فاعطت لشعوب الأمل وللآخرين المآسى والضياع. وما يؤسف له، ان الكورد لم يكونوا من اعداد الرابحين. وبالعكس، بانتهاء الحرب، دخلت كوردستان مرحلة أكثر قهراً وسواداً، مقارنة مع جميع مراحلها التاريخية.

ما ان دخلت تركيا الحرب، ظهر الانكليز مباشرة في موزوبوتاميا وانزلوا المظلين وأخذوا البصرة في (٢٢ تشرين الثاني عام ١٩١٤). لكنهم بلغوا بغداد فقط في ١١ آذار عام ١٩١٧. وفي العام نفسه اخذوا تكريت، وهناك على الحدود المتاخمة لكوردستان، تجمدت الجبهة لغاية انتهاء الحرب.

لقد تحمل الشعب الكوردي، من جراء الحرب، مآسي فظيعة. فأنا لا اتحدث عن كوردستان الشرقية (الايرانية) فحسب، التي تحولت مباشرة إلى ميدان حرب بين الروس من جهة والألمان والأتراك من جهة أخرى، وانما عن ٦٠٠ الف مهاجر من كوردستان الشمالية الذين اجبرتهم السلطات التركية على الرحيل إلى وسط أناضول بهدف زوالهم وأضمحلالهم. فماتت عشرات الآلاف من الجوع والبرد. وكذلك أعني الأكراد الجنوبيين، الذين كانوا بعيدين عن معمعان الحرب، لكن من جراء تجنيد وسحب ممن كان يعمل في الحقول إلى جبهات القتال، عم الخراب في المنطقة. بعد الحرب، عندما دخل الانكليز إلى مدينة السليمانية، وجدوا هذه المشاهد: ((الجثث المرمية في الشوارع، الدور المهجورة. لقد بقى من سكان المدينة ثلثاً واما الثلثين الباقيين، فإما هاجروا أو ماتوا.))

في الثلاثين من شهر تشرين الأول لعام ١٩١٨، وقع الأتراك اتفاقية الصلح على متن الباخرة الحربية البريطانية ((آغا ممنون)) في ميناء مودروس (جزيرة ليمنوس)، بموجب هذه الاتفاقية (مودروس) كان على الأتراك التخلى عن الأراضي العربية. وبما ان

ولاية موصل لم تكن عربية، لذا بقيت تحت سلطتهم. مع ذلك، بعد عقد الصلح، تحرك الانكليز إلى الأمام. في الواحد من شهر تشرين الثاني، اشغلوا الموصل والسليمانية، حيث عين محمود البرزنجي واليا عليها، من قبل الرائد ((نوئيل)).

لم يرتاح الأتراك، لهذه الخطوات ((الغير العادلة)) التي من جرائها أخذت منهم ولاية موصل، في الوقت نفسه نسيوا، انهم بذاتهم اقدموا على خطوات مماثلة قبل شهر. اذ انهم أخرقوا في ما وراء القفقاز شروط صلح برست-ليتفا. ومع ذلك استمرت الاعتراضات الرسمية على ولاية موصل، ومازالت مستمرة لغاية يومنا هذا.

اقيم في ولاية موصل وكما في موزوبوتاميا برمتها، سلطة الاحتلال. لقد طرد الموظفون الاتراك ((وعادوا. من حيث أتو))، وعين الوجهاء المحليين في السلطة. الا انهم كانوا يعملون تحت امرة الموجهين الانكليز. (على ما يبدو، في سبيل تحاشي ردة الفعل لدى الموالين للروس سحبوا الضباط السياسيين).

يبدو، لم يدرك الانكليز انفسهم ما الذي سيفعلون في الولايات الواسعة غير الموالية لهم. في البدء، رغبوا في تكوين ((كونفدرالية العشائر في كوردستان الجنوبية)) من عشائر الامارة التي ستحارب بعضهم البعض لكن دون الاساءة إلى موزوبوتاميا (العربية.المؤلف) فان سبب تخلي الانكليز عن هذه الفكرة يعود إلى تواجد البترول في كل من كركوك والموصل. وفي سبيل استثمار النفط كما ينبغي، كان يتطلب سلطة مركزية خاضعة للندن. ان الامارات العشائرية المتحاربة، كانت ستشكل عقبة لاستثمار النفط، كما ينبغي. في الوقت نفسه، سرعان ما تحول حذر وتحفظ الاكراد من الانكليز إلى الاشمئزاز والنفور. وان انهيار الامبراطورية العثمانية، كون لدى الكورد أمل تشكيل دولته الخاصة به. وأما الانكليز، وان وعدوا بالكلام منح الحكم الذاتي للأكراد، لكنهم في الواقع شددوا رقابتهم. من جراء ذلك قامت الانتفاضة. ان شرف من قام بها يعود إلى افراد عشيرة ((گوى))في زاخو، اذ انهم قتلوا بعض الضباط السياسيين الانكليز في عالم ١٩١٩، ومن ثم حذا البارزانيون بقيادة الشيخ أحمد حذوهم. وسرعان عمت الانتفاضة غالبية العشائر الأخرى. وهنا ينبغي الاشارة، ان الشيخ أحمد لم يعترف قط بسلطة محمود البرزنجي، بل كان يكن له العداء، معتبراً اياه من اتباع الانكليز (أما الشيخ احمد نفسه كان يعادي المحتلين بدون مساومة ولذا سمي بعدو الانكليز الاكبر) ان سبب العداء لمحمود البرزنجي

يعود إلى الخلاف بين الطريقة النقشبندية والكاكائية. ومع ذلك ان انتفاضة ذاك الربيع ظلت محفوظة في ذاكرة الاجيال، مرتبطة باسم محمود البرزنجي.

بهذا الشكل تطورت الأحداث: ففي العشرين من شهر أيار وعلى حين غرة دخلت فصائل من عشيرة اورمان القادمة من ايران إلى مدينة سليمانية. وتبين ان زعيم الاورمانيين محمود آغا تحرك باتفاق سري مسبق مع البرزنجي، الذي اعتقل الضباط الانكليز المتواجدين في ٢٣ أيار وانزل العلم البريطاني من مقر قيادتهم ورفع بدلاً عنها علم كوردستان المستقل (الهلال الأخضر على أرضية حمراء) ثم حاصر القوة البريطانية الموجهة ضده في مضيق وانقض عليها واستحوذ على سلاحهم، بعد اسر العديد منهم. ومن ثم توجه نحو كركوك، لكنه اندحر هناك في معركة دامية فخرج واسر وحوكم من قبل محكمة انكليزية عسكرية ميدانية. لكن البرزنجي لم يعترف بالمحكمة وقرارها وطالب بتعيين محام للدفاع عنه واعلن ((انه حارب الانكليز، كحق مشروع في سبيل حرية واستقلال شعبه، المعترف به من قبل الحلفاء ذاتهم.)) فحكم بالاعدام، واستبدل فيما بعد بعشر سنوات نفياً إلى الهند.

لم تتوقف العمليات العسكرية الانكليزية طوال فترة الصيف وذلك بهدف ارغام العشائر الثائرة على التوبة وطلب العفو، لكنهم فشلوا في تحقيق هدفهم المرجو. وعلى سبيل المثال وفي شهر كانون الاول قتل البارزانيون القوميسار الانكليزي في موصل بيل مع اثنين من مساعديه واثنين من مرافقيه، ورداً على ذلك، انقض الانكليز مجدداً على برزان ودمروا الدور العائدة إلى عائلة البارزاني. وفي الجانب الآخر مل العرب ايضاً من المحتلين، لذا عمت، الانتفاضة المناطق العربية من العراق. ايد الاكراد قيام العرب بالانتفاضة، لكن بعض الاكراد لم يثقوا بالقوميين العرب وكانوا يعتبرونهم اعداء كالانكليز. ففي هذا الوضع اضطر الانكليز على التخلي عن رواندوز وكوي في كوردستان، لأنهم أدركوا في لندن بأنه لا يجوز استمرار الوضع على هذا المنوال لان بقاءهم في ميزوبوتاميا، حسب اعتقادهم على الشكل السابق لم يعد طبيعياً، لاسيما بعد أن فقدوا الكثير مادياً وبشرياً. ولم يكن من السهل فرض السلطة الانكليزية على شعب لم يرغب بوجودهم. فان الادارة الانكليزية (وحسب تخويل عصبة الامم) كانت تعلم بانها لا تستطيع البقاء طويلا هناك. ياترى اليس من الافضل لها ان تحافظ على النظام في

ميزوبوتاميا عن طريق العرب؟ ففي آذار ١٩٢١ وفي المؤتمر الذي عقد في القاهرة من قبل ادارة المستعمرات الانكليزية، قدم تشرشل (كان آنذاك وزيراً للمستعمرات) مشروع نشوء الدولة العربية، برلمانها وملكها الخاص. وحول الكورد عرض تشرشل فكرة انشاء حكم ذاتي لهم ضمن العراق، أو الاستقلال التام ان أرادوا ذلك. وقد قبل المشروع المقترح، أما عن شخصية الملك فوقع الاختيار على حليفهم القديم (فيصل) الذي تزعم انتفاضة حجاز في عام ١٩١٨ بعد تحرير دمشق من الأتراك، نصب نفسه ملكاً على سوريا، حيث دامت هناك ملكيته عامان حتى طرد من قبل الفرنسيين صيف عام ١٩٢١ جاؤوا به إلى بغداد ونصبوه ملكاً على العراق. اذ تم اختياره في اجتماع للبرلمان. فصوت النواب العرب لصالح تتويجه ملكاً أما النواب الاكراد فأما عارضوا ذلك او قاطعوه، لانهم تجاهلوا الحكم الذاتي للاكراد. وبنفي البرزنجي اشتد العداء اكثر للانكليز وفشل بليتسيت في السليمانية. وبهدف التخفيف من تذمر الكورد، وعدهم الانكليز والملك فيصل باعطائهم الحقوق القومية في الدولة الجديدة والسماح لهم التعليم والتعامل باللغة الكوردية وتعيين اداريين وموظفين من الأكراد في مناطقهم. ومع ذلك لم يدخل الاطمئنان إلى قلوب الأكراد.

اشغل المسؤولية الاولى في الدولة، بعد الملك فيصل، معاصره ورفيق دربه نوري السعيد الذي اشغل منصب رئيس الأركان في انتفاضة الحجاز. من الآن وصاعداً سيذكر اسم هذا الشخص كثيراً لان اسمه مرتبط بجميع المراحل التاريخية للملكية في العراق. حيث قاد الدولة لغاية ثورة تموز عام ١٩٥٨ وسحل في شوارع بغداد.

ان انشاء الملكية في بغداد الذي اعتبره الانكليز تدبيراً ناجحا لهم، سرعان ما اصطدم بتطور جديد غير متوقع، لان البرلمان في استانبول، قبيل فسخه، تبنى الوثيقة القومية التي بموجبها اعترف باستقلال العرب ورفض الاعتراف بولاية الموصل كجزء منفصل عن تركيا. ولو استمر الأتراك في محاربة اليونانيين، لكان بالامكان تجاهل هذا القرار، ولكن بعد ان دحر كمال باشا اليونانيين في ايلول عام ١٩٢١، ارسل جيشه إلى ولاية الموصل، التي شملتها انتفاضة الأكراد. سيطر الاتراك على راوندوز، لأنهم وعدوا الاكراد بمنحهم الحكم الذاتي الموسع وتحت سلطة واحدة وذات عقيدة واحدة، مما كسبوا دعم الكورد لهم. وفي الوقت ذاته زاد عداء ونفور الاكراد من الانكليز. بالطبع لم يستطع الشيخ أحمد والبارزانين البقاء بعيدين عن الأحداث. لذا في ايلول عام ١٩٢٢ حرروا العمادية من

الانكليز واحتفظوا بها لفترة من الزمن. وتداركاً للوضع وبهدف ارضاء الاكراد، قام الانكليز على عجل بتأسيس ادارة للحكم الذاتي في السليمانية وسلموا قيادتها إلى محمود البرزنجي المنفي إلى الهند. وفي الرابع والعشرين من شهر كانون الاول من عام ١٩٢٢ اضطر الملك فيصل التوقيع على الوثيقة الانكليزية-العراقية المشتركة. ((ان سعادته وحكومة العراق يقران بحقوق الاكراد والعيش ضمن حدود الدولة العراقية وتشكيل حكومتهم الخاصة بهم في اطار هذه الحدود.))

ونفذ محمود البرزنجي ما طلب منه بهذا الخصوص. وما ان استقر في السليمانية حتى اعلن نفسه ملكاً على كوردستان (تشرين الثاني عام ١٩٢٢) ومن ثم شكل حكومته وبدأ بصك النقود وطبع واصدار الطوابع. وفي الوقت نفسه اتصل سراً باعداء الانكليز، الاتراك والقوميين العرب وحتى وجه رسالة (عبر ايران) إلى لينين دعاه فيها إلى التحالف وتقديم السلاح. وفي ٢٣ شباط ١٩٢٣ طلب منه الانكليز مغادرة السليمانية فوراً. فرفض، عندها ارسل الانكليز الطائرات وقصفوا المدينة، فالتجأ البرزنجي إلى الجبال حيث صمد عدة سنوات. وبين الفينة والاخرى، كان يهاجم السليمانية فيأخذها، وما يلبث أن يتركها. (كانت الغارة الأخيرة عام ١٩٢٤) وتثنى للانكليز التغلب عليه في تشرين الثاني عام ١٩٢٥. التجأ البرزنجي إلى ايران ومن هناك وفي غضون عامين كان يهاجم الانكليز بين فينة وأخرى. وعندما اقتنع بعدم جدوى النضال، تخلى عن السلاح، لقاء العفو العام (عام ١٩٢٧).

في الوقت الذي كانت جبال كوردستان تنزف دماً، بدأت ورقة الدراما الكوردية تلعب في جبال اوروبا بين الدبلوماسيين من وراء الكواليس.

كما هو معروف، ففي العاشر من شهر آب عام ١٩٢٠، تم التوقيع على اتفاقية السلام في سيفر في ضواحي باريس مع تركيا المغلوبة (والأصح مع حكومة السلطان في استانبول، لان مصطفى كمال كان قد شكل حكومته في انقرا). ان شروط هذه المعاهدة كان اكثر مناسباً للأكراد. كان البند ٦٢ ينص على أن تمنح كوردستان الحكم الذاتي. وأما البند ٦٤، كان ينص على مايلي حرفياً: ((بعد مرور عام من ابرام هذه المعاهدة، وفي حالة اعلان الكورد القاطنين في المناطق الواردة ذكرها في البند (٦٢) ويقدمون بهذا الخصوص إلى عصبة الامم وثيقة تثبت ان غالبية السكان هذه المناطق ترغب في الاستقلال من تركيا

وان اقتنعت عصبة الامم بان هذا الشعب بمقدوره ادارة شؤونه بنفسه والعيش بشكل مستقل، عندئذ يقترح بمنحه الاستقلال. مع ان توافق تركيا على تنفيذ هذا الاقتراح وتتخلى عن حقوقها واعتراضاتها على هذه المناطق... وفي حالة تخلي تركيا عن حقوقها، فان الحلفاء لن يعارضوا، اذا اعلن سكان مناطق التابعة لولاية موصل رغبتهم في الانضمام إلى هذه الدولة الكوردية المستقلة.))

كما هو معروف، ان الاتفاقية لم تدخل حيز التنفيذ او التطبيق. حيث رفضها المجلس الوطني في أنقرا، ولم يكتف بذلك، بل أعتبر ولاية الموصل جزءاً من تركيا. فأيد أكراد تركيا الكماليين الذين وعدوهم بتأسيس ((دولة مشتركة للاتراك والكورد معاً، في سبيل النضال ضد الامبرياليين الغربيين)) وهذا ما أدى إلى انتصار كمال على جميع الجبهات. وفي ٢٤ حزيران عام ١٩٢٣ ابرم اتفاقاً جديداً في لوزان (سويسرا) لم تجد في نص هذه الاتفاقية كلمة تشير إلى الأكراد. أحيلت قضية الموصل إلى عصبة الامم. وبما ان الانكليز كانوا يسيطرون على هذه المنظمة، فكانت هذه دلالة واضحة لهزيمة كمال في هذه القضية. في اجتماع لمجلس عصبة الامم المنعقد في ١٦ كانون الاول عام ١٩٢٥ قرر ابقاء ولاية موصل ضمن حدود الدولة العراقية معتمداً على مايسمى بخطة بروسل المقررة قبل ذلك بسنة. فاضطر كمال الاعتراف بالحدود الجديدة حسب الاتفاق الثلاثي المبرم في حزيران ١٩٢٦ بين تركيا والانكليز والعراق. بهذا الشكل ظهرت الحدود القائمة اليوم بين تركيا والعراق، التي من جرائها جزأت كوردستان إلى اجزاء جديدة.

لقد تمت الموافقة على انضمام ولاية الموصل بشكلها النهائي إلى العراق، بعدة شروط وواجبات امام عصبة الامم، فتوجب على العراق، اعتبار اللغة الكوردية هي لغة السلطة الرسمية في كوردستان والاكتفاء بالتعليم في المدارس بهذه اللغة وكما توجب تعيين الأكراد في مناصب ادارة كوردستان. (هذه المكاسب تعتبر لاشئ اذا قرنت بالحلم، بتشكيل الدولة الخاصة للأكراد).

وبدورها، اصبحت انكلترا تهمل حقوق الاكراد، بعد حصولها على ولاية موصل. فركزت جلى اهتمامها على السلطة في بغداد التي حافظت على الأمن في مناطق خطوط أنابيب النفط، وان كانت، بين فينة واخرى وعند الضرورة تستخدم ((الورقة الكوردية)) في سبيل الضغط على هذه السلطة.

في السنوات العشرين من القرن العشرين، حقق الشيخ أحمد البارزاني في برزان، اصلاحاته الاخلاقية-الدينية، متابعاً بذلك ما بدأ به شقيقه الاكبر عبد السلام. فسعى لزرع المودة في قلوب الناس تجاه بعضهم البعض والعطف والحب نحو كل ما هو في الطبيعة. فاعلن ان كل كائن حي، هو مقدس، انطلاقاً من ذلك حرم قطع الاشجار واصطياد الحيوانات البرية والطيور. وكذلك منع الزواج القسري في منطقة برزان واذا مانع الوالدين زواج ابنتهما بمن تحب استخدم الشيخ أحمد سلطته لتزويجها بمن ترغب. وفي نهاية المطاف اختفى الزواج القسري وألغي المهر في مملكته. لقد كان ذلك كله جزءً من الاجزاء الموحدة من النظام الفلسفي-الديني الذي اهتدى به الشيخ أحمد. ومن المؤسف اننا لا نملك الوثائق التي اهتدى بها الشيخ وعلّم بها مريديه. ولكن هناك أقاويل واشاعات تقول ان الشيخ ابقى نصوص تعاليمه للحفظ، الا انها اتلفت بعد مماته، خشية اتهامه بالخروج عن القواعد الدينية.

يبدو، في نهاية العشرينات وتحت تأثير ملاحقة واضطهاد الاكراد في تركيا، توصل الشيخ أحمد إلى قناعة مفادها؛ ان الاسلام لعب دوراً سيئاً للغاية في تاريخ الكورد، وغدا سلاحاً في استعباد الكورد، لذا كان يود التخلص من تأثيره، وذلك بتشكيل مذهب خاص (دين خاص) للكورد وأما اجراء اصلاحات في الاسلام على أرضية الواقع الكوردي. ويغدو مفهوما، لماذا لجأت العائلة بعد مماته إلى إخفاء آثار أفكاره الأصلاحية للغاية. وبهذا السبب ذاته (قد يكون من منطلق سياسي بحت) مازال موضوع تعاليم الشيخ أحمد في كوردستان الجنوبية مغلق لغاية اليوم، مع ان بعض مريديه لايزالون على قيد الحياة.

ان فكرة قدسية كل ما هو حي والتي نادى بها الشيخ أحمد بهذا الشكل او ذاك، قريبة من افكار الزردشتية، لذا انتشرت شائعات من قبل أعداء الشيخ، في عام ١٩٣٠، عن انحرافه الديني بهذا الصدد كتبت صحيفة ((تايمس)) اللندنية بعض من هذه الأقاويل: ((كأن الشيخ احمد قد أعلن انتمائه الآلوهي، وبمناسبة تبنيه للدين الجديد، نظم حفلة، وأمام الجميع أكل لحم الخنزير)). ان هذه الأمثلة من المسموعات تدل على الجو الخانق الذي كان يحيط باصلاحات الشيخ احمد. ولكن في الواقع، كان الشيخ احمد يتمسك بالشرائع الاسلامية، قد يجوز بانه كان يعارضها في دخيلة نفسه. نحن نعلم ان مريديه،

من بعده، لم يتمسكوا بتلك الشرائع. وعندما كان يسألهم ((لماذا؟)) فكانوا يجيبون ((ليس بالضرورة)) أو ((ان الشيخ احمد شفيعهم عند الله)).

ترافقت اصلاحات الشيخ احمد الدينية، مع نشاطه السياسي المكثف. ففي عام ١٩٢٧، دعا مجدداً إلى الانتفاضة. فكانت مطاليبه المقدمة إلى بغداد، ولهذه المرة معتدلة وتتضمن تحسين الوضع الاقتصادي (المعاشي) للسكان، بناء المدارس وانشاء الطرقات، والاعتراف بالادارة الكوردية. ففي ١٦ آذار عام ١٩٢٨ التقى الشيخ احمد البارزاني مع القومسيار البريطاني، فطلب الاخير وقف الانتفاضة، وفي الوقت ذاته وعده باجراء الاصلاحات، لكن في حالة الرفض سيكون الرد حاسماً. وافق البارزاني على ايقاف الانتفاضة. وفعلاً نفذ البريطانيون بعض من وعودهم حول تحسين الأوضاع في كوردستان

ان الانتداب البرطاني على العراق كان ينبغي ان ينتهي في عام ١٩٣٢. فاعلنت بريطانيا استعدادها منح الاستقلال قبل المدة المقررة، لقاء ذلك، كان يتوجب على العراق التوقيع على معاهدة مجحفة بحقه. بموجبها بقي اشراف بريطانيا على اقتصاد وجيش المملكة ((المستقلة)). صيفية عام ١٩٣٠، وقع نوري السعيد على هذه المعاهدة، مما ادى إلى الامتعاض العام.

في وضع نشوء الازمة السياسية والصعوبات الاقتصادية في البلاد، بدأت انتفاضة محمود البرزنجي الجديدة. ان الاسباب المباشرة التي أدت إلى هذه الانتفاضة هي مايسمى ((باليوم الاسود)) الواقع في السادس من شهر ايلول. في هذا اليوم اطلقت الشرطة النار على المتظاهرين المحتجين في السليمانية. بعد ذلك قاد من جديد الشيخ محمود كوردستان الملتهبة الذي كان قد التزم الهدوء. اقترح الشيخ محمود على الانكليز تشكيل الدولة الكوردية تحت انتدابهم. حبذ الانكليز هذه الفكرة ووجدوا فيها سلاحاً للضغط على بغداد ولكن فيما بعد، وضعوا قواتهم العسكرية تحت تصرف بغداد للانقضاض على الانتفاضة. في أيار عام ١٩٣١ باءت الانتفاضة بالفشل وسلم محمود البرزنجي نفسه للسلطات وعلى متن طائرة انكليزية نفي إلى جنوب العراق.

لدى قيام الشيخ محمود بالانتفاضة، وجه رسالة إلى الشخصية الثانية في الحركة الكوردية-إلى الشيخ أحمد البارزاني داعيا اياه الانضمام. من المؤسف، تحكمت الانطلاقة المحلية في هذه الشخصية الغير الاعتيادية-كشيخ احمد ورفض الانضمام إلى الحركة التي قادها خصمه القديم. مع ذلك تعرض البارزانيون إلى القمع والعسف من قبل السلطات

لدرجة لا يطاق، وذلك بهدف تحطيم ارادة هذه العشيرة الثائرة. فجردت بغداد أفرادها من السلاح وفي الوقت ذاته سلمت العشائر المناوئة لها. ولكن عندما فرضت الضرائب على المواشي في منطقة برزان على وجه الخصوص، ثارت ثائرتهم وبقدوم الربيع خرج البارزانيون عن الطاعة. لكن بغداد غضت النظر عنهم، بسبب خطر البرزنجي. ومع ذلك، أرسلت الحكومة ممثلها في شهر حزيران إلى الشيخ احمد، ليطلب منه الاستسلام. ولم يبق أمام الشيخ أحمد سوى الأعلان عن الانتفاضة. فدعا إلى طرد الانكليز من إدارة كوردستان.

ففي الصحافة البغدادية خصصت صفحة تحت عنوان ((تحركات شيخ البرزان)) وهنا نرد بعض العناوين: ((لقد تحطمت القوات المرسلة ضد البارزاني. فحاصر كتيبة في واد وهاجمها من جهتين. تراجع العراقيون وتمكن الضباط الانكليز بصعوبة وقف الفارين. وبما ان القوات العراقية دخلت عمق أراضي الخصم، لذا تمكن البارزانيون عزلها عن الامدادات. باعتراف الانكليز، لو لا القصف الجوي من قبلهم وامدادهم بالسلاح والمؤونة، لوقع العراقيون في الأسر.))

ففي كانون الاول، من جراء القصف البريطاني المستمر، اضطر الشيخ احمد مغادرة مقره في قرية برادوست واللجوء إلى الجبال. في الشتاء ساد الهدوء. الا ان المعارك تجددت في أواسط آذار. في هذه المرة استخدم ضد برزان قوة قوامها عشرة آلاف جندي وشرطي أي ثلث الجيش العراقي. وسحبت بريطانيا جزءاً من طيرانها الحديث من مصر التي لم تجرب في المعارك هناك، دعماً للعراقيين ضد الأكراد. حسب ما كتبه النقيب البريطاني ممغرود: ((لقد تعرضت المناطق التي كانت تحت سيطرة الشيخ احمد إلى قصف كثيف حتى لم تنجو المواشي.)) في الوقت ذاته تحدث القوميسار المدني ولسون بامتعاض في لندن: ((ان هدم القرى وقتل المواشي وتشويه النساء والاطفال، كل ذلك تشهد حسب تعبير مراسل (تايمز) على جانب واحد من الحضارة)). حسب معطيات نيكنين ان ما دمره القصف البريطاني حوالي ١٣٦٥ داراً في ٧٩ قرية.

لقد واجه البارزانيون الطائرات ببنادقهم فقط. ففي شهر نيسان تمكنوا من اسقاط طائرتين، الا ان كل ذلك لم يستطع اسعافهم. آنذاك كتبت جريدة ((تايمز)) : ((طوقوا الشيخ من جميع الجوانب: الاتراك على حدودهم، الطائرات في الجو والجيش على الارض يزحف نحوهم.)) في أيار تمكنت القوات الحكومية من السيطرة التامة، مما اضطر الشيخ

احمد مع أنصاره اجتياز الحدود التركية في ٢٢ من حزيران، وتسليم انفسهم للأتراك. الا ان الاتراك قاموا بتسليمهم إلى العراقيين. فنفي الشيخ العاصي إلى جنوب البلاد فاعدم الاتراك مائة شخص من مواليه بتهمة الجرائم المرتكبة ضد الامبراطوري العثمانية. (حتى المحكمة التركية لم تتجرأ محاكمة المواطنين لدولة أخرى بتهمة التمرد ضد حكومتهم.)

ومن الجدير بالذكر سعت الحكومة البريطانية "جاهدة" وحتى النهاية اخفاء والتستر على الانتفاضة في البرزان، خشية ان تتهم في فشل سياستها في العراق. وعندما أضحى علنياً، ما كان مخفياً، قدم أحد النواب بطلب إلى الحكومة بالكشف عن الحقائق. فصرح وزير المستعمرات حرفياً مايلي: ((صيفية العام الماضي في مناطق كوردستان العراق النائية، حيث لا وجود لسلطة الادارة العراقية، نشأت اصطدامات خطيرة بين العشائر. المذنب الاول، هو الشيخ الكوردي المسمى البارزاني، اذ تبنى ديناً جديداً وأراد فرضه على العشائر المجاورة عن طريق القتل والنهب.)) كان رد الفعل على هذه التوضيحات القهقهة من قبل النواب المعارضين.

وكخاتمة لحركة الشيخ احمد البارزاني، قيام انتفاضة في برزان عام ١٩٣٤ بقيادة خليل خوشوي الذي طالب بالحكم الذاتي. الا انها فشلت بعد سنة من قيامها، من جراء المساعي التركية العراقية المشتركة في الانقضاض عليها. فاعدم قادتها الأساسيين وأخذ خوشوي ذاته في الأسر ثم اعدم. باعدام خوشوي انتهت مرحلة بطولية من النضال، غالباً ما كانت محلية-برزانية بحتة. وبعد هذه السلسلة من الانتفاضات، تبدأ المرحلة الجديدة المقرونة باسم وحركة ملا مصطفى البارزاني.

مصطفى البارزاني
بداية الطريق الحياتية

لا نبالغ، اذا قلنا ان مصطفى البارزاني، نطق عباراته الاولى في السجن، اذ زج في السجن التركي مع والدته وهو في الثالثة من عمره. وكانت هذه انطباعاته الاولى عن الحياة. وفي عام ١٩١١ أصبح شاهد عيان لاعدام أخيه في الموصل. وهنا يمكننا ان نتكهن

فقط، كيف اثر ذلك على نمو الشاب وهو في بداية حياته وأي حقد نشأ في داخله تجاه المستبدين والظالمين.

لم يتمكن مصطفى الحصول على تعليمه كما يجب وكان يشير إلى ذلك باستمرار. بعد سلسلة انتفاضات الشيخ عبد السلام، نفيت عائلته إلى بغداد وهنا دخل مصطفى المدرسة الدينية وكان من أفضل تلاميذها. عندما شبَّ وجد نفسه في مسقط رأسه-في البرزان وتغدو ((جامعاته)) مساهمته في انتفاضات اخوانه. وما ان بلغ عامه الحادى عشر، في سنة ١٩١٤، حتى ذاق "طعم النضال" وفي عام ١٩١٩، وهو في السادسة عشر من عمره، يقود فصيلة. وفي هذا الوقت ذاته ساهم مصطفى البارزاني مع الآخرين بانقاذ عائلة البطل الأرمني القومي آندرانيك. كان يربط أندرانيك بالبارزانيين، علاقة وطيدة. منذ أيام عبد السلام اللذان ناضلا معاً ضد الأتراك. لقد وجه أندرانيك رسالة في عام ١٩٢٠ إلى الشيخ أحمد راجياً فيها انقاذ عائلته التي حسب تعبيره مهددة بالموت. لقد تم تشكيل فصيلة بقيادة وليد بك، وكان مصطفى الشاب في عدادها. صارت الفصيلة بين العشائر الموالية للأتراك، على انها بطريقها إلى مذبحة الأرمن. هذه الحيلة مكنتها من انقاذ عائلة اندرانيك ونقلها إلى الأراضي السورية.

بعد أحداث اعوام ١٩١٩-١٩٢٢ الصاخبة، أتجه الشاب مصطفى (كأخ للشيخ البارزانيين لا أكثر) إلى كوردستان تركيا للمباحثات مع زعماء حركة تامويين الكوردية. ففي مدينة موش التقى مع الشيخ سعيد الشهير الذي سرعان ما قام بانتفاضة ضد الأتراك. وفي نهاية العشرينات يقيم الشيخ أحمد وملا مصطفى علاقات مع منظمة ((خويبون)) التي نظمت جيشاً كوردياً في جبال ((آغري)) (آرارات)، بقيادة احسان نوري باشا (١٩٢٧-١٩٣٠) ان هذه التشكيلة تتميز عن غيرها من التشكيلات الكوردية، كونها لأول مرة نظمت جيشاً نظامياً. فيتوجه مصطفى مع قوة تعدادها (٥٠٠) نفراً لدعم القائمين بالانتفاضة وفي منطقة أورومار يشتبك مع الأتراك. إلا انه لم يستطع شق طريقه إلى احسان نوري باشا، لأن الخصم واجهه بقوة كبيرة في اورومار، مما اضطر إلى التراجع والعودة إلى الأراضي العراقية.

عاد ملا مصطفى عام ١٩٣٠، والأزمة السياسية كانت في أوجها وذلك من جراء التوقيع على الاتفاقية المجحفة بحق العراق مع الانكليز، وفي عشية الانتفاضة الجديدة للبرزنجي.

فيرسله شقيقه إلى بغداد لعرض مطاليب الكورد إلى الملك فيصل. يلتقي الملك مع مصطفى البارزاني والنائب عن سليمانية ماجد مصطفى ولم يسفر اللقاء عن أي شئ.

وسرعان ما بدأت انتفاضة الشيخ أحمد الجديدة، ولاول مرة يتسنى لمصطفى فرصة لإظهار موهبته الحربية. ففي بداية نيسان عام ١٩٢٢ في وادي ((دازي)) حول برزان يتمكن من دحر فصيلة الفرسان تحت قيادة العقيد هادي سري أحمد.

بعد لجوء الشيخ أحمد إلى تركيا، تراجع مصطفى مع أخيه محمد صديق إلى الجبال. وعندما سلم الأتراك الشيخ أحمد إلى العراقيين، سلم مصطفى نفسه للسلطات لقاء العفو عن أخويه. وبالفعل تم إخلاء سبيل اخوته، ولكن ليس لمدة طويلة. ان بقاء الشيخ في جو من الحرية، كان يشكل خطراً على السلطة، لذا دعي إلى موصل في بداية عام ١٩٣٤ ووضع تحت الاقامة الجبرية. والاكثر من ذلك، قرر محافظ موصل التخلص منه نهائياً فدعاه في شهر تشرين عام ١٩٣٥ إلى داره وقدم له فنجاناً من القهوة المسمومة، الا انه نجا باعجوبة.

ففي فترة الاقامة الجبرية في الموصل، التي كانت تعتبر مركزاً للثقافة، عمل مصطفى على تثقيف ذاته. وفي الوقت ذاته وجدت السلطة حجة لتتهم أخاه ومن معه بتهمة مناصرتهم لانتفاضة خليل خوشوي، واسناداً إلى ذلك ابعدتهم إلى بغداد ومن ثم إلى الناصرية وأخيراً إلى البصرة.

في عام ١٩٤١ حدث انقلاب في العراق، فجاءت حكومة رشاد علي ذات الاتجاه القومي إلى سدة الحكم. كان رشاد علي ذو ميول قومية ومعادياً للانكليز, في سبيل تحاشي الاصطدام مع الأكراد، اعاد البارزانيين إلى موطنهم كوردستان. فوضع الأخوان تحت الاقامة الجبرية في مدينة السليمانية، حيث وجدا همزة وصل مع الجمعية الوطنية المؤسسة تواً ((هيڤى)) (الأمل). لم يبقى رشيد في السلطة طويلاً، اذ تدخلت انكلترا بقواتها إلى بغداد وأزاحته عن السلطة وأقامت ادارتها الاحتلالية. وبقي ملا مصطفى طيلة هذه الفترة في سليمانية، إلى ان ساعدوه ضباط الاعضاء في جمعية ((الهيڤى)) وكذلك ابن محمود البرزنجي إلى الهرب لاجتياز كوردستان ايران، ليحل في نهاية المطاف في موطنه برزان.

انتفاضة ١٩٤٣-١٩٤٥

في برزان، وجد مصطفى وضعاً مخيفاً. اذ لم تتمكن المنطقة بعد من لمَّ شملها، من جراء الحروب المتعاقبة في الثلاثينات والأسوأ من ذلك سياسة الحكومة العدائية تجاهها.

فمن جراء القحط، ادخلت الحكومة نظام البطاقات لاستلام المواد التموينية. لكن برزان حرمت من هذه البطاقة ولم تمول قط. ولم تمول بالمواد الانتاجية الأخرى. ولاسيما، اساء إلى السكان، قرار الحكومة باحتكار التبغ-المورد الرئيسي لقاطني المنطقة. بكلمة أخرى كانت برزان تنتظر اشارة البدء بانتفاضة جديدة.

وهنا ينبغي القول أن الوضع في عموم كوردستان، كان سيئاً للغاية، حيث لم تقدم الحكومة، عملياً، اية مساعدة لتطور الاقليم. (ان المطالبة بتخصيص نسبة من الميزانية العامة لتمويل كوردستان، قد قدمت ابتداءاً من ١٩٢٩ إلى الحكومة. عندها تقدم اربعة نواب اكراد بطلب إلى الملك فيصل بفرز ٢٠٪ من ميزانية الدولة لاحتياجات كوردستان). قد نجد اهمال كوردستان، في الأمثلة التالية: في عموم كوردستان (ماعدا المدن الاساسية) كانت هناك اعداديتان (المتوسطة) و٣٠ مدرسة ابتدائية. وسمح بالتدريس باللغة الكوردية في المدارس الابتدائية فقط. ومع ذلك غالبية ساعات التدريس الاسبوعي كانت لصالح اللغة العربية. من اصل ٣٧ ساعة في الاسبوع، ٢٤ منها كانت مخصصة للغة العربية. ففي عموم كوردستان، آنذاك، استطاع (١٤٠٠) تلميذ التعلم بلغته الام. وان نسبة الموظفين المرسلين من بغداد إلى كوردستان كانت ٩٠٪ وجميعهم كانوا عرباً. ان هؤلاء الغرباء، كانوا يسيئون إلى الكورد ولم يقضوا حاجات السكان إلا بالرشاوي. كل ذلك، ساعد على تفشي الفقر والجوع. بالاضافة إلى ذلك، ان ارتفاع اسعار السلع، من جراء الحروب العالمية، زادت الطين بلة.

ان سياسة الحكومة الاجتماعية، في كوردستان، نصبت في اتجاه واحد وهو تمتين وتشديد الرقابة على العشائر التي كانت تملك ادارتها الذاتية. لأجل تحقيق هذا الهدف، وضعت مراكز للشرطة في هذه المناطق وعززتها بالسلاح. وبهدف الوقوف ضد مراكز الشرطة، قرر البارزاني مع انصاره القدامى البدء بالانتفاضة والاستيلاء عليها. ان السيطرة على هذه المراكز، كانت لها فائدتين: الأولى هي تحطيم رقابة الحكومة، والثانية هي الحصول على السلاح. (لقد جردت برزان بعد حوادث الثلاثينيات من السلاح). فمثلاً خلال ربيع عام ١٩٤٣ جرد البارزاني ٢١ مركزاً للشرطة من السلاح, وفي الوقت نفسه سيطر مع انصاره على مستودعات الحكومية للقمح، الذي كان يحتاجه السكان الجائعون بشدة. ان الانباء الأولية، عن عمليات البارزاني كانت بمثابة استجابة لرغبة السكان، طالما

طال أمده، لذا تدفق الناس وانضموا إلى الثائرين بالعشرات يومياً. ولا سيما انضم اليه باعداد هائلة الضباط والجنود الذين طردوا من الجيش بعد أحداث عام ١٩٤١. كتعبير عن قوته، وجه البارزاني رسالة إلى نور السعيد بمطاليب عادية، بالدرجة الأولى كانت تخص الأوضاع المعاشية للشعب. رداً على رسالته، وجه نور السعيد انذاراً مطالباً اياه، التجريد من السلاح. وإيذاناً للمواجهة ابعد الشيخ أحمد من السليمانية إلى الجنوب.

وفي حزيران، بدأت حرب حقيقية، ولم يكن النصر إلى جانب حكومة نوري السعيد. وتحطم جميع قوى الجيش الموجهة إلى برزان. وفي منطقة ميّرگا سوّر، حاصر البارزاني القوى العسكرية الحكومية في الوادي والحق بها الهزيمة ايضاً. وفي ايلول، وعندما أيقن نوري السعيد ان "الحملات التأديبية" لن تجد نفعاً، ولعدم توفر الامكانيات لدخول حرب أوسع، صار يبحث عن مخرج. في البدء طلب الدعم من الانكليز. ولذا طالب السفير البريطاني من البارزاني، مغادرة العراق، مهددا اياه بالتدخل العسكري. ففي عداد عرض القوى العسكرية الانكليزية، انتشر بعض القوى (من متطوعين الهنود) حول نهر "ديالا". مع ذلك لم يؤثر هذا التهديد على البارزاني، وبلغ عدد الثائرين ١٣ الف مسلح. عندئذ قبل نوري السعيد البدء بالمفاوضات. فعين النائب عن سليمانية مصطفى ماجد، وسيطاً بين المتفاوضين ومنحه منصباً بدرجة وزير الدولة. وفي الوقت ذاته، ارسل إلى منطقة الانتفاضة ((ضباط الارتباط))- ثلاث ضباط عسكريين من أصل كوردي وذوي ميول قومية كوردية، وكان واضحاً، انهم سيكونوا موضع الثقة لدى البارزاني. لقد كان الضباط الثلاث هم: النقيب عزيز راوندوزي والرائد عزت عبد العزيز والنقيب عزيز شمدين. ففي ميّرگا سوّر، التقى هؤلاء مع البارزاني (في نهاية كانون الأول). وقدم ملا مصطفى لهم الشروط التالية:

١. تشكيل اقليم كوردي من المدن: كركوك، اربيل، سليمانية، خانقين ودهوك.
٢. تعيين وزيراً كوردياً لشؤون الاقليم.
٣. وتعيين معاوناً كردياً لكل وزير.
٤. اعلان اللغة الكوردية، لغة رسمية إلى جانب اللغة العربية.
٥. اجراء الاصلاحات الاقتصادية في كوردستان.

هذه كانت السلسلة الاولى من الاتفاقات السلمية التي ابرمها البارزاني مع حكومة بغداد في فترة نضاله الطويل. شرعت الحكومة بتنفيذ بنود الاتفاقية، فألفت تأميم التبغ وبدأت بتنظيم مسألة التمويل في المنطقة. وتجول مصطفى ماجد في كوردستان لمنع الفساد وطرد الموظفين ممن استغل منصبه وأساء إلى السكان، وعين الكوردي بهاء الدين نوري محافظاً على مدينة السليمانية. كل هذا، ساعد على ايجاد جو ملائم للتفاهم والثقة. وفق الاتفاقية المبرمة، توجه البارزاني في الثاني والعشرين من شهر شباط إلى بغداد، إلا انه سرعان ما غادرها لشعوره بعدم توفر الأمن اللازم. الا إن نوري السعيد بنفسه قام بزيارة كردستان بمرافقة مصطفى ماجد في شهر (آذار). ففي مدينتي كركوك واربيل القى كلمات، حسب ماذكره آ. فيدجينكو ((مدح فيها رجولة الشعب الكوردي وأكد على انتمائه الكوردي واعرب عن رغبته الصادقة في تنفيذ مطاليب الأكراد العادلة.))

إلا ان الفرحة لم تدم طويلاً. فعارض جميع وجهاء بغداد السياسيين بمافيهم الوزراء وغالبية النواب وعبد الإله خال الملك فيصل، هذه الاتفاقية. ولم يصادق البرلمان عليها (في حزيران). ولم يبق أمامه سوى تقديم إستقالته، وهذا ما فعله. في الظاهر، كانت هذه اشارة لأزمة حكومية في أطر التقاليد البرلمانية. ولكن ينبغي الاشارة، إن نواب البرلمان العراقي كانوا دوماً في ايدي نوري سعيد. ولم يكن عبثاً قول المعاصرون بأنه ليس البرلمان المسؤول عن الحكومة وانما العكس. ونوري سعيد القومي المعتدل ذو الميول الديكتارية، لم يأخذ على محمل الجد مشروع الحكم الذاتي للأكراد. ولذا لم يدافع عنه. وما الحملة الدعائية في سبيل الاتفاقية السلمية، سوى لعبة منه في سبيل كسب الوقت. ومن المحتمل، كانت بغداد تنتظر نهاية الحرب العالمية الثانية، في سبيل اشراك الجيش الانكليزي وطيرانه ضد الأكراد. مهما تكن الاسباب، تشكلت حكومة جديدة برئاسة حمدي الباچچى، الذي ابقى مصطفى ماجد في الحكومة، لكنه شرع باعتقال الأكراد الوطنيين وأعادة مراكز الشرطة إلى كوردستان. مع ذلك، كانت الاتفاقية من حيث الشكل سارية المفعول. ارسل الباچچى وفدين إلى سليمانية ودعا البارزاني إلى بغداد للمباحثات. فأجاب البارزاني بايجاز: ينبغي تنفيذ اتفاقية العاشر من شباط ولا شيئ آخر. فأخذ الطرفان فرصة للتأمل، فاستغل البارزاني هذا الوقت، لايقل عن استغلال الحكومة: فأتصل مع الضباط الأكراد، ففي ١٥ تشرين الثاني عام ١٩٤٥ شكلت ((لجنة الحرية)) منهم وأصبح

البارزاني رئيساً لها. أسست هذه اللجنة فروعاً لها في مناطق الانتفاضة وكانت مهمتها قيادة الحركة الكوردية التحررية. فأعلنت منظمة ((هيڤى)) دعمها السياسي للانتفاضة وكذلك منظمتي ((الثورة)) الاكثر يسارية ومنظمة ((الحرية)) مساندتهما للحركة. وتمركز ممثلو البارزاني في الخارج ايضاً (كبيروت). وعبر ممثليه في بغداد، ارسل بياناته إلى سفارات الدول الكبرى. اختلف مستوى الوعي السياسي لهذه الانتفاضة عن مثيلاتها وذلك بشموليتها وإدراكها السياسي. وأما الانتفاضات السابقة، فكانت تتميز بطابعها المحلي والعشائري. نحن نرى في الحركة الأخيرة، ذات الجسر الذي امتد من شيوخ البرزان ليصل بالقضية الكوردية – إلى ثورة الحادي عشر من ايلول لعام ١٩٦١.

ففي ربيع عام ١٩٤٥ جرد الأكراد مجدداً مراكز الشرطة في كوردستان من السلاح. في هذا الوقت، وليس بعيداً عن برزان، تشكلت جمهورية انفصالية في ايران (جمهورية ازربيجان). وكانت تجري استعدادات لتشكيل جمهورية كوردية ايضا. فوجه المهاباديون نداءاً إلى البارزاني دعوه فيه إلى توسيع رقعة نضاله لتشمل جميع كوردستان. وفي بغداد كانوا يعلمون النوايا وكان اعضاء الحكومة آنذاك يتحدثون بوضوح عن خشيتهم لانضمام البارزاني إلى الحركة التمردية في ازربيجان (القصد هنا جمهورية مهاباد).

بحلول الصيف، حشدت الحكومة قوتها العسكرية، حتى وصل تعدادها إلى ٢٥ الف عسكري- وهو نصف تعداد الجيش العراقي وفي مطاري اربيل وموصل تمركزت طائرات سلاح الجو العراقي (٢٥ طائرة). قام الجيش بمناورات عسكرية في منطقة زاخو، وذلك لتدريب الضباط والجنود في شروط الطبيعة الجبلية. وفي الوقت ذاته تم محاصرة كوردستان اقتصادياً، وانقطع انقطاعاً تاماً ارسال المواد التموينية وغيرها عن كوردستان.

لقد كان لدى البارزاني آنذاك ما يقارب ٥ آلآف مقاتل. وما كانوا يملكون من السلاح سوى البنادق وبضعة مدافع مأخوذة من مراكز الشرطة. وفي انتظار بدء العمليات العسكرية، قسم البارزاني منطقة الانتفاضة إلى ثلاث جبهات، ووضع على رأس قيادة كل جبهة ضابط نظامي (على الأغلب من الضباط الارتباط المرسلين من الحكومة اليه للمباحثات سابقاً). وعلى وجه التحديد ترأس الجبها الشرقية النقيب مصطفى خوشناف والملازم محمود قدسي. وأصبح عزة عبد العزيز وعبد الحميد بكر آمراً على الجبهة الغربية. واما الجبهة الجنوبية فقادها أحد افراد عائلة البارزاني، سليمان البارزاني.

سار التحضير للحرب على قدم وساق. نعتت الحكومة البارزانين بشتى النعوت من العصاة إلى المتمردين وغيرها. واما البارزانيون بدورهم كانوا يوزعون المناشير باللغة العربية، ويؤكدون فيها انهم من دعاة الاخوة العربية-الكوردية. وان حركتهم ضد العدو المشترك الا وهو الامبرياليين واعوانهم وان مطالبيهم عادلة وجاء في البعض من هذه البيانات التالي: ((ان الحكومة تخفى عنكم الحقيقة وتنشر المعلومات الكاذبة عنا.. فيطالب الكورد بفتح المدارس والمشافي والصيدليات والطرقات، وبحرية الرأي والقضاء على الفقر والبؤس في كوردستان والخ... بدلاً من الاستجابة لهذه المطاليب الشعبية، ارسلت جيشاً لفرض ارادتها بقوة السلاح.))

في بداية آب اعلنت بغداد رسمياً عن رغبتها في ((اشغال منطقة برزان)) وذلك بحجة مليئة بالسخرية، : ((ان العصاة يعرقلون مشاريع الحكومة لبناء المدارس والمشافي وغيرها من المشاريع التي تحتاجها المنطقة.))

ففي السابع من آب، تحركت القوات العراقية تحت قيادة الجنرال الانكليزي "رينتون"، من منطقة راوندوز، بهدف اجتياز منطقة الانتفاضة وتقسيمها إلى شطرين. ولكن لم يتسنى لهم ذلك. ففي الاسبوع الأول من بدء المعارك، تمكن البارزانيون من تحطيم اربعة بطاليون (الكتيبة). فاجبر العدو على التقهقر، لكنه اعاد الكرة وهاجم من ناحية راوندوز وعمادية. ولكن لم يمنع ذلك الحكومة بالتبجح بالنصر الكاذب.

بهذا الصدد كتب من بغداد مراسل " رويتر:" في العشرين من شهر آب، على انه اكثرية ((عصاة البارزانيين)) تم اعتقالهم وزج بهم في السجون. وتماماً في هذا اليوم، تمكن ما يسمى بالعصاة انفسهم محاصرة قسم من الجيش العراقي في الجبال وجردوهم من السلاح. وفي بداية ايلول تمكن البارزاني من طرد القوات الحكومية من المناطق الجبلية وسيطر سيطرة تامة على كل من زاخو وآكرا والعمادية، وزيبار وراوندوز واتجه نحو السهل إلى اربيل. لقد كانت الفصائل الامامية من قوات البارزاني على مقربة عشرين كم من هذه المدينة. وبعبارة اخرى، لقد اخفقت حملة الحكومة ولحق بها العار. وكتبت المجلة السوفيتية بشئ من السخرية: ((كيف ان الأكراد بعددهم وعدتهم القليلة، تمكنوا من تحطيم ١٣ كتيبة عراقية من الجيش والشرطة المرسلة لمحاربتهم.))

سارعت انكلترا كعادتها إلى انقاذ ((الجيش العراقي المغوار)). وخشية على منابع النفط في الموصل وكركوك ((اهدت)) على عجل ٣١ طائرة حربية للعراق. وفي الوقت ذاته ساهم الطيارون الانكليز في قصف مناطق الانتفاضة. مرة اخرى تكرر ما قام به الانكليز قبل ١٩ عاماً من اعمال بشعة ضد الأكراد، مع فارق في التقدم التكنيكي. فقصف الطيارون من الجو المواشي والأهالي. فتعرض اكثر من خمسة قرى إلى القصف، وسويت هذه القرى بما فيها البرزان مع الأرض. بهذا الصدد وزع ممثل البارزاني بياناً في بيروت: ((ان الجيش العراقي يستخدم الاسلحة الثقيلة في سبيل تدمير القرى الكوردية وسكانها الآمنين من الأطفال والنساء.)) وفي الوقت ذاته ارسل البارزاني (عن طريق ممثله في بغداد) نداءاً إلى سفارات الدول الكبرى: ((في الوقت الذي اوجه اليكم هذا النداء، تموت النساء والأطفال من جراء قصف الحكومة العراقية لهذه المنطقة. ولذا ندعوكم الابلاغ حكوماتكم بما يجري من اعمال تتنافي مع ميثاق الأطلسي (آتلند) الذي بموجبه يعطي الحق لكل شعب في تقرير مصيره بنفسه. ان حكوماتكم مدعوة لوقف تجاوزات الديكتاتورية العراقية.))

ان صرخة الاغاثة هذه، لم تجد لها آذاناً صاغية. وكما وجه البارزاني رسالة إلى ستالين ومولوتوف بالذات يطالبهما بتقديم العون من السلاح والعتاد، وعبر عن استعداده بربط العلاقات مع الاتحاد السوفيتى على كافة المستويات ((بما في ذلك الانضمام إليه كاحدى جمهورياته.)) ولم يلق الجواب هنا ايضاً. بل اعتبروا في الكرملن؛ ان هذه الرسالة ما هي إلا لعبة من الانكليز.

وفي الوقت ذاته، توجهت الدبابات العراقية بثلاثة ارتال إلى البرزان. ولم يستطع الأكراد مواجهة هذه القوة الهائلة. في ٢٥ ايلول وعلى بعد ٢٤كم من البرزان، نشبت معركة حادة مابين القائمين بالانتفاضة والجيش العراقي الذي يحاصرهم. تمكن البارزاني من اختراق الحصار واتجه نحو الحدود الايرانية. وفي السادس من تشرين الأول أعلنت الحكومة رسمياً السيطرة على برزان. وأسدل الستار على أحداث دامية طال أمده. وبذلك انتهى كل شئ. وبنداء خاص من عبد الإله، هنأ فيه الجيش بالنصر المظفر. ووزع الاوسمة على زعماء العشائر الكوردية، ممن ساهم بالقضاء على الانتفاضة.

آنذاك، اشار المراقبون؛ لما استطاعت الحكومة نيل النصر بهذه السرعة، لولا دعم هؤلاء الزعماء الذين باعوا انفسهم للسلطة. ولذلك يعتبر الأكراد العملاء اكثر خطراً على الحركة من قوة الحكومة، لأنهم كانوا على دراية بجغرافية المنطقة وبمقدورهم القتال في شروط الطبيعة الجبلية.

ففي اربيل تشكلت محكمة ميدانية، وحكمت على ٣٥ شخصاً بالاعدام (بما فيهم الشيخ أحمد وملا مصطفى) و٧٠ شخصاً آخر باحكام مختلفة. ووقف أمام هذه المحكمة الضباط الاربعة الذين ساهموا في الانتفاضة وهم: الرائد عزة عبدالعزيز والنقيب مصطفى خوشناف وخيرالله عبد الكريم والملازم محمود قدسي. فأعدموا جميعاً. وقبيل الاعدام قال عزة عبد العزيز: ((لقد رويت شجرة الحرية بدمي وآمل على انها ستزدهر من جديد وستجلب للوطن الحرية والسعادة.)) وأما خوشناف فهتف امام حبل المشنقة: ((اعتز لأن اسمي لن ينسى من قبل ابناء شعبنا وسيكون بجانب اسماء ممن ضحوا بحياتهم في سبيل مجد وسعادة كوردستان.))

في هذا الوقت اجتاز البارزاني مع الفين من مقاتليه حدود ايران متجهاً نحو مهاباد.

جمهورية مهاباد

عندما ظهر البارزاني في مهاباد، كانت كوردستان ايران على عتبة اعلان الجمهورية. كما هو معلوم، كانت السلطة في ايران، ابان الحرب العالمية الثانية بايدي القوى المؤيدة لألمانيا، ولذا بالاتفاق مع انكلترا تم احتلالها من قبل الاتحاد السوفيتي في حزيران عام ١٩٤١. ففي القسم الشمالي، حيث كان يوجد السوفيت، شجعت الحركة القومية الازربيجانية هناك. من جراء ذلك تأسس الحزب الديمقراطي الازربيجاني-ايران وفي عام ١٩٤٥ تم الاعلان عن جمهورية ازربيجان الديمقراطية. كان واضحاً للعيان، ان الاتحاد السوفيتي يرغب بانضمامها إلى ازربيجان السوفيتية. وبالطبع المبادر الأول، لهذه الفكرة، كان باغيروف السكرتير الاول للحزب الشيوعي الازربيجاني.

ولدى تأسيس جمهورية ازربيجان، لحق بعض المناطق من كوردستان ايران إليها. واما القسم الأكبر، الذي كانت مهاباد مركزه والواقع بين شطرى السوفيتي والبريطاني، بقي كمنطقة حرة، ليس خاضعة لأحد. واما في الواقع فان قاضي المدينة ووالياها القاضي محمد، أصبح مسؤولاً عن ادارتها. ففي آب عام ١٩٤٥ أصبح القاضي محمد رئيساً للحزب الديمقراطي الكردستاني-ايران الذي تأسس تواً. فحاولت موسكو جر اكراد مهاباد إلى مشاريعها. ففي نفس العام قام وفد برئاسة القاضي محمد بزيارة إلى باكو، لأجل

المباحثات مع باغيروف، الذي اقترح على الأكراد القبول بالحكم الذاتي، ضمن جمهورية ازربيجان. لكن القاضي محمد صرح انه يسعى إلى الحكم الذاتي، لكن ضمن حدود ايران.

في الرابع والعشرين من كانون الثاني في عام ١٩٤٦ وفي اجتماع حاشد، اعلن عن تأسيس جمهورية كوردستان في مهاباد. انزل العلم الايراني من على جميع المباني الحكومية ورفع بدلاً عنه علم كوردستان بالوانه الاخضر – الأبيض والأحمر والشمس في وسطه مع السنابل والريش (في العلم الحالي لا يوجد هذا الرمزان الاخيران). وأعلن القاضي محمد رئيساً للجمهورية الجديدة، فشكل حكومته حيث جميع اعضائها كانوا من الحزب الديمقراطي. وكذلك تم تأسيس مراكز السلطة للادارة ونظم الطرق والتعليم باللغة الكوردية وغيرها من التدابير. اذا لم نأخذ في الحسبان، المملكة الكوردية في سليمانية باشراف محمود البرزنجي، فإن جمهورية مهاباد التي دامت (١١)شهراً، تعتبر اول تجربة لبناء الدولة الكوردية.

لقد لعب البارزاني دوراً بارزاً وناشطاً ملحوظاً في هذه الأحداث. وغدا انصاره البارزانيين القوة العسكرية الضاربة في الجمهورية الفتية والبارزاني نفسه اصبح جنرالاً ورئيساً لأركان جيشها. وبما انه لم يكن للأزربيجانيين جيشاً، لذا رغبوا بتأسيس جيش موحد مع الأكراد. وعندئذ ترأس اركان الجيش الموحد البارزاني نفسه. وفي هذا الموقع، ساهم البارزاني بالقضاء على اربعة تمردات قام بها اقطاعيون الذين حرضتهم طهران.

في هذا الوقت، عرضت ((لجنة الحرية)) على المنظمات ((الامل)) و((الثورة)) و((التحرير)) التوحيد في تنظيم واحد فقبل الاقتراح وفي ١٦ آب ١٩٤٦ انعقد المؤتمر التأسيسي (وسرعان ما سمي بالحزب الديمقراطي – كوردستان العراق) وانتخب البارزاني غيابياً رئيساً له. ومن قبيل الصدفة، في هذا اليوم بالذات، ولد للبرزاني ابنه مسعود الذي يرأس الحزب الآن.

في الوقت الذي كان الأكراد يفرحون بتأسيس جمهوريتهم ذات الحكم الذاتي من حيث الشكل والدولة المستقلة من حيث الجوهر، لاحت في الأفق غيوم سوداء، اذ هي تشير إلى بداية لعبة ((السياسات الكبيرة.) إذ طالبت بريطانيا وامريكا من الاتحاد السوفيتي تنفيذ ما وعد به ابان الحرب –بسحب قواته من أراضي ايران. أصر ستالين على البقاء، فهدد ترومن بالقاء القنبلة الذرية على الاتحاد السوفيتي. ففي اوج هذه الأزمة (في آذار) القى

كلمته الشهيرة في "فولتون"، التي اعتبرت بداية ((للحرب الباردة)). وفي نهاية المطاف اضطر ستالين على التراجع. فاقدم على ذلك بسهولة لقاء صفقة بدت له مربحة. وفق الاتفاقية المبرمة مع الرئيس الايراني ((فوم)) اعطي للاتحاد السوفيتي حق التنقيب عن النفط في شمال ايران، لقاء سحب جيشه من البلاد. بعد ان انسحب الجيش السوفيتي، لم يصادق البرلمان على هذه الاتفاقية. فشرح رئيس الوزراء الايراني موقفه قائلاً: ((ما باليد حيلة، عندنا السلطة للديمقراطية.)) وبهذا الشكل تحايل رئيس الوزراء الايراني على ((اب الشعب)) ستالين، كما يحايل الكبار على الصغار.

بالطبع، في مهاباد لم يكونوا على علم بما كان يجري من وراء الكواليس. لهذا ان نبأ خروج الجيش الروسي من ازربيجان في أيار، كان بمثابة رعد في سماء صحو. وبات واضحاً ان الجمهورية الفتية ستنهار لا محال. وبدأت طهران بحشد قواتها في ازربيجان ومن ثم في كوردستان. فاقترح البارزاني على حكومة الجمهورية ترك المدينة واللجوء إلى الجبال. إلا ان قاضي محمد كان يأمل بحل المسألة سلمياً، ولا سيما بعد أن وعده الشاه بعفو عام.

لجأ البارزاني إلى الجبال، آخذاً معه علم الجمهورية. وأما قاضي محمد واعضاء حكومته، مكثوا في مهاباد. وفي ١٦ كانون الأول اشغلت القوات الفارسية مهاباد. وعلى الرغم من الوعود الشاهنشاهية، فتم اعتقال اعضاء الحكومة الكوردية. وقف القاضي محمد امام المحكمة شامخ الرأس وأشار في كلمته انه كان يدرك في البدء، ان الموت ينتظره، ومع ذلك لم يرغب في الخلاص. ((لقد كانت ستة سيارات وجيب تحت تصرفي، وباية لحظة كنت استطيع اجتياز الحدود والنجاة. أنا على خلاف شيفاري (زعيم الازربيجانيين) لا اعتبر نفسي إمراة ضعيفة، تهرب لحظة الخطر. والى أين سأهرب؟ هنا أرضي كوردستان وهنا توجد قبور ستة اجيال من عائلتي.))

في ٣٠ آذار عام ١٩٤٧، تم اعدام قاضي محمد وشقيقه صدر قاضي وابن عمه سيف قاضي (وزير الدفاع في حكومة مهاباد). فاعدم هؤلاء في ميدان چارچرا، حيث قبل ١٤ شهراً، أعلن منها عن تشكيل الدولة الكوردية. وبقرار من محكمة ميدانية عسكرية، تم اعدام ١٥ وطنياً آخرين ممن ساهموا في الحركة.

وأما البارزاني فكان في الجبال، ولم يكن وضعه سهلاً. وكما لم يكن باستطاعة الايرانيين اتخاذ تدابير فعالة ضده، لأن الشتاء كان قد حل. فدعاه الشاه إلى طهران للمباحثات، بهدف إعتقاله. طالب البارزاني بدوره بالتأمين على حياته وذلك بوضع

رهائن من عائلة الشاه تحت تصرف رجاله. بالطبع كان البارزاني لا يثق بالشاه، لكنه كان يراوغ لكسب بعض الوقت. استمرت المباحثات طيلة فصل الشتاء واتضح ان البارزاني كان يلعب على الشاه، بدل أن يلعب عليه الشاه. وبقدوم الربيع بدأت العمليات العسكرية. وفي التاسع من نيسان، حاول الايرانيون الهجوم على البارزاني قرب مكو. قاد البارزاني بنفسه انصاره في هذه المعركة، بالرغم من انه قد جرح قبل أسبوع في معركة أخرى. إلا أن المعركة التي دامت ثلاثة أيام، انتصر الأكراد فيها. كان البيشمركة الأكراد ذو خبرة لايخطأون الهدف، بخلاف الجنود الايرانيين الأغرار. ولم تساعد الايرانيين في هذه المعركة لا المدافع ولا الطائرات. فانتصر الكورد بدون خسائر كبيرة، اذ استشهد ٤ اشخاص وجرح مايقارب ١٥ شخصاً من المؤسف حقاً، لم يستطع الأكراد المحاربة لمدة طويلة على هذا المنوال. ولاسيما ضيق الخناق على البارزاني ورجاله، عندما اتفقت ايران مع تركيا لمحاربته بشكل مشترك. واما حكومة العراق فكان البارزاني بالنسبة لها مجرماً ((خائناً)). نتيجة الظروف الناشئة، اتخذ الأكراد قراراً على ان يسلم الشيخ أحمد نفسه للعراقيين ومعه النساء والأطفال والشيوخ ليشملهم العفو الذي اعلنته الحكومة. واما البارزاني ومعه ٥٠٠ مقاتل ساروا باتجاه الاتحاد السوفيتي لاجتياز الحدود. فتحرك المقاتلون الاكراد في جبال وعرة بالقرب من الحدود الاليرانية-التركية. وعلى الرغم من انهم كانوا يتعرضون باستمرار للقصف المدفعي والجوي، الا انهم استطاعوا قطع مسافة تقدر بـ ٣٥كم وفي منطقة آرارات، وصلوا إلى مشارف آراس فعلى الشاطئ الآخر كان الاتحاد السوفيتي الأمل المنشود.

ولكن، هنا احس الأكراد باول خيبة أمل، عندما تباطئ حماة الحدود السوفيتية باستقبال المناضلين في سبيل الحرية. ان المقاتل البارزاني الذي اجتاز آراس وعاد، ليبلغهم بأن المسؤولين عن الحدود لا يستطيعون قبول دعوتهم دون الاستشارة مع موسكو. وطالت مدة الاستشارة (لم يعرف الأكراد بعد النظام البيروقراطي القائم في الاتحاد السوفيتي). إلا ان الأكراد لم يستطيعوا الانتظار اكثر، لان الايرانيين حاصروهم من ثلاث جهات. لذا قرر البارزاني اجتياز الحدود دون اذن مسبق. من حسن الحظ كان حماة الحدود يخشون من قبول البارزانيين على مسؤوليتهم، كخشيتهم لعدم قبولهم. ففي ١٧-١٨ حزيران عبر البارزانيون نهر آراس وأصبحوا على أرض ناخيچڤان ذات الحكم الذاتي. وآخر من وصل إلى الشاطئ السوفيتي كان البارزاني.

جردهم حماة الحدود على عجل من السلاح وأصبحوا ينتظرون الأوامر من موسكو. وغدا البارزانيون كأسرى، ولم يتوقعوا قط ان يعاملوا مثل هذه المعاملة في الاتحاد السوفيتي. وان من قدم من موسكو التقى مع البارزاني واصغى إلى مطاليبه التي تضمنت التعليم في المعاهد العسكرية. وفعلاً، ابقوا البارزانيين برهة من الوقت في معسكرات الجيش. والى هذا الحين اسكنوا البارزاني في شوش ومن ثم في باكو. ولم يسمحوا له ان يلتقي مع انصاره. في تشرين الاول عام ١٩٤٦ قدم البارزاني إلى السكرتير الاول للحزب الشيوعي الازربيجاني باغيروف انذاراً تضمن المطاليب التالية:

- اعطاء الفرصة للالتقاء مع البارزانيين.
- تنظيم نشرة شهرية تتضمن ابحاثاً علمية وثقافية واقتصادية للحفاظ على الثقافة الكوردية
- تقديم شكوى إلى الامم المتحدة ضد السياسات القمعية الجارية في كوردستان.
- السماح له باللقاء مع ستالين، لكي يستطيع التحدث له عن مآسي الشعب الكوردي.

بقي الانذار من غير جواب.

في الحقيقة، بقي البارزانيون في البدء في المعسكرات الحربية ودربوا على المسائل العسكرية. ولكن فجأة في عام ١٩٤٨ قسموهم إلى مجموعات صغيرة اركبوهم في القطار وارسلوهم إلى اوزبيكستان وهناك تم فرزوهم على التعاونيات، دون السماح لهم بالاحتكاك مع بعضهم البعض. وأما البارزاني، فاسكنوه في طشقند. من هنا ارسل البارزاني رسالة تلو الاخرى إلى ستالين بنفس المطاليب التي قدمها إلى باغيروف. حيث كتب ٧٢ رسالة إلى ستالين ولم يتلق أي جواب. فكان يشك ان الرسائل قد لا تصل إليه، لذا عندما سافرت جارته إلى موسكو ناولها رسالة جديدة، وطلب منها ان ترمي الرسالة في صندوق البريد.

كان الأكراد واثقين، ان ملاحقتهم تجري بتوجيهات منظمة ضدهم. لذا عندما التقى البارزاني مع خروشوف، قال له مازحاً: ((ناضلت ضد خمس دول.)) ((اية دول؟)) فأجابه البارزاني: ((ايران، تركيا، العراق، ازربيجان واوزبكستان.)) فيكتب المؤرخون الأكراد، ان باغيروف كان لايكن الود تجاه البارزاني شخصياً (من جراء عدم انضمام الأكراد إلى جمهورية ازربيجان في ايران، او لاسباب أخرى) وانجر إلى طرف بيريا، وسوية سودا صفحة البارزاني امام ستالين. ويقال ايضاً، انه بعد نفي الأكراد إلى اوزبكستان وجه باغيروف رسالة إلى زميله الاوزبيكي يوسوبوف، راجياً اياه كي يضع البارزاني تحت المراقبة.

باعتقادنا، ان هذه الأقاويل تشبه الأساطير. ففي مذكراته يرسم ب. سودوبلاتوف لوحة مغايرة تماماً. لقد كان باغيروف وبيريا على الرغم من صفاتهما السلبية وسمعتهما السيئة، الا انهما كانا سياسيين محترفين ويستبعد انهما انطلقا في التعامل مع البارزاني من امور ضيقة ولاسيما كان البارزاني موضع اهتمام اكبر. فيشير سودوبالتوف ان باغيروف كان يرغب في استغلال الأكراد لخدمة مشاريع تعود نفعها إلى ازربيجان. وان رئيس الاستخبارات السوفيتية آباكوف، كان له مشاريع ضخمة واستراتيجية (كالاعمال التخريبية ضد الانكليز في العراق مثلا) من غير ان يكون لباغيروف علم بذلك. مع الاسف، ليس هناك باحثاً ممن درس مسألة تواجد البارزاني في الاتحاد السوفيتي، ومشاريع الستالينية تجاه الاكراد من وجهة نظر العلم. وكما يبدو لنا، لم تكن هناك اية خطة مدروسة ضدهم أو ملاحقتهم، وانما آلة توتالتياريزم الخالية من الرحمة، التي وصلت في هذه المرحلة إلى اوجها، كانت تعمل عملها في القساوة والسرية. عندما كانت للأستخبارات مشاريعها، حول تواجدها في ايران، كان الاكراد موضع اهتمامها وما ان فقدت ايران، فقد الأكراد قيمتهم لديها وأصبحوا للاحتياط. ولكن كان لابد من اتخاذ التدابير بحق الأكراد المتواجدين على أرض الاتحاد السوفيتي. ففي سبيل تحاشي التعقيدات الغير اللازمة في العلاقات الدولية، تم توزيعهم على التعاونيات. ولم يسمح للبرزاني الاحتكاك مع انصاره، حتى يخضعوا للسلطة السوفيتية، وليس لقائدهم، وكان لابد من تأقلمهم مع الواقع السوفيتي. وان الوضع النصف العبودي الذي وجدوا انفسهم فيه ((ابناء الجبال))، لم يقبلوا الرضوخ له. كان هذا طبيعي وكان طبيعياً ايضاً للسلطة

ان تتجاهل مصير الناس وتأملاتهم، انها قد نست كيف تتعامل مع الناس بالحسنى. وعلى مايبدو كانت السلطة تعمل وفق معايير نابعة من جوهر النظام، وفي سبيل فرض رقابتها وسيطرتها، حاولت تحطيم علاقة الاكراد فيما بينهم. ولكن السلطة فشلت في مأربها، فلم يحتفظ الاكراد بحبهم لقائدهم فحسب، وإنما قاوموا بشدة دخول عناصر الأمن بينهم. وحسب مذكرات ب. سودولاتوف ان العنصر الوحيد الذي قبل العمل لصالح الأمن، سرعان ما اختفى. على مايبدو تم تصفيته.

وكان الأكراد ذاتهم لا يدركون جوهر النظام التوتاليتاريزمي. فكانوا يروون ان سبب المواقف السيئة تجاههم ناتج من تصرفات السلطات المحلية. وبعد موت ستالين، حاول خروشوف بدوره القاء الذنب في ما جرى مع الأكراد في الاتحاد السوفيتي على اشخاص امثال بيريا وباغيروف. وبعد تثبيت هذا الرأي من قبل الشحص الاول في السلطة السوفيتية، تحولت ظنون الأكراد إلى واقع.

بعد أن اضرب الأكراد جلوساً ٧٢ ساعة (هذه الظاهرة كانت من المستحيلات في الاتحاد السوفيتي)، عندئذ سمح لهم اعادة العلاقات فيما بينهم ومع قائدهم. وأما البارزاني فسمحوا له بارسال ممثليه إلى موسكو، لعرض مطاليبهم وشكواهم. يبدو ان سبب اعلان الأكراد عن تذمرهم يعود إلى مجيء جنرال الأمن سودوبلاتوف والمختص في الشؤون الدولية لدى اللجنة المركزية عام ١٩٥٢ إلى التعاونية الواقعة في ضواحي طشقند والتي اسكنوا فيها البارزاني. ففي مذكراته يكتب سودوبلاتوف، انه آنذاك جرى الحديث عن تأسيس الحزب الديمقراطي (هذا الخطأ تناقلته الصحافة الروسية) ولا يستغرب ان يكون بالفعل، جرى الحديث مع البارزاني عن تأسيس فرع تابع للحزب الديمقراطي، على ان تكون التعاونية الكائنة حول طشقند، مقراً له. ومن المحتمل، بعد أن ايقنت السلطة، بانه ليس بمقدورها تذويب البارزانيين في بوتقة النظام السوفيتي، ارخت الحبل إلى حد ما.

بعد موت ستالين مباشرة، سافر البارزاني سراً من طشقند إلى موسكو. وحسب الأقاويل ذهب إلى بوابة ((ستاسك)) وشرع يطرقها. فهرع اليه عنصر الأمن وهو يصرخ ((من أنت؟)) فأجاب البارزاني: ((انه الشعب الكوردي يطرق.)) فاعتقل مباشرة، ولكن بعد معرفة شخصيته، سمح له الالتقاء مع ممثلي الحكومة ومن ثم مع خروشوف ذاته. لقد كانت مطاليب البارزاني الآتي: افساح المجال له ولانصاره التعلم. فنفذ هذا الطلب

فارسل ٢٠٠ برزانياً إلى المعاهد والجامعات بالدرجة الأولى في روسيا. وأمن لهم السكن. وأما البارزاني، فسكن في موسكو في شارع توفوملوبو دسكايا، في بناية شيدت تواً خصيصاً للمهاجرين السياسيين. وأنهى البارزاني الأكاديمية العسكرية التي باسم ((فرونزئ)) وتخرج برتبة جنرال.

كيف كان البارزاني في نظر الحزب والأمن؟ ففي كتاب عنصر المخابرات السوفيتية الكسندر كيسيلوف الذي كان همزة الوصل بين الأمن السوفيتى والبارزاني في سنوات ١٩٦٠، نجد صفحات تلقي الأضواء على البارزاني من وجهة نظر ممثل الأمن لدى السفارة السوفيتية في بغداد: ((ما يتعلق بالبارزاني شخصياً، لا نشك في اخلاصه لشعبه... فكيف تصرف في مرحلة المهجر وبعدها، هذا شيئ آخر. فلم يقبل بنظامنا السياسي وكما لم يقبل بنمط العيش عندنا بشكل عام. يحبنا أو لا يحبنا، هذه قضية خاصة به. بالطبع شيء سيء، كونه حاول ابعاد رجاله عن واقعنا وعاقب كل من ضل الطريق (القصد هنا من تعاون مع الأمن السوفيتي-المؤلف). لكنه عرض نفسه لأخطار محدقة، فذاق مرارة السجن والنفي، ولكنه لم ينهار قط)).

في هذا الوقت قام البارزاني بجولة في المناطق الكوردية في كل من ارمينيا وأزربيجان، فاستقبل في كل مكان بحفاوة بالغة. فكان يطالب بالحاح من السلطات، اعطاء الحكم الذاتي للأكراد في الاتحاد السوفيتي. وليس من قبيل الصدفة ان خصص بعد ذلك اذاعة يريفان جزءاً من برامجها للبث باللغة الكوردية وأعيدت إلى النشر الجريدة الكوردية ((ريا تازه)) (الطريق الجديد) التي اوقفت عن الصدور عام ١٩٣٧. فيذكر شاهد عيان، كيف البارزاني بعد أن التقى مع أطفال الكورد في احدى القرى قال: ((يالها من وجوه جميلة! ولكن ليس لهم وطن. وان الشعب الذي لا يملك وطناً، كالعصافير بدون عش.))

ثورة تموز «الغبطة الثورية»

في صبيحة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ أذاعت إذاعة بغداد ما يلي: ((هنا الجمهورية العراقية! اليوم، هو يوم النصر والمجد. لقد قتل اعداء الله والشعب وارمي بهم إلى الشارع. سنكون متحدين في النضال ضد الامبريالية واعوانها.)) هكذا أعلن الحدث الذي اجرى تحول جذري في جيوبولتيك المنطقة.

ان ثورة الرابع عشر من تموز، كانت ظاهرة لاكثر العمليات عمقاً، التي اجتاحت الشرق، بعد اوروبا. كانت هذه التطورات مرتبطة ببروز ومشاركة الجماهير الشعبية على ساحة الحياة الاجتماعية والسياسية. كان بالمقدور ان تستمر هذه الظاهرة بديمقراطية الحياة الاجتماعية، لو لا هذه المؤشرات التي تدل على انه ليس بالضرورة ان يكون نشاط الجماهير مقرون بالديمقراطية، بكل مالهذه الكلمة من معنى (كما هو معروف ان اورثيغ. ي. غاسيت كان من الأوائل ممن وصف هذه الظاهرة بانتفاضة الجماهير) وبالعكس، غالباً ما يجري العكس؛ من نتائج ((الثورات الشعبية)) كانت تستلم دفة الحكم انظمة قاسية ودموية، فيبدو ممثلوا ((الرجعية)) المطاحين بهم، بالمقارنة بمن خلفوهم من الجيدين والليبراليين. وتماماً هذا ما حصل في العراق.

ان تنظيم الضباط الأحرار، الذي كان له ارتباطات مع جبهة الاتحاد الوطني، هو الذي أطاح بالحكم الملكي. وقاد الثورة الزعيم قائد الركن عبد الكريم قاسم. ففي مساء الرابع عشر من تموز لعام ١٩٥٨، كانت السهرة قائمة في القصر الملكي. فاعتبرها الضباط الاحرار فرصة مناسبة للقيام بانقلابهم. في الساعة الثالثة صباحاً ادخل الزعيم الركن قاسم ومعه العقيد الركن عارف قواتهما إلى بغداد واشغلا النقاط الاستراتيجية في المدينة، وبعد تبادل النار مع الحرس الملكي تمكنا من السيطرة على القصر الملكي أيضاً. (انضم الاكراد الذين كانوا داخل الحرس الملكي إلى الثوار) لقد قتل الملك الشاب فيصل الثاني وعمه عبد الاله وغيرهما من الأقارب في حديقة القصر وارمي بجثثهم إلى الشارع. فتمكن نوري السعيد الاختفاء لعدة أيام، إلا انه القي القبض عليه وهو متنكر بثياب نسائي. فسحق من قبل الحشد. فعلقوا جثة عبد الاله من رجليه امام مبنى وزارة الدفاع. واما جثة نوري السعيد، فجرها الحشد في الشوارع ومن ثم حرقها وكما حرق السفارة الانكليزية أيضاً.

وسرعان ما أعلن عن تشكيل الحكومة الجديدة برئاسة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم وعين العقيد عبد السلام عارف نائباً له. على الرغم ان ما حدث كان انقلاباً عسكرياً ولكن سمي بالثورة عن حق وحقيقة. لان الاطاحة "بالنظام الأسود" لقي دعماً جماهيرياً واسعاً في جميع انحاء البلاد. عمت فرحة النصر العراق وأصبح البؤس والمصائب في خبر كان. وكان الشعب العراقي يترقب قدوم السعادة والخير والمجد. بهذا الصدد، كتب غ. ي. ميرسكي: ((مرت الأيام والأسابيع (على قيام الثورة،) إلا ان المظاهرات والاجتماعات

الحاشدة استمرت في بغداد والوفود كانت تتوافد من جميع أنحاء البلاد إلى العاصمة لتعبر عن فرحتها ودعمها للحكومة.)) وبمرور ٩ اشهر على الانقلاب، يصف هذا الجو العام في البلاد، آ. ف. كيسيلوف الذي وصل إلى البصرة على متن الباخرة السوفيتية ((جيورجيا))، مع البارزانيين. عندما رأى الحشد الضباط البحريين السوفيت (ظنوا انهم بريطانيين) هاج وماج. فيقول كيسيلوف: ((لدى ظهورنا تعالت اصوات وصراخ الصغار والكبار، بشكل لا يطاق. وممن استطاع الصعود إلى مرتفع ما، هز بقبضة يده مهدداً وهو يصرخ بشكل جنوني قائلاً: ((عاش عبد الكريم قاسم!)) وأما الحشد فكان يرد: ((عاش! عاش! عاش!))

وبغبطة خاصة استقبل الأكراد الثورة. ففي سليمانية، ما ان سمعوا نبأ الانقلاب، حتى قاموا بازاحة الادارة المحلية عن السلطة وشكلوا إدارة جديدة، لغاية قدوم الموظفين الجدد من بغداد. وفي ١٧ تموز استقبل عبد الكريم قاسم وفداً حزبياً برئاسة ابراهيم أحمد الذي أكد له دعم الكورد للثورة ((في سبيل بناء الحياة الجديدة التي سيكون فيها على حد سواء العرب والكورد سعداء واحرار)). فمن جانبه افسح قاسم مجالاً واسعاً امام الكورد، اذ أدخل كورديين في الوزارة. (وزارتي الصحة والعدالة). وأصبح المحافظ السابق لاربيل كوردي القومية خالد النقشبندي، عضواً في مجلس الاعلى للدولة. (من ثلاثة اعضاء). وقرر التدريس والتعليم باللغة الكوردية في المدارس وكما شكلت لجان في شؤون كوردستان في مجال التربية والتعليم لدى وزارة المعارف. وفي ٢٠ تموز اعلن العفو عن مجموعة من المناضلين ضد نظام البائد. واعيد الاعتبار لمحمود البرزنجي (بعد الموت، اذ انه توفي في بغداد عام ١٩٥٦ ونقل جثمانه إلى السليمانية، حيث تحول مراسيم الدفن إلى تظاهرة ضد النظام.) ولقد كان الشيخ أحمد البارزاني ايضاً، ممن شملهم العفو. وأخيراً في ٢٦ تموز نشر الدستور المؤقت للجمهورية العراقية. والمادة الثالثة من الدستور، كانت تنص: ((ان العرب والاكراد شركاء في هذا الوطن وان حقوقه القومية، ضمن العراق الموحد، يضمنها الدستور)) لقد كانت هذه الوثيقة الرسمية الاولى من نوعها، بعد مرحلة الانتداب، التي أقرت بوجود الشعب الكوردي.

في الوقت ذاته، انتعشت الحياة الاجتماعية والسياسية في البلاد. ضمن الاحزاب والمنظمات الاجتماعية والثقافية والنقابية وغيرها من المنظمات المدنية التي بدأت تنشط

علانية، كان للحزب الديمقراطي الكوردستاني، دوراً ملموساً وبارزاً في الحياة السياسية. ففي بغداد كان الحزب يصدر جريدة ((خبات)) (النضال) والملحق الاسبوعي ((كوردستان)). كان رئيس تحريرها ابراهيم أحمد. إلى جانب ذلك، نشرت أدبيات باللغة الكوردية الأولى من نوعها في العهد العلني، باعداد هائلة. ولاغرور، ان تجد الاكراد في الصفوف الأولى، ممن كان يدافع عن النظام الجديد. (ان بحثنا ليس عن سياسة قاسم الاجتماعية، ولكن ينبغي الاشارة انه قام باصلاحات تقدمية، فاعلن عن ثمانية ساعات عمل في اليوم وعن الاصلاح الزراعي لأنهاء اكثر القضايا حدة وأهمية وللمجتمع العراقي في تلك المرحلة. لقد كان الفلاحون محرومين من الأرض ومضطهدين من قبل الاقطاع.)

فور سماع نبأ الانقلاب، أرسل البارزاني برقية تأييد إلى بغداد مهنئاً الشعب العراقي بالنصر وأبدى رغبته في العودة إلى الوطن، نشرت البرقية في جميع الصحف، وكتب قاسم معلناً: ((سيستقبل الوطن، مصطفى البارزاني وأنصاره بحرارة على أرض الوطن)). وأرسل مباشرة برقية إلى سفير الجمهورية العربية المتحدة في براغ (آنذاك لم يكن للعراق سفيراً، بينما كان للجمهورية العربية المتحدة سفيراً في موسكو)، طالبه فيها ((بتقديم الدعم لتسهيل عودة البارزاني إلى الوطن)). لدى استقبال قاسم لاحدى الوفود الكوردية، أعلن قائلاً: ((يصعب لي رؤية ممن كان من أبناء بلدنا، كمصطفى البارزاني في المنفى... الحمد لله لقد أزيلت البواعث التي تفرقنا ولم يبق لنا سوى العيش بسعادة في هذا البلد الكبير، في جمهوريتنا الحبيبة، وفي عائلة واحدة)).

في العاشر من شهر ايلول اعلن في البلاغ الرسمي عن العفو العام عن البارزاني، فسافر البارزاني مع بعض مقربية إلى براغ ومن ثم إلى القاهرة حيث التقى مع عبد الناصر، ومنها وصل إلى بغداد، أما البارزانيين الباقين (٤٧٠ شخصاً) فقد تقرر ارسالهم إلى الوطن عن طريق البحر.

استقبل البارزاني في بغداد بحفاوة بالغة، ليس من قبل الاكراد وحدهم بل العرب أيضاً، واعتبروه بطلاً وطنياً، ومناضلاً كبيراً ضد الامبريالية، والحكم الملكي ((النظام الأسود)). علقت لافتات في شوارع بغداد وصورة الكوردي والجندي العربي وهما يتكاتفان. في صبيحة يوم قدوم البارزاني، احتشدت الجماهير في شوارع بغداد الرئيسية وساحاتها. ويتذكر ب. دمجينكو. مراسل جريدة ((برافدا)) آنذاك: ((استيقظت في ذاك الصباح على

صيحات الهتافات، من الشارع، حيث كان يسير رتل من السيارات الصغيرة والمزدانه بالعلم العراقي وبشعارات مكتوبة باللغتين العربية والكوردية، وبصعوبة اخترقت الحشد وعبرت الشارع، كانت هناك مائة سيارة قادمة من كوردستان، لكي تستقبل بطلها القومي. سار الناس ليلاً عبر الصحراء حتى لايتأخروا عن موعد قدوم الطائرة. وخرج أحدهم رأسه من السيارة وهتف: ((عاشت الصداقة بين العرب والكورد))، ((عاشت عاشت عاشت)) فرددت آلاف الحناجر على قارعة الطريق ومن المباني المجاورة.

في السابع من تشرين الأول، حطت الطائرة التي كان على متنها البارزاني على أرض مطار بغداد المكتظة بالبشر، وأمام مدرج الطائرة استقبل قاسم البطل الكوردي، وسار موكبهما عبر الشارع الرئيسي، شارع الرشيد، وسط هتافات الجماهير، اتجه البارزاني إلى فندق ((سمير أميس)) حيث بات فيه. تدفق الناس إلى الفندق باستمرار ونظمت الاجتماعات الحاشدة. يصف الكاتب السوفيتي غ. ي. كوبليتسكي كشاهد عيان على هذه الأحداث: ((جراء تزايد الحشد في ممر الفندق، اضطروا إلى الخروج إلى حديقة الفندق المطلة على نهر دجلة، كان البارزاني قلقاً ولم يستطع اتمام سيجارته، فرفعه الحشد ووضعوه على كرسي وسط الجماهير المكتظة فهتف قائلاً: ((ايها الأصدقاء، اسمحوا لي ان انقل اليكم تحيات أشقائكم الاكراد الذين بقوا لسنوات طوال في المهجر، أحيي انتصاركم الباسل، نحن عدنا لكي نعمل مع اخواننا للدفاع عن وطننا. ان الاكراد جميعهم مستعدون للموت وللزود عن الجمهورية، عاشت الاخوة العربية الكوردية)).

لاشك ان هذا جزء من كلمة البارزاني، لاسيما ان كوبلينسكي، كان لايتحدث العربية، يبقى أن أشير على ان ملا مصطفى البارزاني، كان خطيباً بارعاً وان خطاباته كانت شاعرية ومملوءة بالبلاغة والصور الايجابية. يتابع كوبلينسكي: ((ردد الحشد، هاتفين بالصداقة العربية الكوردية (كورد وعرب) (كورد وعرب) ومن ثم مرددين باستمرار ((يعيش، يعيش، يعيش)) ورفعت الأيادي المتشابكة والمتصافحة نحو الأعلى، وأحتضن مسن كوردي، البارزاني، وقبله، فرفع جمع من الجنود زميل لهم، وهتف بملئ صوته على ان الاكراد جميعاً جاهزون للموت في سبيل الجمهورية)).

في الثالث من آذار، كان يوم الفرحة عند الاكراد، حين أعيد الاعتبار للشهداء الاربعة، ممن ساهموا في انتفاضة برزان وأعدموا على اثرها في عام ١٩٤٥. وفي شهر نيسان أرست الباخرة السوفيتية في ميناء بصرة وكان على متنها /٤٧٠/ برزانياً مع عائلاتهم. فاستقبلوا بحفاوة بالغة. أجل لقد عادوا بعد غياب دام ١٤ سنة.

في الوقت ذاته، بدأ تحالف القوى التي أطاحت بالنظام الملكي بالتصدع فالقوميون لم يكونوا راضين عن الوفاق بين قاسم والاكراد والشيوعيين، وكذلك بسبب التباطئ في قضية الوحدة مع مصر. فخرج ((الاستقلال)) و((البعث)) من اتحاد الجبهة الوطنية، لكن الحزب الديمقراطي الكوردستاني، انضم إلى الجبهة وأضيف إلى برنامج الجبهة بنود خاصة حول القضية الكوردية، لكن الخلاف بدأ داخل القيادة العليا وبدأ الصراع بين أنصار الاحتفاظ باستقلال العراق (كان قاسم مع هذا الرأي)، وأنصار توحيد الدول العربية تحت قيادة عبد الناصر والذين سميوا بالناصريين وكان عارف يقود هذا التيار. في تشرين الثاني اعتقل عارف من قبل قاسم وأتهم بالمؤامرة على الثورة فحكم عليه بالاعدام، لكنه عفى عنه فيما بعد. وبدأ الناصريون بدورهم في التحضير للاطاحة بالحكم.

في ٨ آذار تحرك الجيش بقيادة العقيد الشواف في مدينة الموصل، وهاجمت عشيرة شمر المدينة واعتقلت بعض اليساريين وقتلت البعض الأخر) وارتكبت مجموعات من البدو المجازر في القرى المسيحية المجاورة. ومن ثم اعلنوا مع الجيش انتفاضتهم ضد نظام قاسم.

لدى انتشار النبأ، جهز الاكراد والشيوعيون جيشاً شعبياً وبدعم من بعض أقسام الجيش المؤيدة للنظام، وسيطروا على مدينة موصل، وبدأوا بدورهم بقمع القوميين العرب والمحسوبين عليهم.

لقد ساهم البارزاني بشكل مباشر، ضد المتمردين، وآنذاك جرت محاولة لاغتياله، وتحدث بعد الحادث قائلاً: ((جاءت الطلقة من الخلف، وأصابت الأرض بين قدميه تماماً، وكان يؤكد على ان اطلاق النار عليه كان من أحد الشيوعيين.)) لقد كانت العلاقة بين الحزب الشيوعي والحزب الديمقراطي الكوردستاني بين مد وجزر، فمواقفهما كانت

موحدة تجاه الكثير من القضايا، لكنه كانت هناك منافسة بينهما على مناطق النفوذ في كوردستان باستمرار، ومثل بقية الأطراف السياسية العراقية كانا يلجآن أحياناً إلى استخدام القوة في التعامل مع بعضهما.

عندما عاد البارزاني إلى بغداد، اعتبره الشيوعيين ((مرسل من قبل موسكو)) وانطلاقاً من ذلك اقترحوا عليه قيادة الحزب، لكنهم سرعان ما اكتشفوا ان البارزاني ليس بماركسي-لينيني، مع كل الاسف، وانما قومي كوردي.

لقد كان بين الشيوعيين (لا سيما الشيوعيين الاكراد)) من ينظر إلى البارزاني نظرة ايجابية أما آخرين اعتبروه ((خائناً)) وحتى ((عميلاً للامبريالية)) لانه جزء الحركة العمالية العراقية على اساس الانتماء القومي.

على الرغم من ان الضباط المتمردين في الموصل لم يكونوا من البعثيين، لكنه مسؤولية التمرد ألقيت عليهم. بدأ القمع ضد هذا الحزب، والقي بالكثير من اعضائه في غياهب السجون، بعد ذلك قرر البعث ازالة قاسم، وباعجوبة نجى من محاولة اغتيال ساهم فيها صدام حسين.

ان الزعيم قاسم لم يكن من هؤلاء الثوريين الذين لم يكن لهم برنامج عمل محدد وغياب البعد الاستراتيجي، وهذا ما يؤدي غالباً إلى الهرج الثوري، لم يكن بمقدور قاسم بشكل ثابت الارتباط مع جهة سياسية معينة (في هذه الحالة كان عليه الخضوع لها)، وللحفاظ على السلطة، اضطر إلى استخدام سياسة اللعب على الحبلين، وكان يرى في الناصريين خطراً على سلطته، كان الحزبان الديمقراطي والشيوعي، مركزا اعتماده. وكانت هذه الفترة بالنسبة للحزب الديمقراطي بمثابة ((شهور عسل)).

لم يحقق الاكراد مطلبهم الرئيسي-الحكم الذاتي. حتى لم يسعى قاسم للتفكير بذلك، ان مطاليب الاكراد كان يتعارض مع آراء فئات ذات نفوذ من العرب والتركمان والبيروقراطية العسكرية، وأية خطوة بهذا الاتجاه (تحقيق مطاليب الاكراد) كانت تعتبر بمثابة خطر عليه ومغامرة بسلطته، لذا رضي الاكراد حتى بدون الحد الادنى، كالسماح باصدار ادبياتهم وتعيين بعض الوزراء في الحكومة، وفي الوقت الذي كان ذلك قليلاً جداً من وجهة نظر الاكراد وبعيداً جداً عن طموحاتهم كان عند قاسم كافياً، وحسب رأيه، ماذا يريد الكورد اكثر من ذلك اذا كانوا متساوون في الحقوق أمام القانون؟!

في ربيع عام ١٩٥٩، بعد أحداث الموصل، ازيح الجناح القومي في السلطة تماماً واحس اليسار انه سيد الموقف. فرفع شعار تشكيل حكومة ((الجبهة الوطنية)) بقيادة الائتلاف المكون من الحزب الشيوعي والديمقراطي والحزب الديمقراطي الشعبي)لا يستبعد ان تكون فكرة انشاء ((الجبهة الوطنية)) قد تمت بتوجيه من موسكو. هناك انطباع بان الكرملن كانت تود تمرير تجربة استلام الشيوعيين السلطة في أوروبا الشرقية إلى مناطق أخرى، حيث يتحالف الشيوعييون مع الديمقراطيين ومن ثم كانوا يتفردون بالسلطة). ان الحزب الشيوعي العراقي لم يكن اكثر الأحزاب عدداً بل أكثرهم قوة وتنظيماً. ففي بغداد كانت تنظم مظاهرات هائلة، تحت شعار (عاش الزعيم عبد الكريم، الحزب الشيوعي في الحكم مطلب عظيم).

ان الشعور بالخطر من أن يصبح في قبضة اليسار، دفع بقاسم أن يتجه نحو اليمين، ففي الذكرى السنوية لثورة ١٤ تموز، أعلن عن تشكيل حكومة جديدة، وكان من نصيب الحزب الديمقراطي وزيراً واحداً، والوزارة لم تكن ذا أهمية (وزارة البريد والبرق)، وجاءت تشكيل هذه الحكومة رداً على الشيوعيين والاكراد اللذين طالبا بمشاركتهما في الحكومة وأعطاء الحكم الذاتي، وفي اليوم الثاني جرت أحداث في كركوك، أدت إلى انهاء الوفاق بين قاسم واليساريين.

ففي كركوك توجد اقلية لا بأس بها، وهي منحازة بشكل كامل لتركيا، وتتعاطف مع حزب طوران، الذي بدوره كان يتبنى فكرة (بانتركيزم) في الوقت ذاته كان يعادي الكورد ويطالب بالغاء البند الثالث من الدستور الدائم.

بينما كانت تسير مظاهرة للشيوعيين والاكراد في حي التركمان، احتفاءاً بمرور سنة على ثورة ١٤ تموز، هاجم الطورانيون المتظاهرين، واستخدموا في البدء العصي والحجارة، لكنهم فيما بعد اطلقوا النار عليهم مما أدى إلى مقتل وجرح ٣٧ شخصاً، عندئذ رد الشيوعيون والاكراد وانصارهم المسلحين من الميليشيات الشعبية عليهم برد الصاع صاعين، ففي غضون ثلاثة أيام، استمرت المعارك الدامية في كركوك. ولم تتوقف إلا بعد تدخل الجيش، كان عدد الضحايا اكثر بكثير من ذي قبل، لقد كان بالآلاف.

ان نبأ المذبحة في كركوك أدى إلى الامتعاض من جانب العرب وكذلك قاسم الذي وجد في سلوك الشيوعيين الذين تصرفوا وكأنهم سيد الموقف، حيث تصرفوا دون الرجوع اليه، وهنا بدأ قاسم مباشرة مع مؤيده من الناصرين بقمع الشيوعيين، لقد كان ذلك بداية لوضع حد للنفوذ اليساري في السياسة العراقية.

لقيت ملاحقة الشيوعيين في العراق، ارتياحاً لدى أوساط في الحزب الديمقراطي الكوردستاني. وكانت ترى بان ابعاد الشيوعيين تخدم مصالحها، فبسط الحزب هيمنته على كوردستان، وفي الواقع غدا الحزب أضخم تنظيم علني في البلاد. ففي بداية عام ١٩٦٠ سمح للحزب الديمقراطي الكوردستاني بالعمل علانية في الوقت الذي حرم البعث والحزب الشيوعي من هذا الحق. وفي أيار عقد الحزب مؤتمره، ومعظم الكلمات التي ألقيت في المؤتمر كانت تبجل قاسم كزعيم أوحد.

في ربيع عام ١٩٦٠، بدأ النهج القومي للسلطة يطال الاكراد أيضاً. فالدعاية المضادة للاكراد، كانت تجري في الخفاء وبدعم من السلطة، وعلى جدران شوارع بغداد ظهرت الكتابات: ((العراق وطن العرب والمسلمين وليس وطناً للاكراد والمسيحيين))، ((اخرجوا ايها البارزانيون من وطننا))، وبدأت العصابات المنظمة من قبل الناصريين والمدعومة من قبل الحكومة تهاجم مقرات الحزب الديمقراطي ونشطائه, وفي نهاية هذا العام بدأت في بغداد نفسها مهاجمة الاكراد. وبدأت المحاكم تفتح الملفات لهؤلاء الذين ساهموا في القضاء على تمرد الشواف في الموصل (حينها قلدوا المساهمين بالأوسمة) ووجهت اليهم تهمة الخروج عن القانون، جراء ذلك حكم على ٥٨ شخصاً بالاعدام، ودعت جريدة ((الثورة)) المقربة من الاوساط الحكومية إلى انهاء الوفاق مع الاكراد والعمل في سبيل صهرهم في بوتقة الأمة العربية، وجاء في تعبير الجريدة: ((ان من ينتمي إلى القومية الكوردية أو الأرمنية، ويعيشون بين العرب، ينبغي عليهم الرضوخ وقبول الأمر الواقع، وان يصبحوا عرباً)). وطالب بعض الصحفيين، منع استخدام كلمة ((كوردستان)) على غرار تركيا.

ورداً على هذه الدعوات، نشرت جريدة ((خبات)) مقالاً تحت عنوان ((الأمة الكوردية))، بقلم رئيس تحريرها، ابراهيم أحمد، لكن الرد جاء سريعاً، فاتهم صاحب المقال بالانفصالية، وفتحت دعوى ضده، لكن ابراهيم أحمد لم يحضر المحكمة، واضطر من جراء ذلك اللجوء إلى جبال كوردستان. بعد ذلك قدمت ضده، وضد مساعده جلال الطالباني تهمة جديدة (تهمة القتل). وفي الوقت ذاته احتشد القوميون العرب أمام مقر

الحزب الديمقراطي، وحاولوا اقتحام المبنى وتحطيمه. إلا انهم ارتدوا خائبين، (لان المقر، كان محمياً من برزانيين متمرسين)).

ان تطور الاحداث على هذا النحو، اقلق البارزاني، وحين كان في موسكو للمشاركة بمناسبة الاحتفال بذكرى ثورة اكتوبر، اشتكى للحكومة السوفيتية من تصرفات قاسم وطالبهم بتوجيه الزعيم العراقي. وان الارشيف الروسي سيوضح مسألة هل ان مباحثات البارزاني في موسكو اقتصرت على ذلك فقط. إلا انه لا شك فيها كانت هناك اتفاقية من جراء الاتصالات مع الهيئات السوفيتية عن طريق ممثليه، استعداد موسكو بتقديم الدعم له، حال نشوء نزاع مع قاسم. والمسألة التي تدعوا إلى التساؤل والمعرفة هو: ماذا كانت تهدف موسكو من دعم البارزاني وسياستها الكوردية بصفة عامة؟ ان ذلك يحتاج إلى باحثين يدرسونها.

ظاهرياً كانت هناك علاقات لموسكو مع قاسم، لكن ذلك لم يجعل من بغداد موالياً لموسكو، وكان ينتهج سياسة الحياد الايجابي (سمي فيما بعد بسياسية عدم الانحياز) ومع ذلك كانت موسكو تعتبر قاسم شخصية تقدمية، لكنها منذ البداية حاولت الضغط عليه عن طريق ((اليسار)) بغية استلام القوى الموالية لموسكو زمام الأمور في العراق.

وفي لقاءهما الأخير حاول البارزاني ان يفهم ((الزعيم الأوحد)) ان هذا هو لقائهما الاخير، حيث استمر ثلاث ساعات دون ان تسفر عن نتيجة. في شهر كانون الاول توصل إلى قرار مفاده ان بقاء القيادة الحزبية في بغداد يعرضها لخطر كبير، وعشية السنة الجديدة لعام ١٩٦١ غادر البارزاني بغداد إلى كوردستان وفي شهر آذار من نفس العام (١٩٦١) اغلقت جريدة ((خبات)) ومن ثم الحق بها ((كوردستان)) الملحق الاسبوعي لها وثلاث مجلات كوردية أخرى ونفي محرروها إلى جنوب البلاد، كما اغلقت مقرات الحزب الديمقراطي الكوردستاني في كل من كركوك والموصل والمدن الأخرى، وذهبت السلطات إلى ابعد من ذلك، حين أغلقت مقرات جميع المنظمات الاجتماعية في كوردستان. أما الموظفون الاكراد فجرى تسريحهم من أعمالهم بصورة جماعية أو نقلوا إلى العمل في مدن الجنوب. في الوقت نفسه بدأ قاسم باطلاق تصريحات مفادها: ((يعتبر العراق أولاً وأخيراً وطناً للعروبة، والاكراد ينتمون إلى العرب)).

اصبحت كوردستان في حالة غليان. وعم الذهول جراء هذه السياسة الجديدة لقاسم، مما أدت إلى تفاقم واحتداد العلاقات بين الحكومة والحزب الديمقراطي، وهناك ثمة جانب هام آخر، وهو ان الاصلاح الزراعي الذي تم الاعلان عنه في ايلول من عام ١٩٥٨ خلف آمالاً كبيرة في قلوب الفلاحين الاكراد، إلا ان هذه الأمال لم تتحقق، لانه تم سن قانون للاصلاح الزراعي على انه يخص الأراضي السهلية في العراق. مما أسفر عن وقوع جزء كبير (وصل في بعض المناطق إلى ٨٥٪) من الاراضي في كوردستان تحت سقف قانون الحد الادنى من الأراضي وبالتالي لم يخضع للتقسيم بين الفلاحين وعلى هذا النحو ظلت مشكلة الفلاحين الذين بحوزتهم قطع صغيرة من الارضي باقية. وهذا ما اثارهم وأدى إلى سلسلة اضطرابات متعاقبة. وفي صيف عام ١٩٦١ اتخذت الاضطرابات نطاقاً واسعاً، حتى قام سكان عدد من المناطق بطرد الجنود والادارات المحلية.

وفي الصيف أخذت السلطات تقوم بحشد قواتها في شمال العراق.

فقام البارزاني بارسال مذكرة تلو الأخرى إلى قاسم، عرض فيها مطالبه وهي:

انهاء ((المرحلة الانتقالية))، (أي العودة إلى المجلس التأسيسي وإعادة الحريات الديمقراطية) وتحديد حقوق الادارة الذاتية في كوردستان، وفتح المدارس الابتدائية والمتوسطة) على ان يكون التعليم باللغة الكوردية، وفتح إذاعة كوردية في السليمانية، وإنشاء اكاديمية كوردية، وعدداً من المطاليب المحددة حول تطوير الزراعة في كوردستان وغيرها. كما كان البارزاني يطلب سراً وعبر ممثليه في بغداد من الاتحاد السوفيتي ارسال كميات اكبر من السلاح.

في بادئ الأمر كانت الحكومة تهدف إلى التنكيل بالبارزاني، وبأيدي الاكراد انفسهم، ولهذا السبب استدعي الشيخ رشيد لولان، الذي كان قد قام في أيار عام ١٩٥٩ بتمرد ضد قاسم لكن البارزاني سحقه دون صعوبة تذكر، ولاذ بالفرار إلى ايران. لكن لولان ظهر في كوردستان ثانية، وهذه المرة بدعم من قاسم ومباركته, إلا ان البارزاني قام بتدميره وطرده إلى تركيا هذه المرة.

وفي ايلول اعلن رسمياً عن بداية المناورات الخريفية في شمال العراق.

وفي هذا الاثناء تمركز نصف الجيش العراقي هناك، أي حوالي ٢٥٠٠٠ عسكري وشرطي وتحركت قطعات اللواء الثاني والمتمركز في كركوك نحو بارزان. وأصبح الموقف واضحاً جداً من قبل البارزاني، كاعادة للموقف الذي حصل في آب ١٩٤٥ بشكل دقيق.

أرسل البارزاني مذكرته الأخيرة إلى قاسم، التي كانت تحمل طابعاً دعائياً. قبل ان يعلن عن موقفه عشية الاشتباكات (لانه لم يكن بوسع اكثر المتفائلين ان يصدق من امكانية عقد الاتفاقية) ولخصت المذكرة وبايجاز مطالب (ح. د. ك) الاساسية:

انهاء ((المرحلة الانتقالية)) منح الكورد حقوق الادارة الذاتية، ارساء الديمقراطية في مختلف انحاء العراق. ووعد البارزاني بانه لن يبدأ العمليات العسكرية وسينتظر الرد، ووعد قاسم بانه ((سيدرس المذكرة)) وهذا ما كان يعيد إلى الأذهان ظاهرياً التبادل الدبلوماسي بين دولتين عشية بدء العمليات العسكرية.

في السابع من ايلول تعرضت منطقة بارزان لأول قصف بالطائرات وجرى في اليوم ذاته الاشتباكات الاولى بين الاكراد والقوات الحكومية، لكن بداية ((الثورة الكوردستانية)) انطلقت في ١١ أيلول، في هذا اليوم تعرض الكورد لقصف جوي شامل من جديد. دعا البارزاني الذي كان معه وحدة تعدادها ٦٠٠ شخص، دعا الشعب إلى حمل السلاح، وأخذت مفارز الانصار تتشكل على عجل. ولهذا الغرض طاف اعضاء المكتب السياسي لـ (ح. د. ك) جميع مناطق كوردستان.

في ١٥ ايلول جرى قصف جديد لمواقع الاكراد، وفي هذه المرة رافقتها عملية عسكرية، حيث تحرك جيش مؤلف من ٢٥ ألف عسكري بما لديه من دبابات وطائرات ومدفعية ثقيلة وصاروخية وغيرها لشن الحرب ضد الكورد.

ولادة جيش تحرير كوردستان*

في ١٥ ايلول أعلنت اذاعة بغداد وللمرة الأولى عن ((بدء التمرد في الشمال)) ذلك التمرد الذي كان ((حركة الامبرياليين والرجعيين)). وأكدت الحكومة على أنه ((سيتم

* بدءاً من هذا الفصل الذي يحمل عنوان "ولادة جيش تحرير كوردستان" وحتى الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب هو من ترجمة د. عبدي حاجي.

القضاء على التمرد خلال عدة أيام)) وبعد مضى أيام معدودات عقد قاسم في ٢٣ أيلول مؤتمراً صحفياً (استغرق خمس ساعات) أعلن فيه عن النصر على الثوار، واتهم الانكليز والأمريكان بالتحريض على ((التمرد))، وهدد باغلاق السفارة البريطانية، لأن الانكليز خصصوا، على حد زعمه، ٤٠٠ ألف جنه استرليني للبارزاني. وأعلن قاسم في الوقت ذاته أنه سيتم القضاء على المؤامرة الامبريالية خلال يوم أو يومين. وفعلاً ظهرت أنباء في الصحف تشير إلى ((هزيمة المتمردين))، والى أن البارزاني قد لاذ بالفرار إلى ايران أو أنه قتل. لقد نشرت الصحف أخباراً من هذا القبيل بصورة دورية، حيث أنها ذكرت نبأ مقتل البارزاني ست مرات حتى نهاية عام ١٩٦٢.

ومن جانبه اطلق الحزب الديمقراطي الكوردستاني على تلك الأحداث ((ثورة ١١ أيلول الكوردية))، ذلك التعريف الذي ظل الكورد العراقيون يحافظون عليه حتى الآن، رغم أن مصطلح ((الثورة الوطنية التحررية)) كان أكثر دقة. أما الصيغة الرسمية لأهداف هذه الثورة ومهامها فقد عرضت في اجتماع اللجنة المركزية وهي: ((الثورة هي نضال كوردستان ضد الديكتاتورية والعدوان وفي سبيل الحقوق الديمقراطية للشعب العراقي والحقوق القومية للشعب الكوردي (الحكم الذاتي في اطار عراق موحد) وقد تم صياغة هذا في الشعار الشهير: ((الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي لكوردستان)). لكن هذا كله كان ايديولوجيا، على الاكثر، في حين ان مشاعر الشعب الكوردي العميقة كان تعبر عن شعار آخر تم رفعه بعد حين من الوقت وهو ((كوردستان أو الموت)).

كان التشديد في هذا الشعار على الجزء الاخير منه، لكن البارزاني حاول بكافة السبل التوكيد على أن الحزب الديمقراطي الكوردستاني هو جزء من الحركة العراقية الديمقراطية العامة. ولإظهار وطنيته العراقية ووفائه ((للجمهورية)). ترك البارزاني وللمرة الأولى الموظفين القادمين من بغداد، في المناطق الواقعة تحت اشراف الكورد في وظائفهم. ولم يشرع الحزب الديمقراطي الكوردستاني في تشكيل هيئات السلطة لديه إلا بعد سلسلة من المفاوضات في بغداد، عندما خسر الرهان على ((القوى الديمقراطية)) العراقية نهائياً.

نعود إلى الوضع في كوردستان، فقد كان العدد العام للبيشمركة في أيلول يبلغ ٥ آلاف شخص، غير أن هذا العدد أخذ يتزايد باستمرار بحيث ان قوات الثورة تضاعفت في

تشرين الثاني، وتم الاعلان عن تأسيس جيش كوردستان/ التحرري. لقد "اهتمت" القوات الحكومية بهذا النبأ وتجلى هذا الاهتمام في قصفها للقرى الآمنة، بما في ذلك بقنابل النابالم، وفي العنف الوحشي، وقتل جميع المشتبهين بتعاطفهم مع الثوار دون محاكمة، هؤلاء الذين كان نشاطهم يفوق نشاط جميع الذين يعملون في مجال الدعاية. ومنذ بدء العمليات العسكرية أغلقت الحكومة جميع المنظمات الاجتماعية في كوردستان ومنعت الموظفين الحكوميين من ارتداء الزي الكوردي القومي.

قسم الجيش وفق خطة مرسومة سابقاً منطقة الثورة إلى قسمين. وشكل الثوار "جبهتان"، الجبهة الشمالية-الغربية (بارزان- زاخو- دهوك) ويقودها البارزاني بنفسه، والجبهة الجنوبية (السليمانية- أربيل- كركوك- خانقين) وكان يقودها ابراهيم أحمد. وقام البارزاني بشن هجوم على منطقة الموصل، حيث كان يتمتع بنفوذ وتأييد كبيرين، وفعلاً تمكن من مضاعفة عدد قواته على حساب سكان الموصل، وفي الوقت ذاته قام الثوار بفرض حصار على العمادية وشن هجماتهم على زاخو. وسيطروا على الموقع الحدودي فيش خابور وجردوا عناصره من السلاح.

وفيما بعد اتبع القواعد التي لا تسمح بقبول النساء والمراهقين الذين لا تتجاوز أعمارهم ١٨ عاماً في جيشه إلا أن نجله مسعود الذي كان يبلغ من العمر آنذاك ١٦ عاماً، والفتاة الآشورية مارغريت جورجيس التي كانت رشيقة القوام وحظيت سريعاً بشهرة بطلة قومية، هذه الفتاة التي استشهدت في المعارك فيما بعد، كانت تتحلى بشجاعة فائقة جرى تعينها قائداً لفصيل عسكري. ويمكن لنا أن نتصور كيف كانت طبيعة تلك المرأة التي وضعت تحت سلطتها مجموعة من المقاتلين الكورد.

لم تحارب القوات العسكرية والشرطة ضد البارزاني وحسب، بل الكورد المأجورين أيضاً، الذي وصفوهم الثوار بـ ((الجاش)). في ٤ تشرين الثاني ولغاية ١٣ منه حقق البارزاني نصراً كبيراً على القوات الحكومية. ففي معارك تواصلت لمدة سبعة أيام في شمالي الموصل تمكن البارزاني من سحق كتيبتين للشرطة وقوى ((الجاش)) الرئيسية التي كانت تصل إلى ٢٥٠٠ عسكري. وجاء ذلك نتيجة لعملية خطط لها تخطيطاً جيداً، سميت بعملية كلي زاويتة- مضيق يقع بالقرب من زاخو اشتهر في التاريخ الكوردي

كموقع لنصب الكمين. وسرعان ما انسحبت القوات إلى الأجزاء السهلية لقضاء الشتاء تاركة تحت حمايتها طرق الاتصالات، وتبين أن البارزاني هو صاحب السيادة المطلقة في الجبال.

في هذه الأثناء تم ارسال دفعة من الأسلحة قادمة من الاتحاد السوفياتي وعبر سوريا سراً اليه كان قد طلبها قبل بدء العمليات العسكرية. وقاد العملية الموظف الشاب في المخابرات السوفياتية الكسندر كيسيليوف الذي ظل في كوردستان تحت غطاء معتمد صحفي، للاتصال مع البارزاني. ونجد في كتابه الذي صدر قبل فترة قصيرة وبعنوان ((مهمة سرية في الشرق الاوسط)) وعلى شكل مذكرات، وصفاً رائعاً جداً للقائه مع البارزاني في هذه المرحلة من وجهة نظر الحياة اليومية. كان البارزاني في قرية تقع في أعالي الجبال، حيث وصل اليها مؤلف الكتاب: ((بعد أن نفضنا الغبار عن أنفسنا وغسلنا وجهنا دخلنا الصومعة، التي لم تكن تختلف ظاهرياً بشئ عما كان يحيط من حولها، لكنها من الداخل كانت تثير الدهشة لترتيبها. وتحت سقف الدار مباشرة مدخل فسيح، بينما صف طويل من الغرف يمتد إلى عمق الصخرة. في هذا المكان كان يوجد كهف عادي ذات يوم، ذلك أنه كان متعذراً جمع هذه الأصناف من الصخور يدوياً. وبعد أن فتحوا الباب بصعوبة دعوني إلى غرفة مجاورة مفروشة بالسجاد، وكان يشع من زوايا غرفة كبيرة ضوء خافت وفي جميع الاتجاهات. كانت المصابيح موضوعة على مساند، وبجوار الجدار كانت وسائد ناعمة موضوعة فوق أسرةٍ لا تعلو كثيراً عن الأرض. كما وضعت طاولة غير مرتفعة عليها صينية من الطعام والفاكهة.

دخل البارزاني إلى الغرفة وكان بامرني وخوشفي معه. كان الجميع يرتدون زياً منسوجاً من القطن وبلون الخاكي. وكان موسى وفؤاد يرتديان بناطيل عادية وينتعلان أحذية متينة. كان الجنرال يرتدي سروالاً فضفاضاً وحزاماً عريضاً من القماش وحذاءً جلدياً خفيفاً.

بعد أن تبادلوا كلمات الترحيب والمصافحة بالأيدي والابتسامات التقليدية جلس البارزاني على السرير وعرض عليَّ الجلوس بجواره. وجلس فؤاد على الأرض بيننا وهو يقوم بدور المترجم. وتحدث الجنرال باللغة الكوردية وهو ينظر اليَّ حيناً والى فؤاد حيناً آخر منهياً كلامه بصرخة تعجب روسية ((جيد جداً)) مفهومة ومثيره للضحك لدى الجميع. وترجم البامرني قائلاً: ((يطلب الرفيق بارزاني منكم نقل امتنان وشكر الشعب الكوردي بأسره إلى القيادة السوفياتية على مساعدتها الأخوية. ان كل ما استلمناه نحن

بأمس الحاجة اليه وسوف نرحب بهذا الدعم مستقبلاً. لقد قمنا سوية بالعملية التي شارك فيها ضيفنا أيضاً وقمنا بها على أحسن وجه)).

وهذا هو الانطباع الذي تركه البارزاني على مراسل صحيفة ((موند)) اريك رولو اذ كتب يقول: ((ما ان يدخل أحد ما- مهما يكن شأنه- إلى غرفته، ينهض ملا مصطفى حالاً من على الوسائد المفروشة على أرضية الغرفة كي يرحب بضيفه بصورة تقليدية. كان قصير القامة مكتنزاً، لكنه سريع الحركة ويترك انطباع انسان قوي على الآخر رغم بلوغه الستين من العمر. وكانت سحنته الصارمة وهي سحنته جبيلية قد تخللها تجعيد أو تجعيدين كبيرين شبيهين بندبين، تنضح بالصحة.

كانت المسبحة بيده (كان الجنرال بارزاني مسلماً يراعي الشعائر الدينية مراعاة تامة) وهو يتحدث لنا عن عشيرته وعن أسرته النبيلة...))

وفي مايتعلق بـ أ. ف. كيسليوف، الذي صور لقاؤه مع البارزاني، فانه سرعان ما أنقذ حياة البارزاني بعد ذلك اللقاء على نحو غير متوقع. وحدث ذلك على النحو الآتي:

اخذت السلطات العراقية جميع استعداداتها لشن هجومها الربيعي ضد الثوار، ففي كانون الثاني أصدرت العفو، ومن ثم وصل أمر من الجنرال شكري قائد منطقة كركوك العسكري بالدخول في المفاوضات. وفي ذلك الأثناء وصل خبر عبر قنوات موسكو يقول بأن الحكومة تستعد لعملية عسكرية غرضها القضاء على الثوار قضاءً مبرماً، وثانياً أنه يوجد في معسكر البارزاني شخص يعمل في محيط الجنرال يشتغل لصالح المخابرات البريطانية (لم يسيطر الانكليز آنذاك على مناطق استخراج النفط في كوردستان، وكانت لهم مصلحة كبيرة في وقف الثورة. وهذا ما جعل وصول كيسيليوف إلى البارزاني صعباً، إلا أنه تمكن وفي اللحظة الأخيرة من نقل المعلومة الضرورية إليه بطريقة غير مباشرة.

تم تحديد قرية جبلية صغيرة مكاناً للقاء البارزاني وشكري، وفي اليوم المحدد هبطت طائرة هيليوكوبتر وعلى متنها ضابطان عراقيان (أحدهما برتبة رائد والآخر برتيبة عقيد). وقد قالا بأنهما اعضاء الوفد، في حين ان الجنرال شكري تأخر قليلاً. لم يكن ثمة خطر يهدد حياة البارزاني، ذلك أن الضابطين كانا بمثابة رهينة في أيدي الكورد. ومع ذلك قام البارزاني وعلى نحو مفاجئ بتغيير مكان اللقاء ودعا الضابطان إلى المكان الجديد. وسرعان ما ظهرت قاذفات ضخمة في الجو وأول ما قامت به هو أنها أزالت من على وجه الأرض الدار الذي كان البارزاني ينوى إجراء المفاوضات فيه. ثم راحت هذه القاذفات

تدمر القرية بكل دقة، وتلا القصف إنزال قوات المظليين، وطوق الجنود وهم يحملون أسلحتهم الأنقاض المحترقة وجروا الناس الذين ظلوا على قيد الحياة من السراديب وساقوهم إلى العنبر وأخذوا يطلقون النار عليهم، كما أضرموا النار في العنبر. كل هذا جرى على مرأى البارزاني ومجلسه بما فيهم الضابطان العراقيان، اللذين ألقت بهم القيادة العراقية إلى التهلكة مع البارزاني وقد أناطت بهما دور ((الطعم)). ولما أدركا الضابطان ما يجري قاما بنزع الشارات والرتب والأوسمة وألقيا بها جانباً وهما في سورة غضب.

وهذا ما جرى في آذار، وبدأ بعد ذلك على الفور الهجوم العراقي على مواقع الثوار، وكانت على الخطة الرامية إلى قتل البارزاني ان تعطي اشارة البدء بالهجوم، الذي رافقه قصف جوي وتنكيل بالسكان. كتب مراسل جريدة ((تريبيون)) آنذاك يقول: ((مراراً ما ينزل السكان إلى القرى لاستلام السلاح والمؤن وغيرها. وتحلق الطائرات لتدمير هذه القرى، لكنها عادة ما تفلح في ذلك بعد خروج الثوار منها، الأمر الذي يسفر عن خسائر كبيرة بين صفوف السكان بما فيهم النساء والأطفال. وتصل القوات الحكومية بعد الكورد الفارين من قراهم لنهب حوانيتهم وبيوتهم انتقاماً لما يقدمونه من مساعدة للثوار.

لكن ينبغي التنويه إلى ان ((نهب الحوانيت والدور السكنية)) هو الشئ الوحيد الذي كان العراقيون يقومون به خير قيام. لقد كان الفلاحون العراقيون (غالبيتهم من الشيعة في الجنوب العراقي) على جانب كبير من الجهل بحيث لايدركون وعلى نحو عميق أفكار القومية العربية. وهم لم يدركوا لماذا جرى سوقهم إلى أتون المعارك في كوردستان. وينقل الصحفي الفرنسي جان برادیه طريقة تفكيرهم على النحو الآتي: ((لماذا عليَّ الذهاب إلى الجبال؟ دع البارزاني يعيش هناك... انني انسان السهول لا أعرف حتى لغتهم)) ويقدم الضابط العراقي تقريراً فيقول: ((الجنود يرفضوا أوامرنا، واللاسلكيون يقولون أن الاشارات ضعيفة ولا يستطيعون تلقي الأخبار، ولا ينفذ سائقو الدبابات الأوامر ويشكون من الحر الشديد. أما سائقوا المصفحات فيقولون بأنها قديمة جداً وتعذر اجراء المناورات بها. والروح المعنوية متدنية جداً لدى الجنود. كان الجنود الكورد ينتقلون إلى جانب الثوار عند حلول فرصة مناسبة، وأحياناً كان الانتقال على شكل مجموعات، وراجت شائعات بأن سرية كانلة توجهت إلى الجبال بعد أن اعتقلت ضابطين من ضباطها، وأسفر

ذلك عن أن الحكومة لم تكن تحاول بعد ارسال القوات للاشتباك المباشر مع الثوار، بل كانت تفضل استخدام الطيران والمدفعية. وفي ما بتعلق بالكورد منهم كانوا يؤكدون على الدوام بأنهم ليسوا ضد العرب ولا يحاربون سوى "انظام الديكتاتوري" وكانوا يخلون سبيل الأسرى بعد أخذ تواقيعهم بعدم المشاركة في المعارك في كوردستان (مرفعاً بصورة شخصية)، مخدرين اباهم بالقتل اذا وقعوا ثانية في الأسر، وأحياناً ما كانوا يرافقون الأسرى إلى قراهم. وهنا لابد من التنويه إلى ان من كان يقع أسيراً لدى القوات العراقية، فانها كانت، عادة، تقوم باطلاق النار علية حالاً.

من الطبيعي ان الجيش العراقي لم تكن لديه أية فرص للقضاء على الثورة في مثل هذه الظروف. وقد فشل الهجوم الربيعي- الصيفي الذي شنته القوات العراقية فشلاً ذريعاً رغم مشاركة ٢٠ كتيبة عسكرية وبوليسية فيها. ففي آذار حاصر البارزاني كلي سبي بالقرب من زاخو، الأمر الذي أسفر عن مقتل عدد كبير من الأشخاص وأسر ١٥٠ شخص والاستيلاء على ٣٦ آلية عسكرية، و ١٠ مدافع هاون و٦ رشاشات و ٢٦٠ بندقية ورشاشة آلية و ٤٠ صندوقاً من الذخيرة. كان ذلك أول نصر كبير حققه الثوار. وفي أيار كتبت صحيفة ((موند)) تقول: ((حالياً يسيطر الثوار على أرض يبلغ طولها ٤٠٠ كيلومتر وعرضها ١٥٠ كيلومتراً ولا سيما أن الطرق الجديدة في شمالي العراق لم تتم السيطرة عليها رغم وجود ٣٠ ألف عسكري عراقي في ميدان العمليات العسكرية. وصرح الصحفي السويسري ديك أندرسن قائلاً: ((وطدت قوات البارزاني من مواقعها كثيراً، ولا سيما بعد الهجوم الذي شنته القوات الحكومية في آذار، حيث قام الكورد في أثناء ذلك بتدمير كتيبة من الجيش العراقي. وبعد شهر حاصر الكورد كتيبتان أخريان ولمدة ٢٩ يوماً ونزعوا سلاحهما ثم قاموا باخلاء سبيلهما. وفي شهر آب عام ١٩٦٢ حاصر الثوار وحدة كبيرة للجيش العراقي في منطقة راوندوز. وبعد أن صدَّ الكورد هجمات العراقيين بنجاح، انتقلوا في شهر تموز إلى وضعية الهجوم. قال البارزاني: ((نحن الذين نبدأ بالهجوم الآن وستكون شقلاوة مركز ضربتنا القادمة، فالعدو فقد القدرة على شن الهجوم)). وفي منتصف تموز اشتعلت نيران معارك ضارية بالقرب من الحدود التركية في منطقة تقع إلى جنوبي جبال هكاري، حيث تمكن الثوار من اسقاط أربع طائرات. إلا ان ضربات الثوار الرئيسية كانت موجهة إلى منطقتي شقلاوة وراوندوز، حيث كانوا يطمحون إلى توحيد الجبهتين الجنوبية والشمالية- الغربية، وقد حققوا نجاحاً باهراً. كتب مراسل صحيفة ((نيويورك تايمز)) يقول: ((لو سرت بين جبال راوندوز في ذلك الأثناء لشاهدت ألسنة

النيران المشتعلة للقوات العراقية التي ضربت الثوار طوقاً حولها)). لقد توحدت قوات البارزاني وابراهيم أحمد وأصبحت كوردستان بأسرها تحت سيطرة الثوار باستثناء المدن الكبيرة. فيم يكن البارزاني يدخل المدن الكبيرة، ليس لانه كان عاجزاً عن القيام بذلك، بل- وحسب أقواله- كي لا يعرضها لأعمال القصف المرعبة. كانت خسائر الثوار ضئيلة جداً، فقد بلغت خسائرهم خلال عام ونصف من الحرب ١٧٢ شخصاً فقط.

لم يبق لدى الحكومة العراقية سوى تشديد قصفها للقرى الكوردية. ففي السنة الأولى من الحرب تم تدمير ١٥٠ قرية ومركزين للمناطق، وفقد ١٠٠ ألف شخص المأوى وصاروا لاجئين.

فرضت الحكومة العراقية حصاراً شديداً على كوردستان، فتوقف وصول المواد الغذائية والبضائع اليها تماماً، لكن كان صعباً تغيير الوضع، ووصل عدد أفراد الجيش التحرري إلى ٢٠ ألف مقاتل ((بشمركة)) وبات واضحاً أن الجولة الأولى من الصراع على كوردستان قد خسرها نظام بغداد، علماً ان الخسارة كانت باهظة الثمن. وهذا ما أصبح، دون ريب، أحد العوامل الهامة المؤدية إلى الاطاحة ((بالزعيم الأوحد)) عبد الكريم قاسم وبسرعة.

أول نظام بعثي في العراق
من التعاون إلى الأبادة الجماعية (جينوسايد •)

فور اندلاع الحرب في كوردستان أصدر قاسم فجأةً عفواً عن صديقه وشريكة وعدوه القاتل فيما بعد عبد السلام عارف، الذي حكم عليه بالاعدام قبل ثلاث سنوات، ثم استبدل الحكم بالسجن المؤبد. بعد أن عفا عنه قاسم أعاده إلى الجيش ثانية وشغل

• في بداية صيف عام ١٩٦٢ وزع البارزاني بياناً موجهاً إلى هيئة الأمم المتحدة ولجنة حقوق الانسان والصليب الاحمر الدولي. وكذلك على الصحفيين وذوي المشاعر الانسانية وجاء فيه: ((با أبناء الانسانية، يا شعوب العالم! انني أتوجه اليكم كابن للشعب الكوردي وكمواطن عراقي مخلص وباسم جميع الثوار... تعالوا وشاهدوا الأعمال اللاينسانية التي تنفذ ضد شعبنا في العراق، شاهدوا كيف أنهم يقتلون مئات الناس ويدمرون آلاف البيوت، وكيف تم تدمير القرى والمزروعات بقنابل النابالم، وكيف يطردون الشيوخ والنساء والاطفال...)) ومن ثم كتب يقول وهو يتناول العفو الذي أصدرته السلطات: ((ليس نحن، بل على المتآمرين الحقيقيين إلقاء سلاحهم وأن يمثلوا أمام محكمة الشعب لسنا بحاجة إلى العفو، لأننا لم نظلم أحداً، وما نقوم به هو أننا ندافع عن حقوقنا المشروعة. فالعفو يصدر بحق من ارتكب جرائم بحق الشعب أننا نعمل لنيل الحقوق المشروعة للشعب الكوردي، ونطلب بدلاً من الديكتاتورية الفردية سلطة تشريعية واعترافاً بحقوق الشعب الكوردي السياسية والاقتصادية والثقافية في كوردستان العراق كشعب مستقل.

منصبه العسكري السابق. وبعد اطلاق سراحه راح عبد السلام عارف يكيل شتى ضروب المديح للزعيم مؤكداً بأنه سيبقى دائماً ((أخاً صغيراً لقاسم مخلصاً له)).

كان الجميع يعلم أنه تم اخلاء سبيل عارف، المعروف بصلابته وقسوته، خصيصاً لفرض ((النظام)) على كوردستان بقبضته الحديدية، لكن ما جرى كان مغايراً بعض الشئ. تزعم عارف دونما إبطاء الضباط القوميين المتذمرين من حكم قاسم الضعيف. وراح بعد العدة للقيام ((بثورة جديدة)) حسب تعبيره فيما بعد. لعب طاهر يحيى دوراً بارزاً بين صفوف المتآمرين، حيث سبق له أن شارك في مؤامرة عام ١٩٥٩ والمؤدية إلى أحداث الموصل. واتصل المتآمرون بدورهم بجمع خصوم عبد الكريم قاسم السياسيين ولا سيما البعثيين كما قرروا استمالة البارزاني إلى جانبهم وذلك حسب المنطق القائل ((عدوّ عدوّي- صديقي)).

في شباط عام ١٩٦٢ وصل ضابط كوردي شاب يمثل المتآمرين إلى كوردستان للقاء مع ابراهيم أحمد، حاملاً معه رسالة من طاهر يحيى، الذي طلب دعم المؤامرة أو اتخاذ موقف محايد منها. وبعد التشاور أرسل ابراهيم أحمد رداً باسم الحزب إلى طاهر يحيى اقترح فيه شروطه وهي: الحكم الذاتي وضم وزراء كورد إلى الحكومة، فوافق المتآمرون عليها.

في صبيحة الثامن من شباط عام ١٩٦٣ دخلت القوات العسكرية العاملة تحت قيادة عبد السلام عارف إلى بغداد وحاصرت وزارة الدفاع حيث كان مكتب قاسم (كان المكتب مزداناً باثنين من صوره وبعددٍ من التماثيل النصفية). ورد قاسم بنيران سلاحه عليهم وهو في قبو القصر حتى آخر طلقة عنده. وأخيراً، بعد أن أدرك أنه خسر كل شئ، خرج صباح العاشر من شباط وألقي سلاحه جانباً بعد نفاذ ذخيرته وسلم نفسه، فاقتادوه إلى مبنى الاذاعة حيث تم رميه بالرصاص بعد أن ربطوه بكرسي وذلك عقب ((محاكمة)) هزلية قصيرة، ثم راحوا يعرضون شريط جثة عبد الكريم قاسم وهي متدلية من الكرسي يوماً كاملاً على شاشة التلفزيون: ورغم ذلك جرت المعارك في مدن العراق المختلفة طيلة عشرة أيام، فقد حاول الشيوعيون مواجهة الجيش وعصابات البعثيين المسلحة وما يسمى بـ ((الحرس القومي)) الذي تم تشكيله على عجل.

تلقى أفراد ((الحرس القومي)) أمراً بقتل كل شيوعي فوراً أو من أتباع قاسم، وأعقب ذلك مشاهد فظيعة من القتل والنهب والاغتصاب يصعب على المرء تصورها. فقد قتل ١٠

آلاف شيوعي وزج بـ ٢٠ ألف آخر في غياهب السجون وفي معسكرات الاعتقال. وكان من بين الذين قتلوا قادة الحزب الشيوعي العراقي بما فيهم سلام عادل السكرتير العام للحزب. لقد مات تحت التعذيب في قبو يقع تحت مبنى القصر الملكي السابق، الذي تحول إلى سجن. بعدها قاموا بسحل جثته في ساحة بغداد المركزية ثم دهستها دبابة. ولاذ ١٠ آلاف شيوعي بالفرار إلى كوردستان، وأعلنوا فيها بأنهم من الآن فصاعداً يعتبرون أنفسهم جزءاً من الثورة الكوردية، كما أن المنظمات القيادية في الحزب الشيوعي العراقي قد انتقلت إلى كوردستان أيضاً.

نصب عارف نفسه رئيساً للبلاد، وترفع إلى رتبة المارشال، أما رئيس الحكومة المؤلفة من البعثيين أساساً فقد أصبح اللواء أحمد حسن البكر والقائد البارز في حزب البعث. وفي اليوم الثاني من الانقلاب أي في التاسع من شباط تم إصدار أمر إلى القوات العراقية يقضي بوقف اطلاق النار. وضمت الوزارة الجديدة وزيران كورديان هما: فؤاد عارف وزير للأوقاف (كان عام ١٩٤٥ ضابط اتصال لدى البارزاني ثم عضو تنظيم "الضباط الأحرار" وبابا علي محمود "نجل محمود البرزنجي" وزيراً للاصلاح الزراعي. ورغم ذلك كان ردَ البارزاني على الأحداث مشوباً بالحذر، حيث صرح قائلاً: ((من السابق لأوانه التأكيد على ان الكورد يلتفون حول النظام الجديد، فالقضاء على نظام حكم قاسم لا يعدو سوى هدفاً ثانوياً في كوردستان العراق والهدف الرئيسي يبقى كما كان وهو الاعتراف بحقوق الشعب الكوردي القومية)).

في ١٨ شباط توجه وفد برئاسة جلال الطالباني من كوردستان إلى بغداد، والذي بدأ منذ ذلك الحين نشاطه الدبلوماسي وترقية في المناصب الحزبية. وفي اللقاء الذي جرى في اليوم الثاني مع الوفد الحكومي تقرر أن يقوم الحزب الديمقراطي الكوردستاني باطلاق سراح جميع المعتقلين العرب لديه، فيما تقوم الحكومة العراقية بإطلاق سراح جميع الكورد (كان يبلغ عددهم في السجون العراقية ٤٧٠٠ شخص) وفضلاً عن ذلك تعهدت الحكومة وقف حصارها على كوردستان، ونفذ الحزب الديمقراطي الكوردستاني ما تعهد به من الإتفاق، وفي ما يتعلق بالحكومة العراقية فقد أرسلت برقية مفتوحة إلى المناطق تآمر بإخلاء سبيل المعتقلين، وأرسلت في الوقت ذاته برقية أخرى مشفرة تحظر ذلك.

عرضت مواقف الحزب الديمقراطي الكوردستاني في المذكرة الموجهة إلى حكومة بغداد وجاء فيها مايلي:

١- الجمهورية العراقية هي دولة موحدة تتألف من شعبين أساسيين هما: العرب والكورد اللذين يتمتعان بحقوق متساوية ويعبران عن رغبتهما في العيش المشترك على أساس مبدأ الطواعية.

٢- على دستور العراقي النظر في تشكيل الهيئات التنفيذية والتشريعية العليا وبمشاركة ممثلين عن الشعب الكوردي فيها مما يتناسب وعدد العرب والكورد في البلاد. كما طالبت المذكره ان يكون نائب رئيس الجمهورية كوردياً ينتخبه الشعب الكوردي، وأن يكون نائب رئيس الأركان كوردياً، وأن يكون الكورد نواباً للوزراء وأن يكون عدد العاملين في الوزارات يتناسب وعددهم. وهذا ما ينسحب على قبول الطلاب في الجامعات وغيرها. وفي ما يتعلق بحدود الحكم الذاتي، فإن المذكرة نصت على أنها تشمل حدود محافظات السليمانية وكركوك وأربيل مع ضم ثلاث مناطق من محافظتي الموصل وديالى إليها. ويجب أن يكون المجلس التنفيذي والمجلس التشريعي على رأس الحكم الذاتي. كما طالبت المذكرة بأن يضمن الدستور الجديد الحريات والحقوق الديمقراطية للكورد في الحكم الذاتي وكذلك حقوق التركمان والآشوريين والكلدان والأرمن وغيرهم من الأقليات القومية. وعلى هذه المجموعات العرقية أن تتمتع بتلك الحقوق التي يتمتع بها العرب والكورد وأن يتم تمثيلهم في المجلسين التنفيذي والتشريعي وفي الهيئات الإدارية الأخرى بما ويتناسب عددهم.

٣- لم تثر المذكرة، بالطبع، حماسة القوميين العرب، الذين استلموا مقاليد السلطة في بغداد وكان البارزاني يعرف ذلك. وفي الثاني من آذار أدلى بتصريح شديد اللهجة جاء فيه: ((إننا لن نتوسل إلى أحد من اجل حقوقنا، فإذا لم يعترفوا بها سنقاتل في سبيلها حتى الموت)). ومع ذلك استمرت عملية المفاوضات. ففي ٤ آذار وصل وفد من بغداد إلى قرية كاني مارا (نبع الحية) لإجراء مفاوضات على مستوى رفيع وترأس الوفد الحكومي طاهر يحيى، الذي أصبح قائداً للأركان العامة، كما ضم الوفد ستة أشخاص آخرين بينهما ثلاثة أكراد وهم الجنرالان الكورديان (فؤاد عارف، وبابا علي) وحيدر سليمان سفير العراق السابق في الولايات المتحدة الأمريكية. وصف مراسل جريدة "موند" الذي حضر بداية اللقاء، هذا الحدث على النحو الآتي: ((جرى تبادل عبارات الترحيب العادية دون حفاوة تذكر، ثم بدأت المفاوضات. وأشار طاهر يحيى بدايةً إلى أن أعضاء وفده قدموا إلى

هنا بمبادرة شخصية وكأصدقاء، وأبدى قائد الأركان بذلك عن رغبته في ان يظهر للجنرال بارزاني بأنه عندما رفض السفر إلى بغداد، لم يؤد ذلك مطلقاً إلى خرق القواعد البروتوكولية، ثم تناول طاهر يحيى جوهر المسألة ذاتها، وقال بأن حرب اقتتال الاخوة قد فرضه النظام السابق على العرب والكورد، معلناً بأن ثورة ١٤ رمضان (٨ شباط) كانت ثورة الشعبين ضد قاسم)) وحسب أقواله كان العرب والكورد يؤلفان دائماً كذلك. أنا من جانبي لا أفرق بين العرب والكورد والتركمان والآشوريين والمسيحيين والمسلمين واليهود، فهم جميعاً أبناء الوطن العراقي الواحد وأنتم أيها الجنرال يحيى وأنا ننتميان إلى الجنس البشري، لكن اسمكم طاهر، واسمي مصطفى ولكان من العبث نفي أننا إثنان وليس انساناً واحداً، فلكل واحد منا شخصيته الخاصة. وإذا تم تثبيت العكس فان ذلك سيؤدي سريعاً إلى مواجهة دائمة. وأردف البارزاني قائلاً: ((لن يصدق الشعب الكوردي بعد بأن السلام والصداقة يمكن ضمانهما بالعبارات الجميلة وحدها، فلقد أشبعنا قاسم إلى حد التخمة بمثلها وفي نفس الوقت كان يقتل نسائنا وأطفالنا واذا لم أقدم الدعم لنظامكم، ولو أتحدث عن هذا دون مواربة، فالسبب يعود إلى أن بغداد لم تقدم على فعل ما كنا نترقبه- فلم تعترف بحقوق الشعب الكوردي في الاستقلال ضمن اطار الدولة العراقية، فهذا المطلب، كما كان بالامس، يمثل مطلبنا وهو الحد الأدنى لوقف الحرب هنا)).

ثم جرت المفاوضات خلف أبواب مغلقة. وفي اليوم الآخر عاد الوفد العراقي إلى بغداد دونما تحقيق شئ. وسرعان ما طرحت الحكومة خطة ((اللامركزية))، التي جرى بموجبها تقسيم العراق إلى ست محافظات كبيرة بدلاً من ((الألوية)) السابقة. وسميت احداها ((كوردستان)) وعاصمتها السليمانية (لكن من دون كركوك وأربيل))، أما الكورد فقد نالوا حقوق الحد الدينا فيها وهي جعل اللغة الكوردية إلى جانب اللغة العربية لغة رسمية، ويجري التعليم بها في المدارس الابتدائية وفي المدارس المتوسطة جزئياً. ومن الطبيعي أن لا تجد هذه الخطة قبولاً لدى الحزب الديمقراطي الكوردستاني، ومع ذلك دعا البارزاني إلى ((مؤتمر كوردي عام)) في كويسنجق ومن الواضح أن الدعوة لهذا المؤتمر كانت رداً على موقف سلطات بغداد ففي بداية المفاوضات التي جرت مع الطالباني، أعلن السعدي نائب رئيس مجلس الوزراء بأن الوفدين لا يمثلان تمثيلاً صحيحاً: ((فلا نحن نمثل العرب جميعاً ولا أنتم تمثلون الكورد كلهم، ولهذا السبب ينبغي على الطرفين قبل

التوصل إلى أي حل، عقد مؤتمرات قومية عامة وتعيين الممثلين فيها. ولقد لبى المؤتمر المنعقد في كويسنجق بتاريخ ٨ آذار ولغاية ٢٢ منه رغبة نائب رئيس مجلس الوزراء العراقي إلى حد ما. وشارك فيه ممثلو المنظمات الاجتماعية والشخصيات الأكثر نفوذاً في كوردستان فضلاً عن النشطاء الحزبيين والقادة العسكريين. وحضر المؤتمر فؤاد عارف ممثلاً عن الحكومة. ولما تحدث البارزاني في هذا الكونفرانس فإنه أكد من جديد على ضرورة جعل الحياة ديمقراطية في العراق، وقال ان الحكم الذاتي لكوردستان ليس كافياً ولابد من أن يخيم السلام والوفاق في ربوع العراق بأسره، وفي الوقت ذاته لا بد من وضع نهاية لعهود المؤامرات العسكرية والانقلابات الحكومية المتعاقبة، والتي لا تحل مشاكل البلاد وتعرقل تطوره. لم أكن قط عدواً للعرب ولم يكن لدي أي طموح سياسي، ولهذا السبب أردت أن اسمح لنفسي في تقديم النصح للقادة العراقيين الحاليين فأقول لهم: ((لو تكن لديكم الرغبة في التمتع بثقة الشعب، عليكم الإعلان عن عفو عام والسماح لجميع الأحزاب بممارسة نشاطاتها علانية، واجراء انتخابات حرة وتشكيل حكومة تمثل جميع التيارات السياسية والأقليات العرقية والدينية كافة)).

ومن نتائج أعمال المؤتمر وضع مذكرة أرسلت إلى بغداد، غير أن العاصمة العراقية لم تكن تهتم بما يطرحه الكورد من آراء. ويبدو ان حكام بغداد كانوا يناقشون الأمور على النحو التالي: لو يوافق الكورد على خطة الحكومة سينالون لواء ((كوردستان)) واذا عارضوا الخطة- فانهم يجنون الحرب وسيتم سحقهم. أما في ما يتعلق بفكرة الحكم الذاتي للكورد، فانها، وحسب تعبير الصحيفة البيروتية ((الجريدة)) الدقيق، كانت تثير الذعر في نفوس القادة العراقيين أكثر من اسرائيل.

وأعلن وزير الخارجية العراقي حسين شبيب جازماً يقول: "لايمكن حتى الحديث عن منح الحكم الذاتي للكورد" وهدد قائلاً: "إذا لم يرغب البارزاني الدخول في مساومة فاننا لن نؤجل الموضوع طويلاً وسنقضي على الانتفاضة نهائياً.". في ٢٠ أيار قطعت القوات الحكومية جميع الطرق المؤدية إلى كوردستان وشددت من حصارها كثيراً، وفي اوائل حزيران أتخذ قرار في مؤتمر سري يقضي باستئناف الأعمال العسكرية، وفي السادس من حزيران تقدمت القوات الحكومية في عمق كوردستان أما في التاسع منه فقد جرى اعتقال الوفد الكوردي في بغداد، واستقال الوزراء الكورد احتجاجاً على ذلك الإجراء، وتم

وضعهم تحت الاقامة الاجبارية. وفي اليوم الثاني نشر قانون انشاء ((لواء كوردستان))، وحينذاك قطعت إذاعة بغداد برامجها كي تنقل بياناً هاماً للمجلس الوطني لقيادة الثورة. وجاء في البيان أن الحزب الديمقراطي الكوردستاني هو ((مجموعة من الخونة والمنشقين لهم صلات وثيقة بالدول الامبريالية والاجنبية بهدف تقويض وحدة العراق الوطنية)) ((لقد اتخذنا قراراً اعتباراً من اليوم وهو أن نبدأ بتطهير المناطق الشمالية من بقايا أعوان البارزاني. وجاء في البيان: ((إن المنطقة الشمالية من البلاد والتي تضم الموصل، والسليمانية، وأربيل، وكركوك هي منطقة عسكرية ومسرحاً للعمليات القتالية، وتمنح مدة ٢٤ ساعة لجميع مجموعات الخونة وأعداء الشعب والسيادة كي يلقوا سلاحهم ويعلنوا عن انتقالهم إلى جانب الحكومة الوطنية بلا قيد وشرط. واذا لم يوافق البارزانيون على الاستسلام فوراً فإنهم سيتحملون عواقب مواقفهم. أما في ما يتعلق بالبارزاني، فقد وعد نائب رئيس مجلس الوزراء صالح السعدي في اليوم الثاني يدفع مكافأة مالية تعادل ٢٥٠ ألف دولار لقاء رأسه. وقال السعدي: ((ان الحكومة ترى أنه يستحق دفع هذا المبلغ، ونعتقد ان القبض عليه سيضع حداً لكل شئ)).

وبعد يومين تفقد عارف شخصياً القوات المتمركزة في كركوك وأربيل ووعدها بأنه سيحل القضية الكوردية بالقوة وبشكل سريع وقال: ((ان زمن الدبلوماسية والصبر قد ولى)).

كان الحكام الجدد على استعداد لفعل أي شئ، وذلك خلافاً عن قاسم الذي اتصف ((بالمرونة)) نسبياً. لقد كانت غايتهم خنق البارزاني اقتصادياً وتدمير المحاصيل الزراعية واحتياطات المؤن وتحويل السكان إلى لاجئين، الذين لم يكن بوسع البارزاني تأمين الغذاء لهم. وتقرر ابادة الماشية وتدمير المحاصيل كلها في كوردستان. وتلقت القوات والعلوج من ((الحرس القومي)) أمراً بالاستيلاء على احتياطيات المؤن الغذائية المحفوظة في بيوت الناس. وشنت الحكومة حملة لم تشهدها كوردستان لها مثيلاً من قبل. كتب جان برادية يقول: ((في ٩ جزيران عام ١٩٦٣ جابت السيارات شوارع مدينة السليمانية وهي تحمل مكبرات الصوت معلنة بأن كل من يخرج من داره سيطلق الرصاص عليه حالاً. ودوت أصوات الرشاشات والأعيرة النارية الليلية، وفي الصباح الباكر تم الاستيلاء على المدينة ومحاصرتها تماماً. واتخذت الدبابات مواقعها على مفترق الطرق وهي على

أهبة الاستعداد للقتال... وبينما كان الناس يتساءلون عما يجري في مدينتهم، كانت القوات الحكومية تقوم بتفتيش البيوت وتحطم خزانات الملابس... وتضرب الأطفال والنساء، وتعتقل الرجال القادرين على حمل السلاح. وجرى اغتصاب النساء الشابات أمام انظار الرجال المكبلين بالاغلال وتم القاء القبض على ٥ آلاف شخص وضعوا تحت الحراسة في فناء ثكنه الجامعة العسكرية. كان ما يحدث في السليمانية من أعمال مرعبة تعيد إلى الأذهان وقوع مجزرة حقيقية فقد كان الجنود يجمعون الجثث بالبلدوزرات ويضعوها في الشاحنات ثم يلقوا بها في حفرة تقع على مسافة عدة كيلومترات من مركز المدينة. لقد قُتل ٢٦٧ شخصاً، كما قتل ٨٥ شخصا من السجناء السياسيين دون محاكمة. وارتكبت القوات الحكومية جرائم مشابهة في المناطق المجاورة. وعند الفجر أضرم الجنود العراقيون النار في قرية أورادجاين النائية. وكانوا يطلقون نيران أسلحتهم على السكان الهاربين من البيوت التي اشتعلت النار فيها. وفي مدينة كويسنجق علقوا الناس على أعمدة الهاتف وكان مجموع ما تم تدميره في هذه المنطقة ٤٩ ألف رأس من الماشية وحرق ٧ آلاف كيس من التبغ، التي كانت انتاج عام كامل. ويورد ب. دمتشينكو القصة التالية رواها كوردي من ضواحي أربيل "حاصرت كتيبة عسكرية القرية صباحاً وأمر ضابطها سكان القرية تسليم ما بحوزتهم من سلاح وتسليم المقاتلين الكورد الذين اختفوا فيها على حد زعمه. لم يتمكن الفلاحون من تنفيذ هذا الأمر، لأنه لم يكن لديهم سلاحاً نارياً بوجه عام، أما الأنصار فقد غادروا القرية في العشية. عندئذٍ راح الجنود يصبون الكيروسين على الدور السكنية ويشعلوا النار فيها. وكان القتلة من ((الحرس القومي)) ينكلون بالعائلات التي هرب أقاربها إلى الجبال. فقد تم رمي العشرات من الأطفال والنساء بالرصاص، ولم يبق من تلك القرية حتى منتصف النهار سوا أنقاض يتصاعد منها الدخان)).

وكان البعثيون المهاجمون من ((الحرس القومي)) أكثرهم وحشية وشراسة. كتبت ((صندي اكسبريس)) تقول: ((قام المراهقون من المنظمات الشبيبية ((للحرس القومي)) بقتل المئات من الأطفال والنساء، فقد قام هؤلاء المراهقون بتعليق الكورد من أرجلهم ثم جلدوهم بالسياط، وعندما حاولت النساء انقاذ أزواجهن من الهلاك كانوا يقتلوهن. كما ساعد أفراد هذه المنظمة الشبيبة القوات الحكومية وبدعم من الدبابات في تدمير قرى ومسحها كاملة من على وجه الأرض، وطردوا الناس إلى الحقول، حيث قاموا برميهم

بالرصاص ثم اضرموا النار في المزروعات. أما القرى التي لم تتعرض لاعتداءاتهم بعد فقد قاموا بمصادرة جميع الجرارات وغيرها من الآلات الزراعية وحرموا سكان هذه القرى من كل امكانية لزراعة هذه الحقول ومن كسب قوتهم اليومي. وحسب المعطيات الحكومية الرسمية فقد قتل في ١٣ حزيران ١٦٥ كوردياً، وفي ١٤ حزيران قتل ٣٠٠ كوردياً آخر، وسمحت للقوات العسكرية رمي الناس بالرصاص ميدانياً دون انتظار قرار الحاكم العسكري. وبلغ عدد القرى الكوردية التي تم تدميرها ٢٠٠ قرية.

كتب مراسل الصحيفة الألمانية الغربية ((شتيرن)) عن انطباعاته حول هذه الأحداث يقول: ((تمثل القرى المحيطة بالسليمانية إمكانيات ملائمة للجانبين. فالقوات الحكومية تجد فيها المواد الغذائية، أما الثوار فمآوى لهم خلال المداهمات الليلية، حيث يشترون فيها مايحتاجون إليه، ويحصلون على السلاح أو انهم يخطفون الموظفين الذين يضطهدون السكان الكورد بوحشية. لقد عرفنا تفاصيل مدى احتياجات السكان في احدى المخافر الأمامية للثوار والواقعة على مسافة خمس كيلومترات من مدينة السليمانية.

قامت القوات العراقية "بتمشيط" البيوت وصادرت نصف الاحتياطات من المؤن، وكانت المحروقات قليلة جداً، بحيث أن العائلات الكوردية القاطنة في شارع واحد كن يجتمعن سوية لطهي طعام الغداء لجميع أفرادها. واكتظت سجون المدينة بالناس، تعرضت زوجات البيشمركه للإهانة والسخرية، ومات عدد منهن بسبب التعذيب وطالبوا من سكان عدد كبير من المدن أداء الخدمة البوليسية والتجسس لصالح السلطات العراقية، فرفضت أكثرية الرجال ذلك، وكان جزاء رفضهم هدم دورهم السكنية وغادر آلاف الرجال المدينة بعد أن ظلوا دون مأوى.

وفي طريقنا شاهدنا في كل مكان الرجال وهم يمتطون البغال والحمير, وفي الليالي كانوا يقتربون من المدن تلبية لدعوة البشمركه وذلك لحمل اللاجئين إلى الجبال. ويمثل هؤلاء الفلاحين الصامتين ورفاقهم، الذين كانوا يتجولون ليلاً برهاناً ساطعاً على التضامن الكوردي، الذي كنا شاهداً عليه)).

قام الاتحاد السوفياتي بنشاط دبلوماسي عاصف، والذي كان "يغض الطرف" رسمياً عن جرائم قاسم، أما الآن فقد شرع "نظام البعث الفاشي" باضطهاد الكورد (كم كان عادلاً الوصف الذي أطلقته الدعاية السوفياتية على نظام عارف، مع أنه كان في شكل

شتيمة ايديولوجية). وفي ٣ تموز سلم غروميكو مذكرة إلى سفراء كل من تركيا وايران والعراق وسوريا محذراً فيها الدول الأخرى من مغبة التدخل في النزاع (وبعبارات أخرى من مغبة تقديم المساعدة إلى عارف في حربه الجارية في كوردستان) كانت المذكرة مكتوبة بلهجة تهديد شديدة، مع تحذير خطر حول الاحداث المرتبطة بالتحضر للعدوان الثلاثي ضد مصر عام ١٩٥٦.

ومن ثم حاولت منغوليا وبايعاز من الاتحاد السوفياتي، ادراج مسألة ((سياسة الابادة الجماعية ضد الشعب الكوردي في العراق((في جدول أعمال الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة. (بعدها قطع العراق علاقاته الدبلوماسية مع منغوليا) إلا ان هذه المحاولة لم تجد نفعاً. وردّ البارزاني على ذلك على النحو الآتي: ((اننا لانؤمن بامكانية نيل حقوق شعبنا بفضل اللوردات، بل نؤمن بأننا سنحقق النجاح بفضل سلاحنا)).

كانت الدول الغربية سعيدة بحلول فرصة لترسيخ موقعها في العراق هذا الموقع الذي تقوض كثيراً في ظل حكم قاسم. فراحت تمد العراق بالسلاح والخبراء وقدمت بريطانيا مساعدتها بشكل خاص، (رغم احتجاجات الرأي الاجتماعي) التي وقعت عقداً معه لتصدير ١٠٠ سيارة مصفحة من طراز "ساراتيسن" و ٣٥٠ طائرة مقاتلة من طراز "هاوكر- عنتر". فقام الكورد بتفجر بئرين من آبار النفط بالقرب من كركوك تابعين للشركات الانكليزية انتقاماً لموقف بريطانيا هذا.

صرح وزير الدفاع العراقي الجنرال عماش قائلاً: "لا أعتبر هذه حرباً، فما هي سوى نزهة..." إلا أن هذه النزهة، ومثلما كان متوقعاً، لم تجلب أكاليل الغار للحكومة العراقية. وحاصر العراقيون رانية، وراوندوز، وشقلاوة، وعقرة، والعمادية، لكنهم لم يتمكنوا من التقدم في عمق الجبال. وتمكن الكورد من محاصرة فوج عراقي في منطقة كويسنجق وطرد القطعات القادمة لمساعدته. كما تم محاصرة قطاعات عراقية أخرى في منطقة أربيل واستطاع البارزاني استخدام الفن العسكري الكلاسيكي لحرب الأنصار، دون الدخول في اشتباك جبهوي مع العدو وكان يسمح له بالتوغل في المنطقة والتمركز فيها، ثم يقطع بعد ذلك خطوط المواصلات والامداد ويفرض طوق الحصار على القطاعات التي تكون في وضع لايحمد عقباه. لقد وصف إيفتفولوس مراسل صحيفة "آسوشيندبريس" الموقف في شهري حزيران وتموز على النحو الآتي: ((لا يزال الجيش العراقي... متمركزاً في المدن

الكبيرة مثل الموصل، وأربيل، وكركوك والسليمانية ولديه حاميات في عدد من المراكز الريفية المعزولة. لقد قطع الثوار الطرق بين هذه المراكز ولا يتم الاتصال بينها سوى في تلك الحالات التي تستخدم فيها الدبابات لدعم وحده مسلحة تقوم بمرافقة القوافل العسكرية. وفيما بعد لخصت صحيفة "أوبزرفر" اللندنية الموقف على النحو التالي: "إن عدد الحاميات العراقية قليل جداً في المدن الكبيرة نتيجة... تكتيك البشمركه وما يرتبط بذلك من مصاعب الامداد. وغالباً ما تتألف هذه الحاميات من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ شخص يختفون في التحصينات وليست لديهم امكانية الخروج بعيداً عنها. وكثيراً ما تقع المؤن والذخيرة الحربية الملقاة من الجو في أيدي الثوار الكورد. وإذا لم تأت الهجمات الواسعة التي تشنها القوات الحكومية دورياً بنجاح عابر، فإنها لن تحررا نصراً حاسماً نظراً لانها لا تتمكن من الاحتفاظ بمناطق جبلية واسعة تحت سيطرتها خلال فترة زمنية طويلة.

في ٢ تموز نشر الحزب الديمقراطي الكوردستاني بياناً في باريس ترك انطباعاً كبيراً. وحسب ما جاء في هذا البيان فإن القوات العراقية تكبدت، خلال الاسابيع الثلاثة الأولى من المعارك، خسائر بلغت ١٣٠٠٠ عسكرياً من القتلى والجرحى، و٧٠٠ أسير، كما تمكن الكورد من اسقاط ٧ طائرات (بما فيها طائرة سورية) واستولوا على ٢٠ دبابة و٩ مدافع هاون وأكثر من ١٠٠٠ بندقية وعدد كبير من الرشاشات وغيرها من الأسلحة. أما الكورد فقد بلغت خسائرهم خلال هذه المعارك ١٣٤ قتيلاً و٢٣٧ جريحاً. كتبت صحيفة "النجم الاحمر" السوفياتية تقول: "لا يمر يوم واحد دون أن تصل سيارات او قطارات محملة بالجرحى من المناطق الشمالية إلى بغداد. وقامت الحكومة العراقية بإرسال وحدات الحرس القومي البعثي إلى الشمال للتعويض عن الخسائر الكبيرة التي تكبدتها القوات العراقية هناك. وتقوم سلطات بغداد وعلى نحو عاجل بتجنيد الشباب في الخدمة العسكرية، وتم تجنيد ثلاثة مواليد (١٩٣٩، ١٩٤٠، ١٩٤١) وطالما أنه لم يظهر أحد عن "الحمية الوطنية" هددت الحكومة كل من يتخلف عن الالتحاق بالخدمة بعقوبات شديدة تصل إلى السجن لمدة طويلة. وراحت السلطات تطارد الشباب في المقاهي والأسواق وغيرها من الأماكن الاجتماعية لإرسالهم إلى جبهات القتال.

في ١٥ آب حاول الرئيس العراقي عارف ادخال السرور إلى نفوس العراقيين حين صرح بالاعلان التالي: "تم سحق الخائن بارزاني بضربات خاطفة وجهتها وحداتنا العسكرية إلى

عصابته، ولاذ بالفرار إلى الجبال الواقعة على الحدود الإيرانية- العراقية وفي الواقع كان الكورد قد صدوا في هذا اليوم هجوماً حاسماً شنته القوات العراقية عشية هذا التاريخ (حسب الخطة العراقية) وعبر مضيق علي بك (إلى الشمال من مدينة السليمانية)، بعد أن منعوا محاولات العدو الرامية إلى التوغل في المنطقة الجبلية من البلاد. واستمرت معارك العراقيين الخاسرة للسيطرة على المضيق شهراً آخر، بعدها اضطرت بغداد على الاعتراف بواقعة فشل حملتها الصيفية فشلاً ذريعاً. وتمكن الكورد حتى شهر تشرين الأول من استرداد جميع مواقعهم المفقودة، ثم سيطروا على عدد من المناطق لم تكن تحت سيطرتهم من قبل او تم ذلك رغم أن ثلثي الجيش العراقي قد زج به في أتون المعارك ضد الكورد. وفيما بعد تبين أن العراقيين خسروا في العمليات العسكرية التي استغرقت ٨ أشهر (قبل الهدنة الجديدة) ٥٥٨٠ ضابطاً وجندياً، منهم ٢٤٦٢ قتيلاً و ١٦١٤ جريحاً و ٥٣٦ أسيراً و ٩٩٥ انتقلوا إلى جانب الكورد، كما أسقطوا ٥ طائرات ودمروا ٣٣ دبابة، واستولوا على ١٢ سيارة عسكرية و ٢٣ مدفعاً و ٧٣ رشاشاً و ١١٤٠ بندقية و ٤٠ صندوق ذخيرة.

كان الجنود العراقيين يقاتلون، كما كانوا فيما مضى، دون رغبة منهم، وانتقلت أكثرية القطعات الكوردية في الجيش العراقي إلى جانب أبناء جلدتها، ففي الايام الأولى منذ بدء العمليات العسكرية انتقلت مجموعة كبيرة من الضباط إلى جانب الكورد، ومن بينهم كان العقيد سالم فكري ومحافظ المنطقة الشمالية سابقاً، اللذين أصبحا قائدين عسكريين للوحدات الكوردية. وبعد أن وجد البعثيون العراقيون أنفسهم في مأزق دعوا "اخوتهم" السوريين لمساعدتهم (وقع انقلاب عسكري بعثي في سوريا آنذاك وبدأت محاولة متعاقبة للوحدة العربية). وفي تشرين الأول دفعت سوريا بقواتها إلى منطقة زاخو- دهوك، لكنها وجدت انه من الأفضل لها التحرك في الخفاء، خشية التهديدات التي أطلقها الاتحاد السوفياتي، ولم تشارك في المعارك، بل استخدمت قواتها لحماية طرق المواصلات، كي تتمكن القوات العراقية من أن تفرغ نفسها للقتال ضد الكورد.

في ذلك العهد أصبحت أيام النظام البعثي معدودة، فقد كان الحزب يعاني من صراع شديد بين كتلتين "اليسارية" التي كانت تطالب بتحولات جذرية وفورية، ويمينية أكثر برغماتية.

وفي نهاية المطاف قام "اليمينيون" باعتقال معظم أفراد القيادة المناوئة (بما فيهم الأمين العام) وطردهم خارج البلاد، وبدورهم دعا "اليساريون" الذين لم يطالهم الطرد لجنة من دمشق تضم القيادة الحزبية العليا (برئاسة ميشيل عفلق مؤسس الحزب) لم تقم هذه اللجنة بعودة المبعدين سابقاً، بل أبعدت بدورها قيادة "اليمين" لإيجاد توازن في الحزب. وسارع الرئيس عارف إلى استغلال الموقف، والذي كان حتى تلك اللحظة شخصية مراسيمية. ففي ١٨ تشرين الثاني: أمر بأدخال القوات إلى بغداد معلناً عن تعيين حكومة جديدة برئاسة طاهر يحيى المتشكلة من الضباط حصراً. ثم قام بحل ((الحرس القومي)) فوراً. وهكذا انتهت المرحلة الأولى من حكم البعث وبطريقة مذلة، هذه المرحلة التي استمرت ١٠ أشهر، التي أثبت في أنظار الانسان الضيق الأفق سمعة البعثيين على أنها سمعة مغامرين خطيرين وصنائع دمشق.

هدنة جديدة وانشقاق الحزب

كان تغيير النظام في العراق يتميز حسب التقليد السائد، بمحاولة جديدة للاتفاق مع الكورد. ففي أوائل عام ١٩٦٥ أرسل عبد الرزاق محمد محافظ السليمانية برقية إلى البارزاني جاء فيها: "أرغب في زيارتكم" فرد عليه البارزاني قائلاً: "نرحب بكم". وفي اليوم الأخير من كانون الثاني بدأت المفاوضات بين الطرفين في مقر البارزاني في رانية، التي أسفرت عن توقيع الهدنة بين الكورد والنظام وذلك بتاريخ ١٠ شباط. (بعد ٢٠ سنة بالضبط بعد تلك الاتفاقية التي وقعها البارزاني أول مرة في حياته).

لم تكن ثمة اتفاقية بالمعنى الخاص للكلمة، بل كان تصريح البارزاني الذي أدلى به حول قبوله البيان الحكومي، الذي تلاه وزير الاعلام في التلفزيون والراديو. وعدت الحكومة الاعتراف "بحقوق الكورد القومية في إطار الجمهورية العراقية" بعد تثبيتها في الدستور، واصدار العفو ووقف الحصار, واعادة جميع اللاجئين الكورد الذين تم تهجيرهم قسراً ودفع تعويضات لهم. وتشكلت لجنة لتقدير حجم الضرر ومقدار التعويضات.

ومما يلفت الانتباه هو غياب فقرة مفصلية وهي الحكم الذاتي. لقد أراد البارزاني ان يضمن لنفسه فرصة راحة، ولم يرى في البيان وثيقة نهائية، بل كخطة للمفاوضات.

وصرح في مؤتمر صحفي بعد وقف العمليات العسكرية قائلاً: "إننا نمنح الفرصة للحكومة لتنفيذ وعودها وضمان حقوق شعبنا، واذا لم ينفذوا وعودهم، فإننا سنضطر على الرد, وان انهاء العمليات العسكرية لا يعني أننا ألقينا السلاح جانباً إننا سوف نعمل طبقاً لموقف ومجرى تطبيق المطالب الكوردية.

أثارت الهدنة رد فعل شديد من الإنتيليغنتسيا الحزبية بقيادة إبراهيم أحمد السكرتير العام للحزب، وجلال الطالباني عضو المكتب السياسي (كلاهما محاميان) وهذه المجموعة عادة ما كان تسمى " مجموعة ابراهيم أحمد- الطالباني. أو بايجاز "الطالبانيين" كانت دعاوى الطالبانيين الموجهة إلى البارزاني تتلخص في فقرتين: وقف العمليات العسكرية دون أية ضمانات للحكم الذاتي، وأنه ينوب عن الحزب" أي ان البارزاني يتخذ القرارات ويدلي بالتصريحات دون التشاور مع الهيئات الحزبية. ومما حذرا منه بشكل خاص هو أن البارزاني وافق ولو في شكل مراوغ وشرطي على طلب عارف بحظر مختلف أشكال النشاط الحزبي في العراق ومن وجهة نظر الطالبانيين فان هذا (والهدنة عموماً) كان خيانة للحركة الديمقراطية العراقية العامة، التي اعتبرا الحزب الديمقراطي الكوردستاني جزءاً منها. وفيما يتعلق بالفقرة الأولى شدد "الطالبانيون" على أن نظام عارف في وضع صعب للغاية" بينما وافق البارزاني على الهدنة التي هي مناورة خادعة لغرض كسب الوقت وجمع القوى، بدل من تشديد الضغط عليه والعمل على انهياره.

ومن جانبه أوضح البارزاني أسباب قراره على النحو الآتي: كان الوضع الغذائي في مناطق الأنصار صعباً للغاية، فقد أمرت الحكومة البعثية حرق محاصيلنا بقنابل النابالم. بينما علينا توفير الطعام لآلاف اللاجئين الذين اختفوا عن الأنظار بسبب تعسف السلطات. صحيح أننا كنا في غاية الحزم لمواصلة نضالنا حتى النهاية، لكن عندما تعهد المارشال عارف الاعتراف بحقوق الكورد... قررنا مرة أخرى اختبار مصداقية خصومنا". في ذلك الوقت بلغ عدد اللاجئين ٢٠٠ ألف شخص، سكن أكثريتهم في دور أقاربهم، لكن مايقارب من ٢٠ ألف عاش في الخيام لسنوات.

كما يبدو فأن النزاع، بين "الطالبانيين" والبارزاني كان نزاعاً متميزاً لأصحاب الذهنية اليسارية إيديولوجيا مع "الانتهازي" البرغماتي. فقد تكون ابراهيم أحمد

والطالباني كشخصيتين سياسيتين في جو مشحون بالمناقشات الايديولوجية والخطط السياسية والمناشير والمطبوعات والصحافة التقدمية والحلقات السياسية. لقد كان لدى شقيق شيخ بارزان تجربة أخرى مغايرة تماماً، وكما يترك على ذلك كله جانباً قوياً للتنافس الشخصي وربما، حتى عدم التوافق الشخصي. وفي نهاية المطاف كان انصار الطالباني يعتبرون أنهم الذين أسسوا الحزب، ويبدو انهم، صدموا، عندما اكتشفو ان الحزب أصبح جهازاً بسيطاً في أيدي زعيم عشائري. غير أن المسألة تنحصر في أن الحزب الديمقراطي الكوردستاني كشف منذ بداية الثورة أن يكون حزباً بالمفهوم التقليدي للكلمة. لقد تحولت إلى منظمة سياسية عسكرية تقوم مقام الدولة بالنسبة للكورد ولهذا السبب فإننا عندما نقوم بتقويم ما قام به الطالبانيون من نشاطات في فترة لاحقة، والمنطلقين من المنطق المألوف للصراع الحزبي الداخلي نلاحظ انه لم يكن مبرراً في ذلك الموقف، فكما لو أن الناس الساخطين على أعمال حكومتهم يحاولون تشكيل حكومة موازية وجيشاً موازياً، أضف إلى ذلك أن هذا يجري في معمعان الحرب.

وتطورت الأحداث على النحو الآتي. ففي الرابع من نيسان اجتمع "الطالبانيون" في كونفرانس في قرية ماوات، حيث وضعوا فيه خطتهم، واعتبروا الهدنة "مؤامرة على الشعب الكوردي وخيانة لقضية نضال الكورد. وفي ١٩ نيسان نشروا بياناً شديد اللهجة يضم هجمات شخصية ضد البارزاني (اتهموه بقلة معارفه في القضايا العسكرية). ولتسوية هذه المسألة عقد البارزاني مؤتمراً حزبياً (أوائل تموز) لم تحضره المعارضة، ويبدو ان سبب غيابها يعود إلى خشيتها في أن تجد نفسها أقلية واضحة. وأسفر المؤتمر عن طرد ١٤ عضواً من المنحرفين من اللجنة المركزية، ودعا المؤتمر ابراهيم احمد وانصاره الانصياع لقرارات الحزب بغية الحفاظ على وحدته. لكنهم لم ينصاعوا للقرارات وراحوا يشكلون وحداتهم وتمكنوا من استمالة عدد غير كبير نسبياً من الناس إلى جانبهم (وصل عددهم إلى ١٠٠٠ شخص) كان غالبيتهم من الشباب ذوي الميول الراديكالية. لم يسر خلفهم الكورد البسطاء، فهم كانوا يعرفون الملا مصطفى حق المعرفة ويثقون به، أما الخطط والقرارات وغيرها فلا شأن لهم بها. وفضلاً عن ذلك فإن احساساً عادياً بالمسؤولية وحفظ الذات كان يتطلب البقاء في صفوف الحزب الديمقراطي الكوردستاني، بل ويتطلب ذلك من يكن على اتفاق تام مع البارزاني. وقعت اشتباكات بين وحدات الحزب

الديمقراطي الكوردستاني و "الطالبانيين" والتي، كما كان متوقعاً، انتهت بنصر سريع لأنصار البارزاني وطرد "الطالبانيين" إلى ايران. بناء كوردستان انعقد المؤتمر السادس للحزب الديمقراطي الكوردستاني في ١ تموز ولغاية التاسع منه، وقد تمت الدعوة له بسبب مشكلة المعارضة أولا لكنه دخل إلى التاريخ الكوردي بأنه وضع بداية تشكيل أجهزة السلطة السياسية في كوردستان، بعد أن شكل مجلس قيادة الثورة في كوردستان بقيادة مصطفى البارزاني. انه كان اعلاناً مبدئياً، لا سيما اذا أخذنا بالحسبان، أن الهيئة حملت تسمية مماثلة لتسمية الهيئة العليا للسلطة في العراق.

من البديهي ان الحزب الديمقراطي الكوردستاني اضطر منذ البداية على القيام بتنظيم الحياة في المناطق الواقعة تحت سيطرته. كتب اريك رولو في صحيفة "موند" يقول: "يحتفظ البارتي، كما يصفه أنصاره، بأموال الثورة ويقوم بتجنيد الجماهير بالمعنى المباشر والمجازي لتكثيف الجهود العسكرية، ونشرت جريدة "التآخي" في المناطق المحررة علناً، وفي جنوب العراق سراً، ويوفر المواد الغذائية لسكان المناطق المحاصرين من جانب بغداد، ويقوم بخدمات الاتصال ويقود التنظيم في المدن، الذي من التزاماته اعدام الخونة والقيام بالتخريب وغيرها. لقد قدر مراسلان لصحيفة "شيندن" هما ترلير وديغار تقديراً عالياً جهود الحزب، : "حسب مارأيناه يبذل الأنصار وتنظيمهم السياسي الحزب الديمقراطي الكوردستاني كل ما يستطيعون القيام به، فهم يرسلون الأطباء، ويبنون المستشفيات والملاجئ، ويقومون بتوزيع الرز والشاي والسكر، ويهتم الجنود الذين لم يشاركوا في العمليات العسكرية مؤقتاً بالمرضى أو يقومون بإخلاء اللاجئين. ولكن من أين لهم بالمال لشراء الملابس والبطانيات والمواد الطبية والمؤن؟ ان بعض الموارد يقدمها الفلاحون، فكل فلاح كان يقدم للأنصار ١٠٪ من محصوله، ويتم توزيع نصفه على الناس الفقراء، أما النصف الآخر فيوزع على الأنصار واللاجئين، ويقدم عدد من الفلاحين أكثر مما يطلبون منهم طوعاً، ومنهم من كان يتبرع بالمال".

ومع ذلك لم يمس الحزب الديمقراطي الكوردستاني نظام الإدارة حتى ذلك الحين مظهراً بهذا الشكل اخلاصه للدولة وعدم رغبته أخذ صلاحيات السلطة المركزية على عاتقه وكما ورد آنفاً فإن الضريبة العينية بنسبة ١٠٪ التي كان يجري جبايتها هي قضية لها طابع قانوني وتحلها محاكم الأنصار وكان الأمر يقتصر على ذلك. لكن عقب التجربة

مع من جاء بعده من الحكام خابت آمال البارزاني نهائياً في آفاق "الديموقراطية- للعراق". وانتهج سياسة انفصالية تماماً.

وبما أن تشكيل أجهزة الإدارة الحكومية بقرار حزبي لم يكن أمراً مرغوباً فيه، انعقد "كونفرانس شعبي جديد" (من ٩ تموز ولغاية ١٧ منه) في رانية، اتخذ قرارات اساسية في هذا الشأن. فقد تأسس مجلس جديد لقيادة الثورة في كوردستان بلغ عدد أعضائه ٦٣ عضواً، ٢٧ منهم كانوا يمثلون الحزب الديمقراطي الكوردستاني و ١١ يمثلون وحدات البيشمركه و٤ من المسيحيين (اثنان من الآشوريين واثنان من الكلدان) وممثل واحد للتركمان وشكل مجلس قيادة الثورة في كوردستان، والذي كانوا يسمونه البرلمان الكوردي، ٥ لجان هي لجنة الدستور والقانون والإدارة والمالية والحزب.

كان على مجلس قيادة الثورة في كوردستان أن ينعقد كل اربعة أشهر، وتشكلت في الوقت ذاته هيئة تنفيذية أي حكومة خاصة سميت بالمكتب التنفيذي وبرئاسة طبيب هو د. محمود عثمان (الذي ترك الحزب فيما بعد، والآن هو عضو في مجلس الحكم العراقي بصفة كوردي مستقل). كان المكتب التنفيذي يتألف من ١٨ عضواً، اثناعشر منهم ممثلين عن الحزب الديمقراطي الكوردستاني. كما كان له جهاز غير صغير، بحيث أن عدد العاملين فيه بلغ ١٠٠ شخصاً، إضافةً إلى الملاك الفني. وكان يتألف من ٨ إدارات

١. المكتب السياسي
٢. المكتب العسكري
٣. المكتب العدلي (كان يخضع له جميع المحاكم المدنية بما فيها المحكمة العسكرية العليا، والمحكمة العليا التي كانت تنظر في الجرائم السياسية بصورة رئيسية مثل التجسس والجرائم العسكرية الخطرة)
٤. المكتب المالي
٥. مكتب الشؤون الخارجية (كان لدى الحزب الديمقراطي الكوردستاني ممثلين له في أوروبا والقاهرة، وسرعان ما قام جمال عبد الناصر بابعاد هذا الأخير)
٦. المكتب الاقتصادي، أو قسم قيادة الاقتصاد
٧. فرع CMV (كانت لدى البارزاني صحيفة ناطقه باسمه هي صحيفة "خةبات" وراديو "صوت كوردستان العراق").
٨. فرع الأمن ومكافحة الجاسوسية.

جرى تقسيم الأراضي الواقعة تحت سيطرة البيشمركه إلى أربعة ألوية، التي قسمت بدورها إلى أقضية ونواحي. وكانت لجان الإدارة المدنية تؤلف الإدارة المدنية لجميع الوحدات من القرية وحتى اللواء. ففي القرى الصغيرة كانت هذه اللجان تتألف من ثلاثة أشخاص، أما في القرى الكبيرة فمن ٥ أشخاص. وكان من أهم وظائف اللجان جمع الضرائب التي قدرت ب ٥٪ من المحصول، إلا أن الفلاحين كثيراً ما كانوا يدفعون أكثر من ذلك, كان جميع اللجان تخضع للمكتب التنفيذي، كما تم وضع نظام للمحاكم المدنية الخاضعة للمكتب القانوني، ووضع دستور ومجموعة قوانين كوردستان، تضمنت تلك القوانين العراقية التي وجدها وحدها مجلس قيادة الثورة مقبولة. ومنح القانون الذي سنه مجلس قيادة الثورة بكوردستان في ٩ تشرين الأول، لنظام الإدارة القائم الأساس القانوني التالي: "تقوم سلطة الثورة الكوردية بوظائف الدولة العراقية في كوردستان العراق. ويعد مجلس قيادة الثورة معبراً شرعياً بهذه السلطة، لكونه يعبر عن مصالح الشعب الكوردي في زمن الحرب، وسيقوم بهذه الوظائف طالم لم يتم تلبية مطالب شعبنا الأساسي وهو حق تقرير المصير في اطار جمهورية عراقية ديمقراطية.

انتهجت الإدارة الجديدة سياسة اجتماعية فعالة. وجاء في وثيقة من وثائق اللجنة المركزية مايلي: ((يرى الحزب أن الوقت قد حان، للتحول من الشعارات إلى التطبيق العملي واجراء الاصلاحات في الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومكافحة الامية ورفع مستوى حياة الشعب لكي تضرب الثورة بجذورها في أعماق الوسط الشعبي)). وفعلاً جرى توزيع الأراضي الحكومية والملاكين المعاديين للثورة على الفلاحين، تم انشاء مئات مراكز القضاء على الأمية، وتم تحديد السقف الأعلى لدفع الأجرة وحظر طرد الفلاحين من الأرض بسبب عدم دفع الاجرة.

والى جانب البناء الحكومي سار تشكيل الجيش النظامي بنجاح. كتب دافيد أدامسون يقول: "تتجول قطعات المتمردين الكورد الناشطة في الجبال الواقعة على مقربة من السليمانية، من وحدات أنصار فوضوية التنظيم إلى ما هو أشبه بالجيش النظامي وبشكل سريع. ويجري تشكيل الكتائب الكوردية الخمس الأولى على قدم وساق. والعامل الجديد الآخر هو إنشاء وحدة تخريبية تحت اسم "خةبات" (النضال)، التي ستوجه ضرباتها إلى خطوط المواصلات الحكومية التي تكون حمايتها ضعيفة. وبلغ عدد أفراد جيش

البارزاني، الذي تشكل نهائياً عام ١٩٦٤، ما يقارب من ٣٥ ألف عسكري منهم ١٣٤٠٠ من كوادر البيشمركه- المقاتلين، والبقية من البوليس الأقليمي، الذي كان يجري استدعاؤه عندما كان يخيم خطر على المنطقة. كان الجيش يتألف من عشر فرق (التي هي عبارة عن ألوية وأفواج من ١٥٠٠ إلى عدة آلاف شخص) ومن الفصائل والسرايا، وعلاوة على عشر فرق، كانت كتيبة مستقلة من ٦٠٠ شخص تقوم بحراسة مراكز القيادة، وكذلك الحرس الشخصي للبارزاني، الذين كانوا من البارزانيين اتباع الجنرال القدماء بصورة اساسية وكان يحارب ٧٠ ضابطاً بما فيهم برتبة لواء إلى جانب البارزاني، وكان جيشه مزوداً بعدد من المدافع الجبلية، وعدد كبير من المدفعية الجبلية المضادة للطائرات ومن عيار صغير وتم انشاء الأكاديمية العسكرية، حيث كان الضباط- الكوادر يدرّسون فيها، وفي القطعات كانوا يجرون الدورات لتدريبهم على استخدام المدفعية والسلاح الحديث. وعملت إذاعتان ميدانيتان وعدد كبير من أجهزة اللاسلكي بتأمين الاتصالات مع القطعات على مسافة ٥٠٠ كيلومتراً من الجبهة. كان الجنود والضباط يستلمون مرتباً واحداً في زمن الحرب يساوي ٤/٣ دينار (مايقارب من دولارين)، وتضاعف مقدار الدفع لأصحاب العائلات، والشخص الذي كان لديه خمس أطفال كان يستلم ٧,٥ دنانير، إلا أن الجزء الأكبر من المبلغ كان يدفع للأسرة مباشرة. وكان يوجد معهد للموجهين السياسيين يلقون المحاضرات على الأنصار، وكانت العقوبات النظامية التي تفرض على أفراد البيشمركه هي السجن وحرمانهم من الإجازات، لكن أكثر ما كان يخشاه البيشمركه هو حرمانهم مؤقتاً من حمل السلاح. لم يكن للبيشمركه زياً عسكرياً، فقد كان أفرادها يرتدون الزي الكوردي التقليدي، الذي كانوا يحاولون إضفاء شكل عسكري عليها: وهي سترة كوردية حسب تفصيلها قريبة من السترة العسكرية فيها جيوب وكتافيات.

استئناف العمليات العسكرية

كما كان متوقعاً دخلت المفاوضات في طريق مسدود، ففي لقاء جرى على مستوى عال في كالاكان وفي أوائل حزيران استاء طاهر يحيى من استخدام كلمة "كوردستان" ذاتها، لأنها تؤدي إلى تقسيم البلاد، وقدم أحد اعضاء الوفد العراقي التقويم الآتي لمطالب الكورد قائلاً: "انكم تريدون الحصول على وضع قانوني الذي يمنحكم جميع امتيازات

الاستقلال" وفي هذا الوقت صدر الدستور الجديد والمؤقت (٣ أيار)، حيث لم يرد فيه، خلافاً للوعود، ذكر الكورد بوجه عام، أما تعريف العراق السابق بأنه بلاد العرب والكورد قد جرى استبداله بأن "العراق هو جزء من الأمة العربية". أما عارف الذي عبر بحق عن رغبته قبل وقت قصير في "تقسيم البلاد مع اخوتنا الكورد" فقد نسي ذلك سريعاً، ومن ثم راح يتكلم بتلك الروح قائلاً: "لن نعطي شبراً واحد من أرضنا لأحد، فالوطن العربي سيبقى للعرب" وتحدث وزير الدفاع عبدالعزيز العقيلي بصورة اكثر حدةً حين قال: "إن طريق المفاوضات كان خطأً كبيراً ويناقض مبادئ الدستور المؤقت. علينا توحيد جهودنا للقضاء على تمرد البارزاني".

مع أن موعد الهدنة الموقعة لأربعة عشر شهراً لم ينته بعد، أجرى العراقيون في نهاية كانون الأول شيئاً ما من قبيل "الاستكشاف بالقوة" ولم تسفر الاشتباكات الضارية التي دارت عشية السنة الجديدة عن نتيجة، لكنها كادت أن تشعل حرباً مع ايران، لأن طهران اتهمت بغداد في قصف المناطق الإيرانية الحدودية، وراحت تحشد قواتها على الحدود. (كان الشاه يقدم حماية ما للبارزاني، أملاً في أن يعيد النظر في شروط المعاهدة الحدودية، التي لم تكن لصالحه، بمساعدة الكورد). وانتهت المفاوضات التي جرت في كانون الثاني عام ١٩٦٥ برفض حكومة بغداد الاتفاقية عموماً، معلنة بأنها ستعيد تلك الإدارة، التي كانت قائمة في ظل حكم قاسم، إلى كوردستان (أي حتى بدون تلك الإدارة الذاتية المسماه "لواء كوردستان"، الذي صدر قانون حول فيما مضى). أما الكورد فقد عرض عليهم الانتساب إلى التنظيم اسياسي الوحيد التي سمح لها عارف بالعمل وهو "الاتحاد الاشتراكي العربي" (أي القضاء على الحزب الديمقراطي الكوردستاني) وتسليم السلاح. ورد البارزاني على الطلب الأخير بالثالوث الملهم التالي: "البيشمركة- هي رد على السؤال الذي يطرحه التاريخ حول حقوق الكورد وأفراد البشمركه هم المدافعون الأبطال عن حقوق الشعب الكوردي. وان كل من يرغب في أن ينال الكورد حقوقهم دون بيشمركة- فهم يتحدثون هراء. وهذا أشبه بوضع العربة أمام الجياد".

وقعت الاتفاقية لمدة ١٤ شهراً، وفي نيسان عام ١٩٦٥ استؤنفت العمليات العسكرية. وزجت السلطات العراقية بـ ١٥٠ ألف عسكري عراقي في حربها ضد الثوار الكورد على جبهة تمتد مسافة ٥ كيلومتراً من زاخو وحتى خانقين. وفي هذه المرة كان عارف يحظى

بدعم دولي واسع. فقد كان للأمريكيين والانكليز مصلحة في اعادة "الهدوء" إلى شمال العراق لوجود مشاريع استخراج النفط لهم هناك، لكن عارف بعد أن طرد البعثيين أقام علاقات جديدة مع الاتحاد السوفياتي وراح يتلقى المساعدة منه. ومع ذلك تطور الوضع حسب سيناريو معروف وهو هجوم القوات الحكومية على مواقع الثوار، الذين قاموا بدورهم بشن هجوم مضاد، وتوجيه الحكومه التهاني إلى نفسها "بالانتصارات الرائدة على المتمردين، في ظل غياب ذلك فعلاً على أرض الواقع. وفي نهاية العام عرض البزاز (ليبرالي)رئيس مجلس الوزراء الجديد على البارزاني تسليم سلاحه، فتلقى رداً عنيفاً مرة أخرى عندها أعلن البارزاني أن الاعتراف الرسمي بالحكم الذاتي هو شرط مبدئي، بدونه لن ندخل في أيه مفاوضات. وصرح قائلاً: "إذا لم توافق حكومة العراق على مطالبنا، فإننا على استعداد لمواصلة الكفاح الثوري عشر سنوات أو عشرين سنة أخرى واذا تطلب الأمر فإننا سنواصل النضال إلى ان ينال الشعب الكوردي حقوقه القومية كاملة، والى أن يتحرر العراق من الديماغوجيين ومن الديكتاتوريات العسكرية".

وحسب ذلك السيناريو المعروف فأنه كلما كانت نجاحات القوات الحكومية ضد البيشمركة قليلة الشأن، كان نطاق العمليات ضد السكان المسالمين أوسع، سعياً منها إلى خنق البارزاني بسيل جارف من اللاجئين. ففي الخريف وضعت خطة بقيادة العقيلي، تضمنت حرق القرى الكوردية، هذه الخطة التي بدأوا بتنفيذها في ٦ كانون الأول. وعملياً كانت هذه الخطة (حسب وصف "خەبات" لها) تبدو على الشكل الآتي: "عندما تحترق القرى ويغادرها سكانها، تدخل قوات الاحتلال اليها وتسلب وتنهب كل ما يقع تحت ايديها، ثم كانت تقوم بحرق القرى كلها طاردة منها ما تبقى من سكانها, وبهذه الطريقة جرى تدمير ٦٠٠ قرية.

معركة في مشارف راوندوز

إلا أن الحكومة أدركت أنها لن تكسب الحرب بالحرائق وحدها، فوضعت خطة استراتيجية لتدمير بارزان، التي اعتزمت على تطبيقها مع بداية حملتها الربيعية. وكانت الخطة ترمي إلى اختراق جبهة البيشمركه على مشارف راوندوز والخروج إلى

الحدود الايرانية، والسيطرة على قرية حاجي عمران الحدودية ونقطة العبور، التي كان الثوار يتلقون من خلالها المساعدات من إيران وعلى نطاق واسع، وتقرر البدء بالعملية في ٤ نيسان، لكن مما أعاق ذلك هو وقوع حدث لم يكن متوقعاً: ففي عشية هذا اليوم قتل عبد السلام عارف (تحطمت طائره الهيلوكوبتر التي كان يستقلها اثر زوبعة رملية). ونشبت في القيادة العراقية معركة قصيرة، أسفرت عن تعيين رئيس جديد للبلاد هو المارشال عبد الرحمن عارف، أما العقيلي الذي كان يطمح إلى هذا المنصب أيضاً فقد أضطر إلى الاستقالة، ووضع تنفيذ خطة العقيلي على عاتق وزير الدفاع الجديد شاكر محمود شكري. أدت جميع هذه الأحداث إلى تأخير شن الهجوم على الثوار الكورد مدة شهر تقريباً. ولم تبدأ القوات الحكومية بهجومها إلا في ١٣ أيار. كانت الحكومة واثقة من نجاح هجومها، بحيث أن عارف طلب من إيران مسبقاً عدم إيواء "المتمردين المسلحين" ورفض منح مآوى للبارزاني. وأعلن عبد الرحمن عارف قائلاً: "أصبحت أيامهم (أيام المتمردين) معدودة وان شاء الله لن يبقى أثراً يذكر لهذا التمرد في الأيام القليلة القادمة".

زج بالقوات العراقية الأساسية (فرقتان من أصل ٥ فرق بلغ عددها ٣٥ ألف عسكري)، في طريق راوندوز- حاجي عمران الواقعة تحت سيطرة الكورد منذ بداية الثورة وذلك بعد تمهيد ناري قوي. وللسيطرة على هذا الطريق (وبذلك يتم عزل البارزاني عن إيران) لابد من السيطرة على جبلين يشرفان على الطريق من الجانبين والقمتان هما"زوزك وهندرين. كان البارزاني يدرك أهمية هذين الموقعين الحاسمة ادراكاً رائعاً، فقام بارسال ٣٥٠٠ مقاتلاً من خيرة البيشمركه وبقيادة ضابطين شابين هما محمد فاخر وفارس قةرةداغى. وراح الضابطان الكورديان يديران الأمور حسب جميع القواعد الاستراتيجية، وأنشأ خطوطاً محصنة في الجبال. كانت التحصينات الحجرية تبتعد عن بعضها البعض مسافة ١٠٠ متر، حيث تتمركز فصيلة في كل واحدة منها. انسحبت قوات البيشمركه منذ بداية الهجوم الذي شنه العدو، ولما أخذت القوات العراقية تتوغل في الجبال واصطدمت بنظام التحصينات، انتقل الكورد بدورهم إلى الهجوم المضاد (٤ أيار) وقاموا بمناورات التفافية، وفي ٧ أيار حاصروا ١٠ مراكز متقدمة للعدو.

بعد مضي ٥ أيام دمرت قوات البيشمركه لواءً عراقياً (اللواء الرابع) تدميراً كاملاً. ودب الذعر في صفوف القوات وسادت الفوضى، وكثيراً ما كانت القوات العراقية تسدد

نيرانها إلى بعضها البعض. وفي ١٧ أيار تم تطهير الجبلين من القوات العراقية تطهيراً تاماً، والتي فقدت ٢٠٠٠ من الجنود القتلى (بما فيهم ١٥٠ ضابطاً) وعدد كبير من الأسرى. كانت هذه المعركة نموذجية خاضها الكورد طبقاً لجميع قواعد العلم العسكري ومبادئه وتعد أروع نصر عسكري خلال تاريخ هذه الثورة كلها، بل، ويمكن القول، خلال تاريخ نضال الكورد في سبيل الاستقلال. وأصبح اسم كل من قةرةداغي وفاخر محمود على كل لسان وشفه. فقد كتب مراسل "لاراكورا" يقول: "منذ فترة قصيرة أصبح الرائد الكوردي فاخر والبالغ من العمر ٣٠ عاماً بطلاً قومياً. ومما لاشك فيه أن المطربين الشعبيين سيتغنون بنصره الخارق الذي احرزه على فرقتين من الجيش العراقي، وخلال سنوات كثيرة في القرى والمدن الكوردية، والذين بأصواتهم الرنانه يخلون بهدوء ليالي كوردستان" ورأى البارزاني أنه لابد تهنئته شخصياً. وكان ذلك شرفاً عظيماً للرائد، ذلك ان كل واحد يعرف أنه من الصعوبة التأثير على عواطف البارزاني.

اتفاقية البزاز

في أعقاب الهزيمة النكراء على مشارف راوندوز لم يبق أمام الحكومة سوى أن تعلن من جديد (وعلى لسان رئيس وزرائها الليبرالي البزاز) أن العراق ليس عربياً وحسب، بل كوردياً بنفس القدر، واختارت طريق المفاوضات: وفي حزيران أرسلت الحكومة وفداً جديداً الى كوردستان قام باطلاع البارزاني على خطة البزاز وهي الاعتراف بالقومية الكوردية بما في ذلك دستورياً، والاعتراف باللغة الكوردية لغة رسمية في كوردستان ودفع التعويضات للاجئين وأخيراً إجراء انتخابات برلمانية في العراق، (البرلمان الذي تم حله مع سقوط "الحكم الأسود" لم يجتمع منذ ذلك الحين). وافق البارزاني على الخطة، وفي ٢٩ حزيران تم التوقيع مرة أخرى على اتفاقية الهدنة. لم تتحدث الاتفاقية عن المادة الاساسية وهي الحكم الذاتي على نحو محدد، لكن الحزب الديمقراطي الكوردستاني نظر الى الخطة على أنها ليست وثيقة نهائية بل كأساس للمفاوضات. وصرح البارزاني لمراسل "لاكروا" قائلاً: "لا يوجد لدينا خيارآخر، فالناس بحاجة إلى الراحة لقد تأملت الآن في المحصول الذي تم حرقه بقنابل النابالم وبالذي لم يحترق وينتظر الحصاد، فالشتاء يحل مبكراً في الجبال، وعلى الكورد الاستعداد له. فالفرصة ضرورية، لكن السلام النهائي لن يحل قريباً"

كان البارزاني يعرف جيداً أن الوضع الذي حل ستجري فيه مفاوضات هشة. ففي أيلول قام وزير الدفاع شكري، بزيارة له) ذلك الذي اراد قتله في عام ١٩٦٢، وفيما بعد نفذ "خطة العقيلي"). وقدم الجنرال القرآن هدية للبارزاني علامة للثقة. وفي ٢٨ تشرين الأول قام الرئيس عارف بزيارة إلى كوردستان، والتقى مع البارزاني في قرية جنديان على مشارف راوندوز واستمر اللقاء مدة ٤ ساعات. استهل عارف حديثه بتصريح حين قال: "الناس قد يرتكبون ذنوباً كبيرةن لكن لا ينبغي تركهم دون هدايتهم" وطالب البارزاني تعيين الكورد في مناصب وزارية وفي منصب نائب الرئيس وفي منصب قائد الفرقة الثانية (المتمركزة في كركوك). فوافق عارف على ما اقترحه البارزاني من شروط، وطالب بدوره إعادة هيئات السلطة القانونية إلى كوردستان وإعادة السلاح الذي تم الاستيلاء عليه في أثناء المعارك. وقدم عارف سيارة هدية للبارزاني، الذي قدم بدوره صينية فضية منقوش عليها عبارة "الأخوة العربية- الكوردية"، لقد تم ضم وزيرين كورديين إلى الحكومة.

بغض النظر عن هذه التلميحات لم يتم رفع الحصار عن كوردستان نهائياً، كما لم تسمح الحكومة للعاملين في "الصليب الأحمر" بالسفر إلى كوردستان، وساء الوضع شيئاً فشيئاً لقد كان لطاهر يحيى، الذي أصبح رئيساً للوزراء بعد حرب أيام الستة، ميولاً قومية متطرفة. ولم تسفر المفاوضات، التي جرت معه في أيلول عام ١٩٦٧ عن نتيجة، وفي عام ١٩٦٨ تم الاعلان عن تأجيل الانتخابات في البرلمان. فقام البارزاني باستدعاء وزرائه من الحكومة فوراً مهدداً باستئناف القتال إذا لم يتم تنفيذ "اتفاقية البزاز"، لكن سرعان ما أطاح البعثيون بحكومة عارف في انقلاب عسكري.

بيان آذار

في صبيحة السابع عشر من تموز عام ١٩٦٨ أعلن راديو بغداد عن قيام "ثورة" آخرى، حيث استلم حزب البعث مقاليد السلطة وأطاح بنظام فاسد وضعيف، والذي كان يمثل حفنة من الجهلة والأميين واللصوص والجواسيس والنفعيين والصهيونيين. وشكل مجلس جديد لقيادة الثورة، وأصبح أحمد حسن البكر رئيساً له وللبلاد أيضاً.

وخلافاً لما جرى في أحداث عام ١٩٦٣، لم تراق هذه المرة نقطة دم واحدة. وبما أنه ظهر أن القيادة العسكرية كلها كان لها ضلع في المؤامرة، قاموا بإبلاغ عارف هاتفياً عن تنحيته واقترحوا عليه مغادرة البلاد فوراً، الأمر الذي نفذه. صحيح أن تحالفاً هشاً بين البعثيين والعسكريين تسلم زمام الأمور في البلاد، فإن أهم المناصب (رئيس الوزراء ووزير الدفاع) لم يستلمها البعثيون. ولم يمض اسبوعان حتى قام البعثيون- خلافاً عن عام ١٩٦٣- بالتمثيل على "رفاق الطريق" من الجنرالات بعد أن قاموا بإغراء أحدهم (داود وزير الدفاع) بالسفر إلى الخارج، ومن ثم أبعدوا الثاني وهو عبد الرزاق النايف رئيس الوزراء. وبهذا الشكل سيطر البعثيون على الوضع سيطرة كاملة. ولم يكن الانقلاب مصحوباً بأعمال التعسف والاضطهاد بل على العكس من ذلك، حيث صدر عفو عام شمل الكورد أيضاً. وأطلقت الحكومة الجديدة وعوداً بمنح الحريات الديمقراطية وعلى نطاق واسع، وانتخاب البرلمان (ليس للمرة الأولى) وغيرها، ولا سيما أن الحكومة وعدت بايجاد حل سلمي للقضية الكوردية، معلنة أن الكورد هم "رفاق" العرب في عداد الدولة العراقية وبصفة عامة لم يكن أحد يتنبأ بفتح صفحة جديدة تعد من أكثر الصفحات دموية وسواداً في تاريخ العراق، ولم ينتبه أحد إلى أن نائب رئيس مجلس قيادة الثورة قد أصبح صدام حسين، أحد أقرباء البكر، والذي كان شخصاً مدنياً ولم يكن معروفاً.

واصلت الحكومة الجديدة المفاوضات مع الكورد، لكنها لم تستطع تبني "خطة البزاز"، في حين أنها كانت شرطاً أساسياً في اعتقاد البارزاني. وفي أيلول دخلت المفاوضات في طريق مسدود، وفي تشرين الثاني استؤنفت العمليات العسكرية، علماً أن الكورد قاموا بتفجير عدد من المنصات النفطية في كركوك.

استغلت إيران الموقف، وأعلنت في ربيع العام التالي عن إلغاء المعاهدة الحدودية لعام ١٩٣٧ من جانب واحد (التي وضعت قواعد الملاحة في شط العرب، والتي كانت ضارة جداً لايران). وكان فسخ هذه المعاهدة هدف إيران المنشود منذ زمن بعيد. وأصبحت الحرب وشيكة الوقوع بين ايران والعراق، وقام الجانبان بحشد قواتهما على الحدود وبدأت الاشتباكات بينهما. وفي أيار زج نظام الحكم في بغداد بأربع فرق من أصل ست فرق عسكرية ضد الكورد، التي نكلت بالسكان المسالمين، بعد أن أخفقت في الموصل إلى منطقة تمركز الثوار. وأصبح ما حل من مآساة بقرية ديكان معروفاً في الغرب وعلى نطاق واسع، التي وقعت في آب وصورتها نشرات الأخبار الكوردية.

لاذ أطفال ونساء القرية بكهف من الكهوف القريبة، خشية القصف وضربات المدفعية، وقام الضباط والمرتزقة ("الجاش") بحرق القرية واجتمعوا قرب مدخل الكهف وجاؤوا بالحطب ورشوه بالبنزين وأضرموا النار فيه. وتعالت صرخات النساء والأطفال الذين فقدوا صوابهم. وكان الجنود يطلقون الرصاص على كل واحد يقترب من المخرج وهكذا لم ينج أحد من الموت، فقد تم حرق ٦٧ امرأة وطفلاً في الكهف.

في الوقت ذاته كانت العاصمة بغداد تبحث عن الطرق المؤدية إلى الاتفاق. ففي تموز أرسلوا الجنرال سعدون غيدان أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة إلى بارزان والذي وعد بدفع التعويضات إلى اللاجئين. وإن الاصلاح الاداري الذي جرى في تشرين الأول، قد حقق ما كان يطالب الكورد به منذ العشرينيات، وهو فصل منطقة زاخو- دهوك عن ولاية الموصل الشبه عربية إلى محافظة كوردية مستقلة حصراً.

ومع ذلك ازداد في تشرين الأول عام ١٩٦٩ نشاط العمليات العسكرية ثانية وبات واضحاً أن الموقف في مأزق، والنظام مازال ضعيفاً جداً (فالحزب الحاكم لم يكن يتمتع بتأييد جماهيري، ولم ينجح بعد في "تبعيث" البلاد. أما مواقع البارزاني فقد كانت راسخة، وكانت ثمة فرص أكبر في أن يتم انهيار سيطرة البعث بفضل البارزاني، من أن يتمكن البعث من القضاء عليه. ففي تلك الظروف، أخذت القيادة البعثية تميل إلى فكرة وهي أنه يتعيين عليها، شاءت أم أبت، الموافقة على الحكم الذاتي للكورد، بعد أن اقترحت دون نتيجة خطة "اللامركزية" (رفضها البارزاني منذ البداية). ومهما يبدو ذلك مفارقة على ضوء الأحداث القادمة، لكن "اللوبي" الرئيسي" لحل القضية الكوردية حلاً سلمياً" كان صدام حسين في حزب البعث، الذي أصبح فيما بعد عدواً لدوداً للكورد. فقد صرح قائلاً: "اقتربت البلاد في الوقت الحالي وبالذات الآن من ذلك الحد، عندما يرتبط فيه مصير الثورة بحل المسألة الكوردية" ويحدد الأمريكي روبين ح. ابدايك وكاتب سيرة الديكتاتور بواعثه في هذه المرحلة: "أدرك... صدام، كيف أن القضية الكوردية أثرت على نظام البعث السابق تأثيراً مهلكاً، وعبر عن خشيته من أن إيلاء أهمية زائدة لها سيعرض حكم البعث من جديد للخطر، ومما هو مهم أنها ستقوض وضع صدام ذاته في الحزب. فقد كان يعلم أن اخماد ثورة كوردية شاملة يحتاج إلى جهود عسكرية كبيرة، أخذاً بالحسبان الدعم الايراني القوى الذي، ستقدمه على الأرجح إلى المتمردين الكورد. وكان واضحاً أن التكاليف الاقتصادية لهذه الحرب ستكون باهظة الثمن، ولا سيما لو يقوم

الكورد بالحاق الضرر بالصناعة النفطية، الأمر الذي كان بوسعهم فعل ذلك؛ مثلما بينت الغارة على مواقع استخراج النفط في كركوك. فقد أدرك صدام وبوضوح، أنه إذا غاص العراق في كوردستان، سيكون ذلك لصالح إيران ويسمح لها بفرض ارادتها على العراق بشأن عدد من المسائل.

كما واجهت صدام معضلة أكثر تعقيداً، ذلك أن آفاق احراز نصر حاسم على الثوار الكورد لم تكن لصالحه تماماً؛ وليس هو الذي سيقود العمليات العسكرية، وبالتالي لن تكون له أكاليل النصر. وعلى الأرجح فإن القيادة العسكرية بصفة عامة ولا سيما عدوه اللدود وزير الدفاع حردان التكريتي كان يستفيد من الحرب، الذي كان يصر على الحل العسكري للقضية الكوردية. لكن مصالح صدام السياسية كانت تنطبق أكثر مع الاحراج العسكري في كوردستان، لأن من شأن ذلك أن يقوض الثقة بحردان التكريتي. ومع ذلك فإن مثل هذا التطور للأحداث من شأنه أن يؤدي إلى عواقب قائمة لنظام البعث، بحيث أن الضرر كان يفوق كثيراً المنفعة الشخصية المحتملة.

كانت الوسيلة الوحيدة أمام صدام حسين لإيجاد الدائرة التربيعية هي البحث عن حل سلمي للقضية الكوردية، الأمر الذي أقدم عليه بعناده الهادف. وفي بادئ الأمر دخل البعثيون في تحالف مع مجموعة ابراهيم أحمد- الطالباني، وكانوا يعقدون الأمل على تأليبها ضد البارزاني، لكنهم سرعان ما أدركوا مدى ضعف هذه المجموعة وعدم تمتعها بنفوذ. وفي الخريف أجرى صدام اتصالات مع البارزاني، ومن ثم تم تعيين وزيرين كورديين في الوزارة العراقية، وأصبح الشيوعي عزيز شريف وزيراً للعدل، الذي وجد ملاذاً له في كوردستان بعد الاطاحة بنظام عبد الكريم قاسم. ومن ثم انتقل إلى موسكو (حيث منحت له جائزة لينين للسلام)، والآن كان عليه أن يلعب دور الوسيط بين بغداد والبارزاني. بعدئذٍ التقى صدام مع البارزاني عدة مرات، وعاش عندة ثلاثة أيام في كوردستان.

في ١١ آذار عام ١٩٧٠ وقع صدام حسين ومصطفى البارزاني في قرية ناف بردان الكوردية البيان الشهير حول الحكم الذاتي للكورد (بيان آذار).

كانت المادة ١٤ أهم مادة في الاتفاقية التي نصت حرفياً على مايلي: "بعد نشر هذا البيان، على اللجنة العليا اتخاذ الاجراءات اللازمة... وهي: توحيد المحافظات والمناطق الادارية التي يشكل الكورد فيها الأكثرية وفق الاحصاء. وستوجه الحكومة جهودها نحو

تطوير هذه المناطق ونحو توسيع وتعميق مشاركة الكورد في هذه العملية وسيتم ضمان حقوق الكورد في حق تقرير المصير (! د. ك) وقبل التوصل إلى الوحدة الادارية في هذه المنطقة، سيتم تنسيق جميع القضايا الكوردية نحو طريق الاستشارات الدورية بين اللجنة العليا والمحافظين في المحافظات الشمالية.

وطالما أن حق تقرير مصير الكورد سيتم تلبية في اطار الجمهورية العراقية، فإن استثمار الموارد الوطنية في هذه المنطقة من صلاحية الهيئات المركزية في الجمهورية أما في ما تبقى فقد نصت الاتفاقية على مايلي:

- تصبح اللغة الكوردية لغة رسمية ولغة المدارس في كوردستان، واللغة الثانية في باقي المحافظات.
- المساواة التامة لأخواننا الكورد في شغل المناصب الحكومية.
- زيادة عدد المدارس في كوردستان وإعادة الطلاب المفصولين بسبب أعمال الفوضى إلى جامعاتهم ومعاهدهم، ويجرى قبول الكورد في الجامعات والمعاهد العليا والعسكرية على قدم المساواة مع العرب.
- في المناطق التي يشكل الكورد فيها أكثرية السكان يجب أن يكون الموظفين من الكورد أو من يتقن اللغة الكوردية اتقاناً جيداً
- تصادق الحكومة على حق الكورد في انشاء المنظمات الاجتماعية (منظمات الطلاب والشباب والنساء والمعلمين وغيرها).
- اصدار عفو عام.
- رصد ميزانية خاصة لتطوير كوردستان.
- منح إغاثة مالية للأسرة الكوردية التي استشهد منها خلال الحرب بين العرب والكورد.
- عودة الكورد والعرب إلى أماكن سكناهم السابقة.
- الإسراع في تطبيق الاصلاح الزراعي في كوردستان.
- إدخال التعديلات التالية إلى الدستور:

أ- يتألف الشعب العراقي من قوميتين رئيسيتين هما العرب والكورد. ويصادق الدستور على حقوق الكورد القومية والأقليات الأخرى في إطار المجتمع العراقي.

ب- جعل اللغة الكوردية لغة رسمية إلى جانب اللغة العربية.

- اعادة المعدات العسكرية ووسائل الاتصال اللاسلكية التي تم الاستيلاء عليها إلى الدولة.
- يجب أن يكون نائب رئيس الجمهورية كوردياً.
- يجب أن يتم تمثيل الكورد في الهيئات التشريعية العراقية بما يتناسب وعددهم في البلاد.

وتلا الرئيس أحمد حسن البكر مضمون هذه الاتفاقية في الإذاعة والتلفزيون معلناً عن تحقيق نصر كبير للشعبين والذي يضمن السلام والعلاقات الأخوية الصادقة بين الشعبين، وأعلن عن الاحتفال "بعيد السلام" مدة ثلاثة أيام وقامت الدعاية الحكومية وبشتى الوسائل بتنظيم الأفراح الشعبية والتطبيل لها. صرح صدام بأن بيان ١١ آذار هو حدث "يعادل ثورة ١٨ تموز في جميع النواحي" وكما أشار ر. ج. أبدايك فقد جاء هذا الموقف لجعل القوميين على الحياد، والذي كان يعتبرون الإتفاقية مع البارزاني اشبه بالاستسلام.

أرفقت المعاهد ببنود غير منشورة من الاتفاقية، وأحد هذه البنود كان يتعلق بالبيشمركه. ففي بادئ الأمر طلبت بغداد حل قطعات البيشمركه، لكنها بعد أن أدركت أن البارزاني لن يقدم على اتخاذ هذه الخطوة القاتلة، وافقت على بقائها. ثم تم تحديد "مرحلة انتقالية" لمدة أربع سنوات ينبغي خلالها تسوية جميع المسائل الفنية المتعلقة بتنظيم الحكم الذاتي وحقوقه، واجراء احصاء في المناطق الشمالية من البلاد، والذي يتم بناء عليه تحديد المناطق التي يشكل الكورد فيها غالبية السكان، وعلى أساس ذلك يجري تحديد حدود الحكم الذاتي لكوردستان (اعتبر البارزاني مدينة كركوك عاصمة لها)، ويجب أن يصبح قانون الحكم الذاتي، الذي وافق عليه اثر الاتفاق مع الكورد ذروة هذه العملية. ومما لاشك فيه أن بيان ١١ آذار هو قمة نجاحات البارزاني السياسية. إلا أن بعض المؤلفين يرى أن القبول بموعد أربع سنوات كان خطأ جسيماً، فمن وجهة النظر الفنية المحضة يمكن اعداد القانون خلال عام واحد، ولم يتمكن البارزاني، حسب رأي نقاده، من استغلال الوضع وسمح لصدام بتمديد العملية وإعادة قواه كي ينقض بكل ما أوتي نظامه من قوة على الكورد بعد مض أربع سنوات.

نرى أن هذا الحكم ليس تاريخياً، فهو ينطلق من تصور مفاده أن نظام بغداد تم اركاعه في آذار عام ١٩٧٠ وكان على حافة الانهيار، وكان بوسع مصطفى البارزاني أن يملي جميع شروطه على الحكومة. وفي الواقع كانت العملية السلمية، كما يبدو، نتيجة حالة تكونت بنجاح. ومن شأن تصعيد المطالب من جانب الكورد أن يؤدي إلى احباط الاتفاقية وانتصار "حزب الحرب" في بغداد. ومن الواضح أن تحقيق مطالب الكورد كاملاً (أي انشاء

حكم ذاتي داخلي وعاصمته كركوك) كان أمراً مستحيلاً ليس بسبب الطبيعة القومية لحزب البعث وحسب، بل أنه حال إقدامه على هذه الخطوة كان تتم الاطاحة بالنطام ببساطة. وعلى هذا النحو فان "المدة القصيرة" للمرحلة الانتقالية، كان من شأنها أن تتحول سريعاً إلى استئناف جديد للعمليات العسكرية. ولهذا فان البارزاني (شأنه في ذلك شأن صدام) استغل الفرصة للحصول على فتره راحة طويلة وترسيخ مواقعه معتمداً على الظروف فيما بعد: "ان شاء الله" أما الكورد فقد كانوا فعلاً بحاجة إلى فرصة راحة أكثر من الحكومة، فقد كانت الحرب بالنسبة للاقتصاد العراق عبئاً ثقيلاً على اقتصاد كوردستان وكارثةً, وتنطلق الآراء الانتقادية الموجهة إلى البارزاني من تلك الواقعة وهي أن صدام حسين قد تغلب عليه في نهاية المطاف. ولكن هل هذا يعني أن صدام انتصر بفضل هفوة البارزاني؟ فكما يرى القارئ لاحقاً، استفاد القائدان من الفرصة جيداً، وربما كان البارزاني أفضل من صدام في استغلاله للفرصة المناسبة. وإن ما أصيب به من إخفاق جاء نتيجة لاتفاقية الجزائر، التي كان يصعب على البارزاني استدراكها ويتعذر عليه تماماً الحيلولة دونها.

لكن نعود ثانية إلى مجرى الأحداث التي وقعت بعد ١١ آذار. فقد تم تأسيس لجنة السلام بعد مضي اسبوعين، وقامت هذه الهيئة بحل المسائل الفنية وضمت الجنرال سعدون غيدان (عضو مجلس قيادة الثورة) ومحافظا أربيل وكركوك، وثلاثة من أعضاء المكتب السياسي (بما فيهم نوري شاويس والد رئيس برلمان كوردستان الحالي). وأصبحت لدى الحزب الديمقراطي الكوردستاني امكانية العمل بحرية في شتى أرجاء العراق. وحضر وفد رسمي من حزب البعث مؤتمر الحزب الدوري الذي سرعان ما انعقد بعد تلك الاتفاقية. وانضم وزراء كورد إلى الحكومة العراقية، وأنشئت أكاديمية كوردية في بغداد، وجامعة كوردية في صلاح الدين بلغ عدد طلابها ألف طالب وظهرت من جديد البرامج والكتب الكوردية في المدارس. وأخذ الأدب الكوردي طريقه إلى النشر. إلا أن المشكلة الأولى التي برزت كانت حول المسائل المتعلقة بنائب الرئيس. وقام البارزاني بترشيح حبيب كريم السكرتير العام الجديد للجزب الديمقراطي الكوردستاني. غير أن أحمد حسن البكر رفضه بذريعة أنه ايراني (أي كوردي- شيعي) وفضلاً عن ذلك اقترح البارزاني على أن نائب- الرئيس سيكون شخصاً واحداً، أما البكر فقد اقترح اثنان، أحدهما سيكون من الكورد ومن الطبيعي أن هذه الصيغة كانت تقلل تماماً أهمية هذا المنصب.

وبرزت قضايا أكثر أهمية، عندما راحوا يحددون منطقة الحكم الذاتي، فلم يقم النظام بإعاقة عودة اللاجئين وذلك لأجل تغيير التوازن العرقي أو التركيب الديموغرافي للمناطق النفطية وعدم السماح لها بالانضمام إلى كوردستان (بدأ قاسم بتهجير جماعي للكورد من ضواحي كركوك) وحسب، بل أنه قام باجراءات تطهير حاسمة. وهكذا قامت الحكومة بطرد مئات الألاف من الكورد- الفيليين إلى ايران (الشيعة) بدعوى أنهم فرس، وراح العرب يستوطنون في أماكن الكورد، حيث برر صدام ذلك ببساطة حين قال: "إنه مشروع تماماً أن ينتقل أبناء القومية الكبرى (العرب) إلى أراضي المجموعة القومية الصغرى (الكورد) ويعيشوا عليها والتي تتمتع بحكم ذاتي. وان أية مقاومة لتطور الأحداث هذه ما هي الا انفصالية محضة". وعلاووة على ذلك راحت الحكومة تعد في الخفاء لأعمال التصفية الجسدية للقادة الكورد. ففي كانون الأول عام ١٩٧٠ نجا ادريس نجل مصطفى البارزاني من محاولة اغتيال، وفي أيلول عام ١٩٧١ كاد البارزاني ان يلقي حتفه. لقد وصل في ذلك اليوم وفد من رجالات الدين ذوي النفوذ إلى مقر البارزاني في حاجي عمران (بالقرب من الحدود الإيرانية). وأرادت بغداد أن تستخدم هؤلاء وسطاءً في المفاوضات مع البارزاني، وبعد تبادل كلمات الترحيب أخذ المشاركون في اللقاء أماكنهم وراح حارس البارزاني يغطي الطاولة، فسمع دوي انفجار أعقبه آخر. وقد نجا البارزاني من محاولة الاغتيال هذه، لأن الحارس الشاب الذي كان يغطي الطاولة ظهر في هذا الأثناء بين البارزاني والملالي، فقتل الحارس فوراً، كما قتل حارس آخر، وأصيب ١٦ حارساً بجراح. أما البارزاني فقد أصيب بخدوش في يده فقام أفراد الحرس بقتل جميع الملالي باستثناء واحد كان معروفاً في بارزان. وفي أثناء استجوابه تبين مايلي: قبيل اللقاء سلم ناظم كزار رئيس مخابرات صدام الملالي أجهزة التسجيل وأمرهم بتسجيل الحديث مع البارزاني سراً. وظهر أن أجهزة التسجيل كانت مفخخة بالقنابل. ولما حاول اثنان منهما تشغيل الأجهزة التي كانت بحوزتهما تفجرت. وردَّ البارزاني على ذلك بعبارات نبوئية قائلاً: "العراق دولة بوليسية يحكمها صدام حسين، الذي لديه جنون العظمة والطموح الفائض إلى السلطة، لقد أزاح حردان وعماش، وحاول ازاحتي وسيعزل البكر".

لقد اعتاد البارزاني على دسائس الاعداء منذ زمن بعيد، لكن أسوأ شئ بالنسبة له في هذه القضية، تبين أن نجله الأكبر عبيدالله قد كان له ضلع في تلك المؤامرة. كان عبيدالله

نجل البارزاني، من زوجته الاولى، على خلاف مع والده واخوته غير الأشقاء من زوجته الزيبارية، وتبين أن صدام قد وعده بقيادة منطقة الحكم الذاتي فوافق عبيدالله على ضم الرجل الديني من بارزان إلى المفاوضات (الأمر الذي كان يعزز ثقة البارزاني بالوفد) وتم اعتقال عبيدالله، لكنه تمكن من الفرار ليلاً رغم البحث الشديد عنه، وسافر إلى بغداد، وفيما بعد عينه صدام محافظاً لأربيل.

مواجهة جديدة

كما سبق لنا أن أشرنا، إلى أن صدام والبارزاني حاولا استغلال الوقت المخصص لإعداد "قانون الحكم الذاتي لصالحهما، وهذا ما أفلح فيه الاثنان والى حدٍ معلوم. وبعد أن وطد صدام حسين مواقعه في الحزب، ووضع الحزب في البلاد، قرر أن يضمن دعم الاتحاد السوفياتي له. ففي شباط عام ١٩٧٢ قام بزيارة رسمية إلى موسكو، وفي أوائل نيسان وصل كوسيغين إلى بغداد رداً على زيارته، ووقع مع صدام "معاهدة الصداقة والتعاون"، التي نصت على اقامة تعاون واسع بين البلدين بما في ذلك التعاون العسكري. ومنذ ذلك الحين أصبح النظام البعثي في بغداد في عداد "الأنظمة التقدمية" حسب رؤية موسكو، كما قام صدام بضم وزيرين شيوعيين إلى الحكومة.

ومن المكاسب الأخرى التي كانت حصيلة التعاول مع الاتحاد السوفياتي، يبدو أن صدام كان يضع في حسبانه أن موسكو، التي لها هذا التأثير القوي على البارزاني بوسعها استمالته في الاتجاه الضروري لصدام. وفي الواقع أرسلت موسكو، عقب تأزيم العلاقات بين البارزاني وصدام، ي. م بريماكوف كي يقوم بدور الوسيط بين الكورد وبغداد. غير أن بريماكوف لم يحقق شيئاً من مهمته. وعندما علم البارزاني بالتقارب الحاصل بين موسكو وبغداد، انعطف بدوره نحو التحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية. وواستجاب الأمريكيون بسرور، وبالنتيجة صادق ريتشارد نيكسون في أيار عام ١٩٧٢ على خطة المخابرات الأمريكية، التي قضت بتسليم ١٦ مليون دولار إلى البارزاني خلال ثلاث سنوات.

في ذلك العهد أعلن صدام، وهو يحظي بدعم الاتحاد السوفياتي، عن تاميم الصناعة النفطية (أوائل حزيران عام ١٩٧٢). لقد وفر له هذا الاجراء مبالغ مالية طائلة، لكنه أثار غضب البارزاني (الذي طالب بمشاركة الكورد في أرباح النفط المستخرج من أراضيهم)

وجعل الأمريكيين يزيدون من دعمهم للبارزاني. وصرح البارزاني قائلاً: "الأراضي الكوردية غنية بالنفط، فهو لنا وبالتالي عندما نستولي عليه لايعدو ذلك عملاً عدوانياً".

قام صدام حسين في تلك الفترة بتسليح الجيش العراقي بمساعدة واردات النفط والتوريدات والقروض السوفياتية، وقد اشترى لغاية عام ١٩٧٥ أسلحة بما يقارب من مليار ونصف مليار دولار، إذ ضاعف عدد الدبابات من ٦٠٠ دبابة إلى ١٢٠٠ دبابة، وضاعف عدد المصفحات من ٦٠٠ إلى ١٣٠٠ مصفحة، وعدد الطائرات من ٢٢٩ طائرة إلى ٢٤٥ طائرة. وأصبح الجيش العراقي يمثل مشهداً آخر يختلف عما كان عليه في أيام قاسم وعارف.

وهكذا فان ما جرى أشبه بلعبة الشطرنج، فقد كانت بغداد تستند في نزاعها الوشيك على مساعدة الاتحاد السوفياتي، في حين أن البارزاني كان يعوّل على مساعدة أمريكا وايران واسرائيل.

وفي هذه الظروف تجدد في عام ١٩٧٣ الاشتباكات في كوردستان، ولم تكن هذه الاشتباكات "حرباً" كاملة، اذ أن الهدنة الشكلية مازالت قائمة، وتواصلت المفاوضات حول الحكم الذاتي. لقد اتهم البارزاني الحكومة في قيامها بخرق اتفاقية ١١ آذار وفي تعريب المناطق الكوردية ورفض الحزب الديمقراطي الكوردستاني الانضمام إلى الجبهة القومية الوطنية التي شكلها صدام وتحت قيادة البعث، على أساس أن أكثرية الاصوات المقررة في الجبهة تعود للبعثيين. وراح البارزاني يدلي بتصريحات حازمة ويشيد بدعم أمريكا وإيران له. ففي عام ١٩٧٣ صرح في مقابلة له مع صحيفة "واشنطن بوست" بشأن المواقع النفطية في كركوك قائلاً: "نحن على استعداد للقيام بكل ما تريده أمريكا اذا ما قامت بحمايتنا من الذئاب، واذا ما كانت هذه الحماية آمنة بصورة كافية. وبوسعنا السيطرة على المواقع النفطية في كركوك ومنحها إلى الشركات الأمريكية لاستثمارها".

شارفت مدة السنوات الاربع على نهايتها، ولم يتم وضع بعد أية اتفاقية محددة حول الحكم الذاتي. ففي آذار عام ١٩٧٣ عرض البارزاني خطة الحكم الذاتي على بغداد، فرفضتها الحكومة رفضاً قاطعاً. وفي أيلول عرضت الحكومة خطتها وقوبلت بالرفض من جانب الحزب الديمقراطي الكوردستاني. وفي كانون الثاني استؤنفت المفاوضات وسرعان ما دخلت طريقاً مسدوداً. وأخيراً قامت الحكومة دون تنسيق يذكر مع الكورد بنشر

"القانون رقم ٩٣"، وحسب القانون كان الحكم الذاتي لكوردستان يضم محافظات دهوك والسليمانية وأربيل/ لكن بدون كركوك وخانقين وسنجار التي يسكنها الكورد) وأصبحت مدينة أربيل عاصمة منطقة الحكم الذاتي. وكان المجلسان التنفيذي والتشريعي المنتخبيين من السكان هيئات الحكم الذاتي. وتعد اللغة الكوردية في منطقة الحكم الذاتي لغة رسمية إلى جانب اللغة العربية. ففي المدارس الكوردية يجري التدريس باللغة الكوردية إضافة إلى تعليم العربية، وفي المدارس العربية فإن الدراسة تكون باللغة العربية إلى جانب تعليم الكوردية.

الكارثة

كان القانون رقم ٩٣ أول إجراء تشريعي في التاريخ يعترف بالحكم الذاتي للكورد. ومع ذلك أثار رد فعل سلبي شديد في كوردستان بوجه عام، سوى جزء صغير من الحزب الديمقراطي الكوردستاني (بقيادة عزيز عقراوي) عبر عن استعداده لدعمه والتعاون مع الحكم الذاتي الجديد. وفي الواقع ظهر أن جزءاً كبيراً من كوردستان خارج الحكم الذاتي بما فيها المناطق النفطية. بالطبع كان هذا "شيئاً ما على الاقل"، لكن البارزاني لم يكن في ربيع عام ١٩٧٤ بما لديه من قوات البيشمركه والبالغ عددها ١٠ آلاف، ومن مدفعية ثقيلة وصواريخ أرض- جو وامكانيات مادية وصلات دبلوماسية في وضع يسمح له بأن يقبل مع الامتنان أية صدقة من صدقات الحكومة العراقية. وكان يستند في موقفه هذا على المزاج الجماهيري. لقد شعر الكورد بعد تلك الآمال التي بعثها بيان ١١ آذار بأنهم مخدوعين ومنهوبين.

اندلعت الانتفاضة دونما ابطاء، وتقدم الجيش العراقي الذي كان يضم ١٥٠ ألف عسكري والمزود بأحدث الأسلحة السوفياتية في عمق كوردستان. وقامت الطائرات السوفياتية الأن بالقاء قنابل النابالم على القرى الكوردية، والتي (انتشرت هذه الاشاعات بين الكورد على الأقل) كان يقودها طيارون سوفيات. وكان هذا الهجوم أوسع نطاقاً وتنظيماً من الهجمات السابقة. ولقد قام صدام بتدمير كل ما كان يصادفه على طريقه وكان أميناً لخطته وهي: "خنق كوردستان بسيول اللاجئين". واندفعت حشود غفيرة من الكورد إلى تركيا وإيران خشية الإبادة الجماعية (الجينوسايد). وفي شهر آذار من العام الثاني وصل عدد اللاجئين الكورد في ايران وحدها إلى ١٧٠ ألف لاجئ.

كانت إيران تقدم دعماً فعالاً للبارزاني. وكما يتذكر شهود عيان كانت قوافل السيارات الايرانية من طراز زيل تسير في الليالي وهي تعبر حاجي عمران محملة بالاسلحة والذخيرة واخذ الجنود الإيرانيون يظهرون في كوردستان، ففي بادئ الأمر كانوا يؤلفون قطعات غير كبيرة العدد من جنود المدفعية المضادة للطائرات والمدفعية وغيرهم وكانوا يتحركون في سرية تامة ويرتدون الزي الكوردي، لكن مع مرور الوقت تجرأت ايران عندما قامت في كانون الثاني عام ١٩٧٥ بتمركز فوجين من قواتها في الأراضي العراقية. كان عدد البيشمركه في ذلك الوقت يصل إلى ٦٠ ألف شخص وعدد البوليس ٤٣ ألف. وفي كوردستان كان عدد الضباط يصل إلى ٢٧، و ٩٨ طبيباً و٢٢٠ مهندساً و ٦٠ مدرساً في المنشآت التعليمية العليا، و ٢١٢٠ معلماً ابتدائياً وكانت ميزانية البارزاني تبلغ ٧٥ مليون دولار. فقد كان جيشاً جديداً يحارب البارزاني، أكثر قوة من ذلك الجيش الذي كان يحاربه فيما مضى، لكن صدام أيضاً لم يواجه قوات الأنصار بل جيشاً كوردياً نظامياً. أصبحت الحرب حرباً نظامية لها طابع الجبهة. وما قام به صدام من شراء الأسلحة لم يساعده في شئ، فقد تم احباط هجومه الصيفي الذي جاء بعد نجاحات قصيرة وعابرة، وحسب بيان الحزب الديمقراطي الكوردستاني فقد الجيش العراقي خلال شهرين من المعارك ١٨٠٠ عسكري بين قتيل وجريح و ٢٤ أسيراً و ٢٠ دبابة و ٩ طائرات و ٣ طائرات هيليوكوبتر، وبلغت خسائر الكورد ٨٣٢ بين قتيل وجريح. ولقد كلف عام من الحرب صدام (كما اعترف هو فيما بعد) ٦٠ ألف عسكري بين قتيل وجريح و ٤ مليار دولار، ونفذت جميع احتياطات الذخيرة، وفي آذار عام ١٩٧٥ وحسب اعتراف صدام لم يبق لدى سلاح الطيران العراقي سوى ثلاثة قنابل ليحارب الكورد. خسر صدام الحرب خسارة تامة عملياً، لكن ثمار النصر لم يجنها الكورد, كتب ج. أبدايك يقول: "بما أن الجيش العراقي كان على حافة الانهيار، وتضرر الاقتصاد بشكل خطير، وكان الشاه الايراني يمسك عملياً بخناق بغداد، ولو أراد كان بوسعه تقسيم العراق، ولو أراد كان بوسعه قلب نظام البعث أيضاً. لكن من حسن حظ صدام وأعوانه أن الشاه لم يكن يبحث للاطاحة بهم، كما كان حلفاؤه من الاصوليين الذين استلموا مقاليد السلطة في ايران بعد خمس سنوات. فكل ما

كان الشاه يريده هو نزع اعتراف صريح من العراق بالهيمنة الايرانية الجيوسياسية على الخليج، الأمر الذي كان يحتاج إلى إعادة النظر القانونية لقواعد الملاحة في شط العرب، وغيره من التنازلات الاقليمية الصغيرة. وفضلاً عن ذلك كان الشاه يستغل الكورد أداة لغرض إرادته على العراق. فلم تكن لديه رغبة قط في السماح للكورد أن يصبحوا أقويا جداً، ذلك أن إيران كانت تعاني من عبء مشكلة الحكم الذاتي للكورد الايرانيين لا سيما أن كوردستان المستقلة لم تكن تنذر بأي خير لها.

أدرك صدام ذلك ورمى بالعلم الأبيض صوب إيران. ففي تشرين الأول عام ١٩٧٤ جرى لقاء رؤساء الدول العربية في الرباط، ورتب الملك الاردني حسين لقاءً بين الممثلين الايرانيين والعراقيين. وهكذا بدأت المفاوضات السرية بين دولتين اقليميتين كبيرتين. وقام أنور السادات رئيس مصر بدور الوسيط بين الشاه وصدام، فنقل في أثناء لقائه مع الشاه طلب صدام إليه بوقف مساعدة الكورد، ومن ثم في بغداد نقل شروط الشاه إلى صدام، وأخيراً في آذار علم ١٩٧٥ وخلال اجتماع منظمة الأوبك في الجزائر جمع الرئيس الجزائري هوارى بو مدين بين الشاه وصدام. وفي ٦ آذار عقدت بينهما اتفاقية الجزائر، ونال الشاه ما كان يرغبه أي إعادة النظر في قواعد الملاحة في شط العرب وتلبية جميع دعاوى ايران الحدودية، لكن الشاه تعهد مقابل ذلك وقف دعمه للبارزاني.

بعد عودة الشاه إلى بلاده دعا البارزاني اليه (١٢ آذار). وفي اللقاء القدري الذي جرى في قصر نهروان في طهران اعلن الشاه وبشئ من الاحراج، كما يبدو، قائلاً:

- اتفقت مع العراق لأجل مصلحة شعبي وبلادي، فالحفاظ على السلام مع الدول العربية يرتدي أهمية كبيرة، وحتى الدول الغربية لايمكنها تجاهل ذلك.

رد البارزاني بدبلوماسية قائلاً:

- أرحب بهذه الاتفاقية إن كانت تجلب نفعاً لايران، وهذا يعني أنها نافعة للكورد

ثم راح الشاه يتحدث عن الموضوع الرئيسي وبجرأة:

- ساعدناكم بالمال والسلاح، لكنكم لم تتمكنوا من تحقيق نجاح واضح خلال عام..

لم يعلن الشاه عن أنه سيوقف كل مساعدة يقدمها للبارزاني وحسب، بل هدد بأنه سيغلق الحدود حال استمرار الحرب، وسوف يقدم المساعدة للعراق طبقاً للتعهدات

الجديدة. أما فيما يتعلق بالبارزاني وقواته البيشمركه فانهما أمام خيارين: أما البقاء في إيران كلاجئين دون أن يحق لهم ممارسة النشاط السياسي، وإما العودة إلى العراق. أعلنت السلطات العراقية العفو عن كل من شارك في الثورة. وانتهت المقابلة الرسمية عندما قال له الشاه: "لقد عشتم في الاتحاد السوفياتي ١٢ عاماً، وبوسعكم العيش في إيران وربما يتغير الموقف آنذاك" أصيب البارزاني بصدمة شديدة وعاد إلى كوردستان وهو في حيرة من أمره، فجمع أعضاء اللجنة المركزية للحزب والأركان على عجل وأبلغهم النبأ القاتل وطرح عليهم السؤال الآتي وهو ما ينبغي عمله فيما بعد: عرضت الأقلية طلب اللجوء في ايران أو الاستسلام حسب العفو، أما الاكثرية فقد أصرت على مواصلة النضال مشيرة إلى أن لدى الحزب الديمقراطي الكوردستاني ١٠٠ ألف مقاتل والاحتياطات من السلاح والمؤن الغذائية لمدة عامين وموارد مالية كبيرة جداً وشاطر البارزاني أصحاب هذا الرأي أيضاً، وتقرر انشاء لجنتين لقيادة الثورة إحداهما في منطقة سوران والثانية في منطقة بهدينان وعلى رأسيهما نجلا مصطفى البارزاني إدريس ومسعود. وبعد أن انتهى الاجتماع من أعماله كتب البارزاني رسالة إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية نيكسون ووزير خارجية كيسنجر، جاء فيها: "إن الوضع الجديد الذي نشأ عندنا ويمر فيه شعبنا ومقاتلونا هو وضع يخيم عليه اليأس والقنوط. فشعبنا سيتعرض لخيانة كبيرة والمسألة بالنسبة لنا هي مسألة حياة أو موت. لا أرغب في أن أدخل التفاصيل، إنما أرغب أن أطلب منكم تنفيذ وعودكم لشعبنا. اننا نحتاج إلى قراركم النبيل بغية الحفاظ على حياتنا وحماية عائلاتنا والحفاظ على عرضنا وكرامتنا". لم يتسلم مصطفى البارزاني رداً على رسالته، وفيما بعد أعلن كيسنجر وبوقاحة حول هذا الشأن، بأن الولايات المتحدة الأمريكية لا تعتبر نفسها مرتبطة بتعهدات، تم تقديمها بطريقة غير رسمية وعبر عملاء المخابرات.

بينما واصل الجيش العراقي هجومه، وقامت ايران وتركيا بإغلاق حدودها. وقد تم تسليم عدد من الأشخاص، الذين حاولوا ايجاد ملجأ لهم في تركيا، إلى العراقيين الذين قاموا بإعدامهم فوراً. لقد أثار هذا النبأ الذعر في نفوس الناس، وتجمع عشرات الالاف من اللاجئين في الجبال، ونفذت المؤن. وفي ١٥ آذار وصل ممثل المخابرات الايرانية السافاك إلى حاجي عمران وقدم إلى البارزاني انذاراً يتضمن وقفاً للكفاح المسلح وإلا هدده بتدخل

إيران عسكرياً، فوجد البارزاني نفسه في عزلة تامة. وتوجه بالراديو إلى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وهو في حالة يأس شديد، مستعطفاً إياها بالضغط على ايران. وفي ١٩ آذار وجه عرضاً سلمياً إلى البكر، فكان رد العراقيين الاستسلام دون قيد أو شرط مع إعطائه وعداً بالعفو. ولم يكن له أن يفعل شيئاً. وقام البارزاني ثانية بجمع القيادة معلناً عن قراره بوقف الكفاح المسلح وطلب اللجوء إلى ايران.

كان الموقف في الجبهات لم يبدو كارثياً تماماً، فكانت قطعات البيشمركه في مواقعها وتم توفير كل ما تحتاجه ولهذا السبب فان البرقيةالمشفرة من الأركان العامة والقاضية بتدمير المستودعات والأسلحة الثقيلة والبدء بالانسحاب دوت كالرعد في سماء صافية. في البداية قرروا أن البارزاني وقع اتفاقية سلمية، إلا أن اذاعة بغداد بدعواتها إلى الاستسلام ووعدها بالعفو قد بددت هذه الأوهام سريعاً. لم يفهم أحد شئ، إلا أن الجميع نفذوا الأمر.

وفتحت ايران حدودها هذه المرة واندفعت جموع الناس اليها وهي تبحث عن نجاة من جنود صدام, واختفت البيشمركة أو أنها باعت سلاحها بثمن زهيد واتجهت صوب المراكز الحدودية، ومن أفرادها من أقدم على الانتحار وهو في حالة يأس شديد. كان ذلك عاقبة حقيقية وهجرة كبيرة. فقد انتقل ٢٠٠ ألف شخص إلى ايران آنذاك، وفي ٢٢ آذار غادر الملا مصطفى البارزاني الأراضي العراقية، وفي ١٠ نيسان وصل جميع اعضاء القيادة الحزبية إليها، لقد انتهت تلك الملحمة الرائعة التي بدأت في أيلول عام ١٩٦١.

السنوات الأخيرة

انهار الحزب الديمقراطي الكوردستاني عملياً، فقدم مصطفى البارزاني، الذي تقدم به السن كثيراً وهو في حالة إحباط معنوي وجسدي، استقالته من منصب قائد الحزب، وعاش في مدينة نيهاد الحدودية بادئ الأمر، ومن ثم في كيراج في ضاحية طهران وفي دار قدم الشاه له (وبجانبه امتلك دوراً لأتباعه المقربين). وفي مقابلة له مع الصحفي المصري محمد حسنين الهيكل قال: "لم تنته الثورة الكوردية. لقد أخذنا الآن وقتاً- خارجياً كي نستعيد أنفاسنا. لقد انتهى دوري، لكن الشعب الكوردي باق وبوسعه أن يختار قائده، الذي سيواصل المقاومة".

وكما يحدث مع الخاسرين دائماً، انهالت عليه الاتهامات من جميع الجهات، وكادوا أن يتهموه بالخيانة، وفي أنه أوقف الثورة وهو يمتلك (كما زعموا) جميع وسائل مواصلة الكفاح وأضافوا إلى ذلك بيانات تقول بأن البارزاني قومي متخلف لم يفهم متطلبات الايديولوجيا الماركسية- اللينينية) التقدمية، ولهذا السبب لم يستطيع أن يقود الثورة الكوردية إلى النصر. وينبغي الأشارة إلى أن الخيانة من جانب الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت قد ضاعفت وبشدة تأثير الايديولوجيا اليسارية، وكانت الماوية موضة في تلك المرحلة. وتزعم الطالباني الساخطين من حوله وأسس الاتحاد الوطني الكوردستاني.

وفي هذه الأثناء اشتدت آلام البارزاني، التي كانت تثير قلقه منذ أن كان في العراق، لكنه كان يخفي ذلك وبامعان. فأرسلته أسرته وأتباعه إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإجراء الفحوصات، لم يكن التشخيص مرضياً وتبين أنه مصاب بمرض السرطان.

وفي الوقت الذي كان يجري فيه البارزاني الفحوصات الطبية في المستشفى الأمريكي مايو، انعقد في برلين كونفرانس حزبي معلناً عن إنشاء قيادة مؤقتة للجزب الديمقراطي الكوردستاني (آب ١٩٧٦) وانتخب البارزاني رئيساً للجزب مرة أخرى، وسامي عبد الرحمن سكرتيراً أولاً له (نائب رئيس وزراء كوردستان حالياً).

كانت تصل أنباءً قاتمة من العراق، فقد أطلق صدام حسين العنان لحرب ابادة حقيقية ضد الكورد بعد أن شكل مايسمى "بالحكم الذاتي". وجرى تدمير القرى الكوردية خارج منطقة "الحكم الذاتي" واحدة تلو الأخرى بالدبابات والبلدوزرات. (تم تدمير ١٢٢٢ قرية من عام ١٩٧٤ ولغاية ١٩٧٨) وتم توطين سكانها في جنوب العراق في مايسمى بالتجمعات السكنية، التي كانت تحت رقابة بوليسية صارمة. فقد منع الاتصال بين العائلات وحظر مغادرة "التجمع" دون إذن... وأغلقت الأكاديمية الكوردية، وتم نقل الجامعة الكوردية إلى أربيل، وأصبح كل شئ يفقد ملامحه الكوردية شيئاً فشيئاً، وتحولت المدارس في كوردستان إلى اللغة العربية ثانية. وفي مايتعلق "بهيئات الحكم الذاتي" فإنها كانت من الموظفين الذين تم تعينهم من النظام وكانوا يؤدون دوراً تمثيلياً محضاً.

بينما ظل البارزاني في الولايات المتحدة الأمريكية، واستفحل المرض، وكانت أفكاره تشده دائماً إلى أرض الوطن، فقد كان يستغل كل مناسبة كي يلتقي مع رجالات الصحافة والسياسة الامريكية ويتحدث لهم عن مآساة الكورد. وفي هذه الفترة تم انتخاب جيمي

كارتر رئيساً جديداً لأمريكا فوجه له البارزاني حالاً رسالة اليه، وبعد أن قدم له التهاني بمناسبة تسلمه منصب الرئيس كتب يقول والألم يعتصر قلبه: "سيادة الرئيس، لسنا ضد الاتفاقية العراقية- الايرانية. لكن هل كانت هناك ثمة ضرورة في أن يصبح الكورد ضحاياها؟ لقد صدقنا، نحن الكورد، وعود الولايات المتحدة الأمريكية وايران، وحاربنا ضد الطغمة الحاكمة في العراق. اين تلك الوعود، التي قدمت باسم الحرية؟ هل في معسكرات اللاجئين في ايران؟ أم في جنوب العراق حيث تم ترحيل الكورد رغماً عنهم؟ أم في تشتت الكورد في أوروبا؟ أم في التفريق بين الاسر وبين الأزواج والأطفال؟ أم في أعمال التعذيب المميتة؟ وهل بوسع المجتمع الدولي الذي يحمل الحرية والاستقلال والديمعراطية إلى شعوب الأرض قاطبة أن يبقى لامبالياً تجاه اخفاق الحرية الكوردية وإزاء كل مايجرى الآن ضد الكورد؟ هل له أن يظل مكتوفي اليدين دون تقديم أية مبادرة؟ ويورد البارزاني اقتباساً من جيفرسون قائلاً: "ربما لانفكر على نحو واسع، كما يفكر السيد جيفرسون، لكننا نتحدث عن الحكم الذاتي وحده. لقد حاربنا بسبب ذلك، وقضينا نحبنا بسبب ذلك أيضاً، وسوف نواصل النضال لأجل ذلك ونتذكر ذلك دائماً. لقد قدمت أمريكا الوعود للكورد، وأرجو من الحكومة الجديدة تنفيذها".

لم يرد كارتر على رسالة البارزاني، الذي كان يعاني كثيراً، فراح يكتب له ثانية ويطلب من الرئيس استقباله ويبحث معه المسألة الكوردية، لكنه لم يتلق الرد ثانية.

وفي عام ١٩٧٨ بات واضحاً ان النهاية أصبحت قاب قوسين أو أدنى، بيد أنه لم يرغب الموت في الغربة، فقد كان يريد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو على أرض الوطن.

اندلعت الثورة في إيران آنذاك، وظهر أن أفاقاً جديدة فتحت أمام الكورد فقد دعا آية الله الخميني، الذي كان في عداء شديد مع نظام بغداد، البارزاني إلى طهران للقاء به. أصبح البارزاني أكثر حيويةً ونشاطاً وتم تحديد موعد السفر في ٥ آذار، لكن لم يقدر له العودة إلى الشرق الأوسط، فقد توفي اثر نوبةً قلبية في آذار عام ١٩٧٩.

لبست كوردستان ثوب الحداد، واستقبلت جموع غفيرة تعد بمئات الالاف جثمان البطل عندما نقلوه إلى هناك، حيث كان يرغب أن يدفن في شنو (كوردستان ايران) حسب وصيته الأخيرة.

بينما استمرت مآسات الشعب الكوردي، ففي تموز عام ١٩٨٣ حاصر الجيش العراقي بارزان والقرى المجاورة لها. ونقلوا جميع الرجال الذين كانت أعمارهم أكثر من ١٦ عاماً في سيارات والى مكان مجهول، حيث لم يراهم أحد بعد ذلك المشهد المأساوي. وحسب جميع المؤشرات فقد تم رميهم بالرصاص. كما فقد الآلاف دون أن يعرف أحد آثارهم. وفيما يتعلق بالنساء والأطفال فقد أرسلوا إلى معسكرات تقع في جنوبي العراق. وقامت السلطات العراقية بدمير دور السكن وقتل الماشية وصب آبار مياه الشرب والينابيع بالاسمنت. وقد دمر العراقيون وباحكام خاص "عش" العشيرة –بارزان، هذه العشيرة التي لاتخضع لسلطة أحد. وكان ذلك أول اجراء العمليات "الانفال" الشهيرة، التي راح ضحيتها ٢٠٠ ألف كوردي. إلا أن الزمن يجري وراح القدر يلتفت بوجهه صوب الكورد، فلم تذهب عشرات السنين من الكفاح والجهود والضحايا والدماء هباءً منثوراً، ففي ١٩٩١ تمكن أنصار البارزاني وورثته من اقامة كوردستان الحرة وبفضل تدخل الدول الغربية. وفي ٦ تشرين الثاني عام ١٩٩٣ رقد رفات الملا مصطفى البارزاني رقاد أبدياً في بارزان، في كوردستان الحرة من الأن فصاعداً.

مصطفى البارزاني
«بمناسبة الذكرى المئوية لميلاده»

م. س. لازاريف

قدم الشعب الكوردي المضطهد والمجزأ، خلال نضاله التحرري الذي دام قروناً كثيرة عدداً غير قليل من القادة والأبطال البارزين والمناضلين في سبيل القضية العادلة. فلم يعد اسم مصطفى البارزاني، الذي يحتفل الشعب الكوردي كله وأصدقاءه في هذا العام بالذكرى المئوية ليلاده، ملكاً للتاريخ وحسب، بل وللعصر الذي نعيش فيه. ذلك أنه يرمز ويجسد تلك العزيمة الجبارة، وتلك الروح العاشقة للحرية ولمقاومة مختلف أشكال الأضطهاد والظلم، والاستعداد لمقارعة المضطهدين حتى الرمق الأخير.

لقد حظيَ إسم البارزاني بشهرة واسعة في كوردستان قبل فترة قصيرة من اندلاع الحرب العالمية الأولى. وجاء هذا الاسم نسبةً إلى قرية بارزان، الواقعة على ضفة نهر الزاب الكبير في شمالي العراق (ولاية الموصل، قضاء بيركيران في الامبراطورية العثمانية سابقاً) فهنا المركز الرئيس لعشيرة زيبار (مراراً ما كانوا يسمونه بارزان أيضاً) التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ الكورد. فقد تخرج منه الملالي والفقهاء، وكانوا يطلقون إسم الشيوخ أو الملالي على ممثلي الأسرة الأكثر شهرة لما لهم من احترام خاص بين الناس، وليس بسبب تأديتهم لشعائر دينية، أو لأنهم كانوا أصحاب ثروة كبيرة. فهم كانوا ينتمون إلى الملاكين الصغار وفق المعايير العامة المتبعة في ذلك العهد. وكان الشيخ عبد السلام البارزاني الأخ الأكبر لكل من أحمد ومصطفى اللذين اشتهرا فيما بعد، أول من دخل إلى تاريخ الحركة الوطنية- التحررية الكوردية وكثيراً ماكانوا يسمون مصطفى البارزاني، الملا مصطفى البارزاني، لكن الجزء الأول من اسمه زال فيما بعد. كان الشيخ عبد السلام أول من رفع راية نضال الكورد التحرري في كوردستان الجنوبية ضد النير العثماني وذلك عقب ثورة

تركيا الفتاة عام ١٩٠٨- ١٩٠٩. ومنذ ذلك العهد أصبحت منطقة بارزان إحدى البؤر الرئيسية للمقاومة الكوردية في كوردستان، أما ممثلو أسرة البارزاني فقد كانوا يشغلون الأدوار الأولى في هذه الحركة. فقد ألقى الأتراك القبض على الشيخ عبد السلام البارزاني وأعدم في الموصل عام ١٩١٤، غير أن شقيقاه الأصغرين أحمد ومصطفى واصلا قضيته. برز الاثنان على الساحة السياسية وللمرة الأولى فور انتهاء الحرب العالمية الأولى، عندما كان العراق، الذي كان يحمل آنذاك التسمية التاريخية لميسوبوتاميا، ممثلاً من بريطانيا. وفي عام ١٩١٩ اتخذ أحمد ومصطفى البارزاني موقفاً مكشوفاً ضد المحتلين الانكليز. غير أن الشخصية الرئيسية التي وقفت ضد المحتلين الانكليز في المرحلة الجديدة للادارة البريطانية المباشرة التي فرضتها سلطة الانتداب (حتى أوائل عام ١٩٣٠) كانت شخصية الشيخ مجمود البرزنجي الحفيد زعيم الكورد في السليمانية.

تحولت قيادة الحركة الوطنية للكورد العراقيين في أثناء المرحلة الانتقالية في أعوام ١٩٣٠-١٩٣٢ إلى عشيرة بارزان، إلى الأخوين أحمد ومصطفى البارزاني وذلك عند إلغاء انتداب بريطانيا على العراق وإعلان استقلاله الشكلي. ففي البداية كان الشيخ أحمد هو الذي تزعم الحركة، غير أنه لم يتمتع بذلك النفوذ السياسي ولم يكن يمتلك الصفات الذهنية التي تؤهله للبقاء في قيادة الحركة فترة طويلة. وبعد مضي ما يقارب من عشرة أعوام تخلى عن مكانه لشقيقه الأصغر مصطفى.

لعبت الحرب العالمية الثانية دوراً هاماً في تاريخ العراق وفي تاريخ الحركة الكوردية الوطنية- التحررية، رغم أن الكوارث التي حلت بالعالم قد تجاوزت هذه البلاد بصورة أساسية، إذا لم يؤخذ بالحسبان الحرب الأنكلو- عراقية في أيار عام ١٩٤١، التي كانت قصيرة الأمد واستمرت ثلاثون يوماً وأصبح العراق، الذي كان يحتل موقفاً استراتيجياً مركزياً في الشرق الاوسط، ويمتلك احتياطات هائلة من النفط المستخرج والضروري جداً ولا سيما في زمن الحرب، موضوعاً لاهتمام حيوي من جانب الطرفين. فقد حاول "المحور" الفاشي، ألمانيا وايطاليا استغلال حركة التحررية الوطنية العربية والكوردية أيضاً لمصالحما، لكن محاولتهما باءت بفشل ذريع.

كما حاولت الدول الكبرى في التحالف المعادي لهتلر، والتي كان العراق وإيران قاعدتين أساسيتين لمؤخرة جيوشها في الشرق الأوسط، الاستناد على الأقليات القومية في هذين البلدين، وبما فيها على الكورد أيضاً، ولكن لأغراضها الخاصة، وحققت نجاحاً ما في هذا الشأن. وبصرف النظر عن الأهداف الحقيقية للدول العظمى في الشرق الأوسط، فقد تكون وضع للأقليات القومية في المنطقة وفر لها امكانية القيام بالانتفاضة بصورة مستقلة والدفاع عن مطاليبها الخاصة. وفي أثناء الحرب تحديداً سطع نجم مصطفى البارزاني في سماء المنطقة السياسي، إذ اظهر عن موهبته السياسية والاستراتيجية الحقيقية بعد أن اختار ظرفاً أكثر ملائمة للقيام بحركته، كان فيه أيدي الامبرياليين الأنكليز وأتباعهم من حكام بغداد أعداء الكورد الرئيسيين في وثاق. وقام آنذاك بعمل تمهيدي كبير بين صفوف القوميين المحليين. ففي ربيع عام ١٩٤٥ اندلعت الانتفاضة وشملت جزءاً كبيراً من كوردستان الجنوبية، فاضطرت بغداد على الدخول في مفاوضات، أو أوصياؤها الأنكليز فقد تريثوا وتجنبوا التدخل المباشر.

استقبل الكورد ومن كان يضطهدهم الهزيمة النكراء التي منيت بها الفاشية عام ١٩٤٥ بصورة مختلفة. فالكورد كانوا يعولون على تطبيق مبادئ الحرية والديمقراطية عليهم، التي أعلنتها "الامم المتحدة" مراراً خلال الحرب. أما الطرف الثاني فقد رأى، بوصفه منتصراً، أن بوسعه انتهاج السياسة التقليدية في المسألة الكولونيالية – القومية. وهذا ماقام به الانكليز، مقدمين مساعدة عسكرية مباشرة إلى ضيعتهم في العراق الجنرال نوري السعيد في قمع الانتفاضة بقيادة مصطفى البارزاني في صيف وخريف عام ١٩٤٥. لم تكن القوى متكافئة بين الطرفين وانسحب مصطفى البازاني مع أفراد عشيرته إلى الأراضي الايرانية، حيث تشكل بزعامة قاضي محمد قائد الحزب الديمقراطي في كوردستان ايران، الذي تاسس عام ١٩٤٥، مركز محلي للحركة الوطنية التحررية للكورد الايرانيين. وترأس مصطفى البارزاني القوات المسلحة في جمهورية مهاباد، التي استمرت طيلة عام ١٩٤٦ تقريباً، ومن ثم سقطت تحت ضغط الجندرمة والقوات الحكومية، التي حظيت بمساعدة مباشرة من انكلترا والولايات المتحدة الامريكية.

شكل قيام جمهورية مهاباد الكوردية في ايران، التي لم تدم طويلاً، مرحلة في سيرة حياة البارزاني من حيث أهميته (كان برتبة جنرال) وشخصية كوردية على نطاق واسع، حيث أطبقت شهرته الآفاق في جميع أجزاء كوردستان المقسمة، كما برز آنذاك وبوضوح تام عدداً من صفاته كالشجاعة الشخصية والمهارة العسكرية.

ستدخل مسيرة الانسحاب – البطولية للمناضلين واللاجئين من سكان كوردستان المسالمين بما فيهم النساء والأطفال وبقيادة مصطفى البارزاني إلى سفر التاريخ الكوردي في القرن العشرين. هذه المسيرة التي انطلقت من مهاباد صوب الشمال إلى الحدود السوفياتية، حيث تم احتجازهم في اراضي جمهورية اذربيجان السوفياتية. لقد كان الطريق الذي بلغ طوله ٤٠٠ كيلومتراً يمر عبر سلسلة جبال كوردستان الحدودية، وفي ظروف الشتاء القارس وفي أعالي الجبال. لقد برهن مصطفى البارزاني في هذه المسيرة من جديد على براعته كقائد عسكري وتكتيكي رائع وعلى أنه خبير له باع طويل في المناورات في ظروف حرب الجبال.

وفي ذلك الوقت لم تحن بعد حربه القادمة، أما الآن فقد كانت مصاعب من نوع آخر تنتظر الجنرال الكوردي. لقد مُنح البارزاني والبارزانيين حق اللجوء السياسي في الاتحاد السوفياتي، لكن تبين أن هذا اللجوء السياسي كان من نوع خاص فقد كان خلف أبواب موصدة ونوافذ ذات قضبان حديدية. في بادئ الامر كان مصطفى البارزاني في "ضيافة" م. د. باغيروف صنيعة ستالين وبيريا. لقد تعرض البارزانيون لمختلف أشكال الترصد والظلم والمضايقات من مختلف الانواع. والسبب كان يكمن في السخط الشديد الذي كانت السلطات السوفياتية تبديه نحو الحركة الكوردية منذ سنوات الحرب، اذ ان هذه السلطات كانت تظن ان الحركة الكوردية في ايران هي التي عرقلت الحركة الاذربيجانية التي كانت موسكو وباكو تناصرها بشكل خاص، وفي العراق كان يشك في أمرها على أنها تعمل بايعاز من الانكليز دون وجود أية ادلة على ذلك[1].

احتج البارزاني احتجاجاً شديداً على تلك المعاملة السيئة ازاء مواطنيه، الامر الذي أدى إلى تعرض المهاجرين – اللاجئين الكورد إلى اضطهاد جماعي، بحيث جرى نفيهم إلى مستوطنات خاصة في أوزبكستان، وظلوا هناك تحت رقابة صارمة إلى حين موت ستالين. عندئذٍ فقط استطاع البارزاني وأتباعه الحصول على حق اللجوء السيسي. فأقام مصطفى البارزاني في موسكو وفي وضع يتناسب ونفوذه الرفيع وخدماته التي أسداها للحركة الكوردية الوطنية – التحررية.

[1] - م. س. لازاريف. الاتحاد السوفياتي وكوردستان، مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم...، ١٩٩٥ صـ١١-١٣

وعلى هذا النحو كانت لدى مصطفى البارزاني خبرة متعددة الدلالات في تعامله مع السلطات السوفياتية، حيث كان هذا التعامل يتضمن جوانب حسنة وسيئة. ولا بد من القول، وهذا ما يشرفه، أنه رغم ما تلقاه من معاناة في المنفى فإنه لم يضمر شراً للبلاد التي وفرت له مآوى، وكان يفرق بين ما كانت تقوم به السلطات من أعمال التعسف التي اتسمت بطابع عابر وبين الخبرة التاريخية للعلاقات الكوردية – الروسية[2]، التي تتسم بالنسبة للكورد بطابع ايجابي في العهد السوفياتي. وبعد عودته إلى الوطن صرح البارزاني قائلاً: "عندما وصلنا إلى الاتحاد السوفياتي تلقينا دعماً ومساعدة متعددة الجوانب في هذه البلاد. وسنظل نحتفظ نحن الكورد الثائرون، الذين طردتنا الامبريالية من ديارنا، في ذاكرتنا دوماً بتلك الذكريات الدافئة عن وجودنا في الاتحاد السوفياتي، والشعور بالامتنان للشعب السوفياتي لما أبداه من جميل نحونا".

سرعان ما أدى قيام ثورة تموز عام ١٩٥٨، التي أطاحت بالنظام الملكي الموالي للغرب، وأقامت النظام الجمهوري بزعامة الضباط القوميين، إلى تأزيم المسألة الكوردية في البلاد تأزيماً شديداً، كما أنها غيرت مصير مصطفى البارزاني شخصياً تغييراً جذرياً. لقد كان آنذاك قائداً للكورد العراقيين يحظى باعتراف الجميع، وزعيماً لتنظيمهم الرئيسي الحزب الديمقراطي الكوردستاني الذي أعلن عن تأسيسه عام ١٩٤٦. ففي تشرين الاول عاد مصطفى البارزاني وأنصاره المقربين إلى ارض الوطن قادمين من المهجر. لقد مضى اثنا عشر عاماً من المنفى، وبدا أنه فتحت آفاق جديدة أمام الكورد العراقيين.

غير أن أماني الكورد العراقيين في أن النظام الجمهوري الجديد سيلبي طموحاتهم القومية لم تتحقق. فقد سيطرت ديكتاتورية العسكريين القوميين والتي وجدت تجسيداً لها في نظام الجنرال عبد الكريم قاسم، وذلك بعد ربيع قصير مؤقت للحرية والديمقراطية في العراق. وخلافاً لما أعلنته السلطة الجديدة عن حلول عهد الصداقة العربية- الكوردية فإن هذه التغيرات لم تؤد مطلقاً إلى حل المسألة الكوردية في البلاد، بل على العكس ساء عملياً وضع الكورد في العراق وإذا كان النظام الملكي المدعوم من الانكليز يقدم أحياناً بعض التنازلات للكورد (محاولاً إيجاد توازن بين القوى السياسية- الاثنية الثلاث الرئيسية في البلاد وهي: العرب- السنة، والعرب- الشيعة والكورد) فإن النهج

[2] - ش. خ. مفوي. المسألة الكوردية القومية في العراق في العصر الراهن، موسكو، ١٩٩١ صـ ١٥٧

الشوفيني الذي يسلكه النظام حالياً والذي يتمثل في إعطاء الأولوية للإيديولوجية العربية وسياستها وفي أقصى تجلياتها تطرفاً. وهذا ما مهد التربة لنشوب نزاع جديد بين القوميات في العراق.

وفي هذا الموقف لم يتمسك مصطفى البارزاني والحزب الديمقراطي الكوردستاني الذي يقوده، طويلاً بخطة التعاون مع السلطات الجديدة في بغداد وكانت القطيعة لا مفر منها لأسباب موضوعية وذاتية على حد سواء. وتنسب إلى هذه الأخيرة سمات كان الزعيم الكوردي يتحلى بها وأثرت على سلوكه السياسي، وهذه السمات هي: الاندفاعية، والصراحة، وعدم المساومة المقترنة بالاستعداد لاتخاذ موقف مبدئي صارم من أيه مسألة تتعلق بمصالح الشعب الكوردي. ان سلوك كهذا كان نموذجياً بالنسبة له في جميع المواقف المستجدة لحياته الحافلة بالاحداث، حياة مناضل في سبيل القضية الكوردية، قد أكسبه شهرة واسعة بين الجماهير الشعبية في كوردستان بأسرها، لم يبلغها قط أي زعيم كوردي آخر.

وفي أواخر عام ١٩٦٠ غادر مصطفى البارزاني بغداد، وكانت مغادرته الأخيرة للعاصمة العراقية، فقد انتقل إلى جبال كوردستان حيث موطنه الاصلي. وهناك اندلعت الثورة بقيادة الحزب الديمقراطي الكوردستاني في أيلول عام ١٩٦١، هذا الحزب الذي كان يقوده مصطفى البارزاني. كانت ثورة أيلول من أكبر الثورات الكوردية استمرارية ومصيرية بنتائجها، وجاءت رداً على الانتهاكات الدائمة للحكومة واستفزازاتها. لقد أزفت ساعة اختبار القوي لهذا الزعيم الكوردي البارز.

استمرت الثورة ما يقارب من ١٤ عاماً مع بعض الانقطاعات، ولعبت دوراً حاسماً في تاريخ الكورد في القرن العشرين، وفي السيرة السياسية لمصطفى البارزاني. وأحرز الثوار الذين كانوا يسمونهم "البيشمركة" انتصارات مؤثرة على الفور، اذ تمكنوا في العام الأول من اندلاع العمليات القتالية من فرض سيطرتهم على الجزء الاساسي من أراضي كوردستان باستثناء المراكز البعيدة والمدن الكبيرة وأظهر البارزاني من جديد عن موهبته الخارقة بوصفة قائداً عسكرياً كبيراً، ويتميز بعبقرية استراتيجية وتكتيكية كبيرة، إذ أسس جيشاً من مجموعة متفرقة من الأنصار لديه المقدرة على خوض الحرب.

ولم يكن الجانب السياسي لنشاطه الذي كان في غاية الصعوبة، أقل اهمية. لقد كانت امامه مهمة شاقة للغاية، والتي تكمن في تجاوز الرواسب العشائرية الكوردية القديمة,

ورص صفوف جميع السكان الكورد في العراق حول فكرة قومية شاملة واحدة هي فكرة حق تقرير المصير ونيل الحكم الذاتي أولاً وضمن إطار الدولة العراقية. لقد كان هذا — كما يقال- برنامج الحد الأدنى. الا ان نطاق تفكير مصطفى البارزاني السياسي كان أوسع بكثير من ذلك، فهو لم يكتف بالاطر السياسية للعراق، بل عمم على جميع البلدان التي يعيش الكورد فيها، على كوردستان كلها. أصبح نضال الكورد العراقيين تحت قيادته مثالاً لابناء جلدته في شتى أرجاء كوردستان المقسمة. وغدت كوردستان الجنوبية في النصف الثاني من القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين مهداً ومركزاً للاستقلال الكوردي.

وبهذا الشكل فإنه لمن البديهي عدَّ مصطفى البارزاني الشخصية المحورية في القيادة الساسية- العسكرية لحركة الكورد الوطنية التحررية بأسرها في الشرق الاوسط، وليس لحركة الكورد العراقيين. وليس من قبيل الصدفة أنه نشأت في الأربعينيات وفي السبعينيات (النصف الأول منها) أحزاب كوردية في ايران وفي تركيا وسوريا تحت التسمية ذاتها ولها برامج متشابهة مع برامج الجزب الديمقراطي الكوردستاني في العراق. لقد ظلت شهرته ونفوذه في المجتمع الكوردي في الدول الأربع التي تقسم كوردستان —راسخين- لا شك فيها.

والى جانب هذا كان لصعود مصطفى البارزاني قمم المجد الشعبي العام والاعتراف طويلاً وشاقاً، فهو قد ذاق بالمقدار ذاته مرارة الاخفاق وخيبة الأمل. فمن اليسير —طبعاً- أن نطلق الاحكام بعد أن تقع الواقعة، لكن خليق بنا ان نتذكر تلك الظروف الصعبة جداً التي عاش فيها وكافح. فالكورد الذين قادهم البارزاني، كانوا على مدى تاريخهم الطويل يواجهون خصوماً اكثر قوة. ورغم ذلك لم تهدأ الحركة التحررية في كوردستان ولو ليوم واحد عملياً. لقد أضفى البارزاني عليها طابعاً تنظيمياً واسعاً وهادفاً، مما سمح له وللمرة الاولى أن يحقق نجاحاً فعلياً يتسم بطابع سابقة قانونية حتى من وجهة نظر القانون الدولي: ففي ١١ آذار عام ١٩٧٠ أعلن نهائياً وعلى شكل قانون دستوري، انشاء منطقة حكم ذاتي كوردي في الجمهورية العراقية.

وخلافاً عن مهاباد ذات الحكم الذاتي في ايران عام ١٩٤٦ والضعيفة ولم تكن تحظى باعتراف أحد (رغم ما لها من أهمية تاريخية بوصفها أول محاولة لتجسيد حقوق الكورد

المدنية في دولة من الدول التي تقتسم كوردستان)، فإن وثيقة عام ١٩٧٤ في العراق اتسمت بطابع قانوني، لكن تبين أن تطبيقها في الواقع، وفي ظل ظروف نظام توليتاري من طراز فاشي والمتمثل في نظام صدام حسين كان أمراً مستحيلاً. كما كانت الاتفاقية المعادية للكورد والموقعة في الجزائر بين بغداد وطهران في ٦ ى ذار عام ١٩٧٥ عائقاً من المتعذر تجاوزه وعدداً من العوامل الدولية الأخرى لم تكن ملائمة للكورد وتركتهم دون مساعدة خارجية، الأمر الذي دفع بقيادة الحزب الديمقراطي الكوردستاني بأن يصدر في أواسط نيسان عام ١٩٧٥ أمراً بوقف الانتفاضة.

كان ذلك آخر فشل مني به مصطفى البارزاني، الذي عبر الحدود إلى الاراضي الايرانية، وبعد مضي بعض الوقت وصل إلى الولايات المتحدة الأمريكية. قرر مصطفى البارزاني العودة إلى ايران بعد سقوط نظام الشاه، فقد كان يأمل، فيما يبدو، أن الثورة الاسلامية ستفتح امام الكورد بعض الأفاق، لكن لم يتسنى له رؤية عواقب "الثورة الاسلامية" التي كشفت عن أنها ثورة مضادة على الأرجح بالنسبة لشعوب ايران بما فيها الكورد. فقد وافاه الاجل وهو في مطار نيويورك في آذار عام ١٩٧٩ اثر سكتة قلبية عن عمر يناهز السادسة والسبعين.

لقد مات مصطفى البارزاني، الا ان قضيته مازالت حية. وبعد مرور ١٢ عاماً تغير الوضع في العراق وفي كوردستان الجنوبية تغيراً جذرياً. ومنح فشل مغامرة صدام حسين في الكويت الكورد فرصة جديدة، اذ أن منطقة الحكم الذاتي الكوردية، التي ظهرت على الخارطات الجغرافية بفضل النضال الطويل والمتفاني الذي خاضه الكورد العراقيون جميعاً بقيادة الحزب الديمقراطي الكوردستان وعلى رأسه مصطفى البارزاني حتى منتصف السبعينيات (وفيما بعد الاتحاد الوطني الكوردستاني أيضاً) لم تعد وهماً واكتست لحماً ودماً وتحولت إلى "كوردستان الحرة"، التي يقوم الكورد بإدارة شؤونها والاشراف عليها. انها منطقة حكم ذاتي حقيقية، و أولها في تاريخ الشعب الكوردي المعاصر، وهي بمثابة نموذج حقيقي للكورد في الدول الأخرى، ولها تاريخها، هذا التاريخ الحافل بالآمال والمآسي، وان مستقبلها في الحالة الراهنة يوحي بالتفاؤل.

إن "كوردستان الحرة" هي خير شاهد لمصطفى البارزاني القائد السياسي والعسكري الرائع، الذي سيبقى اسمه في ذاكرة الشعب الكوردي التاريخية إلى الأبد.

رسالة وجهها مجموعة من البارزانيين إلى ستالين

فخامة الجنرالسيموس الرفيق ستالين

نحن قادة الحركة الثورية للشعب الكوردي في العراق، الذين اضطروا على الهجرة من العراق إلى ايران الأذربيجانية تحت حماية الجيش الأحمر.

نحن الضباط والشخصيات السياسية والمثقفون الكورد من العراق، قمنا بتأسيس الحزب الديمقراطي الكوردستاني، الذي يخوض نضالاً ضد الفاشية والرجعية والامبريالية، وقد تعرضنا للملاحقة جراء ذلك وحكم علينا بالاعدام غيابياً.

ويتوجه اليك، الشعب الكوردي، ايها الرفيق الكبير، بطلب تقديم المساعدة له في نضاله من اجل الاستقلال ومن أجل قوته اليومي وفي سبيل حقوقه الديمقراطية. ورغم أن شعبنا صغير وأرضنا ليست كبيرة، لكننا بذلنا جهوداً مضنية وقدمنا تضحيات كبيرة في نضالنا الثوري والسياسي، وان الانتفاضة الأخيرة التي قام بها الكورد من عشيرة بارزان خير شاهد على ذلك.

حقاً إنك صديق للشعوب الصغيرة والمضطهدة، ولهذا السبب يأمل الشعب الكوردي في مساعدتك له في نضاله من أجل التحرر من النير الاستعماري، وفي نضاله من أجل استقلال بلادنا في مساعينا لاقامة نظام ديمقراطي وانشاء حكومة وطنية. إننا ايها الرفيق ستالين نعقد املاً كبيراً على انك ستساعدنا في نضالنا من اجل قوتنا اليومي ومن اجل حرية شعبنا.

مصطفى خوشناو- نقيب سابق في الجيش العراقي

ميرحاج أحمد- محامي

ممثلو الحزب الديمقراطي للكورد العراقيين، المشاركون في الانتفاضة البارزانية.

مدينة أوشنو بتاريخ ١٩٤٦/١/٢٥

كانون الأول عام ١٣٦٥

بادئ ذي بدء ينبغي التنويه إلى ان البارزاني كان يتمتع بصفتين ينفرد بهما، واللتين تميزان القادة البارزين، وهاتان الصفتان هما: بعد النظر وسحر شخصيته الجذابة. لقد تجلى احساسه بالكرامة الشخصية في عام ١٩٤٦ عندما اقترح عليه اجراء استقبال رسمي له من الشاه. ورفض البارزاني شروط مراسم البلاط، التي عدها مهينة، وفي نهاية المطاف تم له ما أراد ومارأه مناسباً وهو أن الشاه استقبله بطريقة عادية وبصورة استثنائية.

لقد ظل محافظاً على رباطة جأشه المثيرة للدهشة (هي أيضاً سمة يمتاز بها القادة بالفطرة) حتى الوفاة، بل وفي تلك الأيام عندما كان يعاني فيها من مرض عضال. ويقولون أنه في عام ١٩٦٨ وخلال اجراء المفاوضات مع الوفد الحكومي، وجه وزير الثقافة والاعلام العراقي عبد الله السامرائي عبارات مهينة إلى الكورد، فأطبق البارزاني على مقبض خنجره قائلاً: "لو لم أحترم حصانة وفدكم، لقطعت لسانك".

كان البارزاني بعيداً كل البعد عن جنون العظمة، ذلك المرض الذي يلازم القادة الكارزميين فالبساطة والوقار لم يجعلا منه موضع ثقة المحيطين به وحسب، بل شخصية متناغمة داخلياً. فالتفاني والغيرية كانا مهمينين في سلوكه، وكانت معاملته مع أبنائه وأنصاره وأتباعه معاملة الند للند، الأمر الذي جعله يكسب حب الجميع واخلاصهم له.

كان يكره الثراء والسلطة ولم يسعى إلى المال أبداً، وكان يؤمن ايماناً عميقاً بأن لا شئ في هذه الدنيا يفسد القائد والانسان المناضل مثل المال، وكان يخاطب الجميع على قدم المساواة بصرف النظر عن انتماءاتهم القومية والدينية.

لم يكن يضع بينه وبين رفاقه سداً منيعاً ومهما كانت الأسباب، فقد كان يعيش في تلك الظروف التي كانوا يعيشونها، ويأكل مما يأكلون وفي أثناء عبوره لنهر آراس كان واحداً من المجموعة الأخيرة التي غادرت ضفة النهر الواقعة على الطرف الايراني ساعياً أن يتأكد شخصياً من أن جميع رفاقه بما فيهم المرضى والجرحى قد انتقلوا إلى الجانب السوفياتي بسلام. ففي مذكرته إلى باغيروف أكد بشكل خاص على أن أنصاره جديرون مثله بتلك المعاملة الحسنة وأن لا حياة له بدونهم، وفيما بعد رفض جميع الامتيازات التي عرضها عليه خروشوف، رغبة منه ألا يحظى بما لا يحظى به أنصاره. وكان يبذل كل ما استطاع اليه سبيلاً في اظهاره لما يؤمن به من قيم التضامن والاخوة والعدل

والاستعداد الدائم للتضحية. ففي مرحلة هي من أسوأ مراحل حياته وأكثرها صعوبة وذلك عقب اتفاقيات الجزائر، ويعاني من مرض عضال في مستشفى مايو كان يستغل كل مالديه من امكانيات كي يلتقي مع اية شخصية سياسية ويوجه انتباهه إلى الخيانة التي أصبح الشعب الكوردي ضحية لها كما انه استطاع ان ينقل إلى ولديه، اللذين اظهرا عن مواهبهما القيادية، الصفات الاساسية وهي: الحزم في اتخاذ القرارات والصمود عند مواجهة الظروف السيئة.

كان مصطفى البارزاني حازماً في اتخاذ القرارات، وجيزاً في عباراته وسريعاً في تحركاته. وبصفة عامة كان انساناً عملياً. وبصرف النظر عما تلقاه من تعليم متواضع كان يدرك ما للعلم والمعرفة من أهمية لمستقبل كوردستان ادراكاً رائعاً. وكان يكن احتراماً خاصاً لاصحاب التخصصات التكنيكية. وعندما كان يصطدم بالصعوبات ويمر في ظروف سيئة لم يكن يعاني من الحيرة والارتباك والاحباط، بل على الارجح كانت تحثه وتدفعه إلى مواصلة النضال.

ورغم ان مصطفى البارزاني كان قائداً للكورد العراقيين، لكنه كان يرى في كوردستان العراق حجر الزاوية ونواة الدولة الكوردية القادمة. ولهذا السبب كان يمتشق السلاح دونما ابطاء كي يساعد الحركة الوطنية في أي جزء من اجزاء كوردستان سواء كانت ثورة الشيخ محمود في السليمانية، أم ثورة الشيخ سعيد في تركيا او جمهورية مهاباد في ايران.

ومن الشخصيات الكوردية التي كان البارزاني يكن لها احتراماً خاصاً ويتذكرها دائماً كان صلاح الدين الأيوبي وأسرة بدرخان وشيوخ شمدينان، وشمزين وكذلك امراء سوران. وكان يرى في الشيخ عبد السلام البارزاني (أعدم عام ١٩١٤)، والشيخ سعيد بيران (أعدم عام ١٩٢٥) واسماعيل آغا المعروف بسمكو شكاك (قتل عام ١٩٣٠)، وقاضي محمد (أعدم ١٩٤٧)، والشيخ محمود (توفي عام ١٩٥٦) أسلافاً له في قضية التحرر الوطني.

الكبير يرى من بعيد

أ. ف. كيسيليوف

نبذة عن حياته:

الكسندر فيكتور فيتش كيسيليوف هو جاسوس سوفياتي قديم. في عام ١٩٥٩ رافق الباخرة "جورجيا"، التي عاد على متنها أنصار مصطفى البارزاني من الاتحاد السوفياتي إلى العراق، وفيما بعد قاد عملية نقل الأسلحة إلى البارزاني (عبر سوريا) وكان مندوباً سوفياتياً في شمالي العراق. ويعود له الفضل في انقاذ حياة البارزاني، حيث تمكن من تحذير القائد الكوردي عن الكمين الذي نصب له نظام بغداد وفي اللحظة الأخيرة (في عام ١٩٦٢ دعي البارزاني إلى المفاوضات مع الجانب العراقي، رد على ذلك أن بغداد كانت قد خططت لتدمير القرية؛ حيث تجرى المفاوضات بين وفدها والبارزاني تدميراً كاملاً عن طريق قصف جوي مكثف. لقد صور الكسندر فيكتور فيتش هذه الأحداث الآخاذة في كتابه بعنوان "مهمة سرية في الشرق الاوسط". ونورد أدناه ذكريات كيسيليوف، الذي شاطر هيئة تحريرنا وبسرور.

"لا ترى الشحص وجهاً لوجه- فالكبير يرى من بعيد".

في تلك المرحلة التي التقيت فيها بالبارزاني، لم أكن أنظر اليه، بالطبع، "كقائد عسكري عبقري" "وزعيم عظيم للأمة" والخ. ولكان من السابق لأوانه أن ننعته بهذه الأوصاف في ذلك الوقت، ولكن الآن وبعد أن زال الغبار وبانت الجوانب الداله لشخصيته وبجلاء، بوسعنا التحدث عنه وبيقين راسخ كإنسان غير عادي بل وعظيم وكشخصيه لها أهميتها تاريخياً. تلك هي قناعتي الشخصية واعتقادي.

ورث مصطفى البارزاني من الأسلاف الفكرة القومية للكورد وهي فكرة الانعتاق ورص صفوف الشعب وتوفير تطور انساني اعتيادي له. وقام بتطوير هذه الفكرة وجعلها ملموسة طبقاً للظروف التاريخية القائمة. ومما هو أساس وجوهري، حسب رأي، هو أنه

أضفى مضموناً سياسياً محدداً على هذه الفكرة وهو منح الكورد الحقوق السياسية، ومضموناً اجتماعياً وهو تطوير اللغة والثقافة القومية، وحق العمل والتعليم والخ. ومضموناً اقتصادياً أيضاً، ولا سيما أن ذلك كله قد جرى على خلفية صراع شديد بين الدول المستخرجة للنفط وبغداد. ومن الطبيعي أن الكورد ظلوا ولازالوا إلى يومنا هذا رهائن في هذا الصراع الذي يعد العامل المحوري والمحرك الداخلي للوضع العام في المنطقة. ولهذا السبب عندما أبين أهمية البارزاني أردت القول بأن وضع الأساس للنضال الوطني التحرري من الناحية الايديولوجية والمادية- البناءة على حد سواء.

تعرفت شخصياً على البارزاني في نيسان عام ١٩٥٩، ففي ذلك الوقت كان معروفاً في أوساط الرأي العام السوفياتي بوصفه قائداً عسكرياً من رواد حركة الأنصار وحسب (كان الناس يكنون حينذاك، بعد الحرب مباشرة، احتراماً كبيراً لحركة الانصار) وكان لدي مثل هذا التصور أيضاً، عندما تم تعييني في باخرة "جورجيا" وعن طريق الصدفة، كنت موظفاً عادياً في جهاز مكافحة الجاسوسية البحرية، وقدمت من رحلة ما إلى أوديسا، حيث تم نقلي إلى العمل في هذه الباخرة. كانت المعلومات شحيحة حداً، فلم تعلن موسكو سوى عن وصول وحدة، كانت تقيم عندنا مدة ١٢ عاماً، إلى أوديسا ومنها تعود إلى الوطن. لقد قامت ثورة في العراق بزعامة عبد الكريم قاسم، ولو أنها ثورة بورجوازية لكنها أطاحت بالملك فيصل وبنظام نوري السعيد. وكانت هذه الوحدة تعود إلى الوطن. وكان علي تنفيذ المهمة التي كلفت بها، أديت التحية العسكرية وحملت حقيبة السفر بيدي واتجهت سريعاً إلى الباخرة. وكان علي بصفة مساعد للركاب أن أقوم بجميع الأعمال، أستقبل الركاب وأقوم بتوزيعهم على حجراتهم وحل مشاكلهم، وتبين أن عددهم كان كبيراً حداً، حيث بلغ ٨٥٠ شخصا سافروا مع زوجاتهم وأبنائهم، وبينهم كان عدد كبير من الشيوخ، وهكذا كان العمل بما فيه الكفاية وهكذا تم توزيعهم بهدوء وعلى أماكنهم، لأنني سلمت زمام الأمور كافة إلى الكورد أنفسهم قائلاً لهم: "أنتم تعرفون شعبكم أفضل مني وهاكم خارطة مواقع الحجرات وتوزعوا عليها بحيث لا تحدث أية خلافات. وفي بادئ الامر أخذ كل واحد منهم مكاناً كيفما اتفق، لكنهم في اليوم الثاني توزعوا حسب ما بينهم من اواصر القربى وعلاقات الصداقة. وعندما ساد الهدوء بين الناس، لا بل أخذت بعض علامات الضجر تبدو عليهم، أصبح بوسعي التحدث اليهم عن حياتهم وتاريخ مجموعتهم

وعن شخصية مصطفى البارزاني، وليس عن القضايا الجارية. فلم أكن أعرف عن ذلك شيئاً فيما مضى. وساد جو من المرح ومزاح عيدي على متن الباخرة. سنصل إلى الوطن قريباً ونلتقي بالاهل والاصدقاء، لقد أثرت الدبكات المتواصلة على متن الباخرة والانتعاس والمرح فضلاً عن الهدوء الذي ساد بعد الطريق الطويل، والطعام اللذيذ والهواء النقي والمناظر الخلابة، التي تمنحها التنزه على سطح الباخرة على الجو العام بما في ذلك على أجواء العلاقات السائدة بيننا. ففي الأحاديث كشفوا عما يجول في خواطرهم. وأتاحت لي القصص التي سمعتها منهم أن اصحح موقفي من البارزاني، فكما قلت سابقاً كنا أحسبه قائداً عسكرياً عادياً للأنصار، وهنا عرفت الكثير عن منشئه وشقيقه أحمد وحياته في الاتحاد السوفياتي، فأصبحت أكن لمصطفى البارزاني احتراماً عميقاً.

عادة كانوا يتحدثون عن البارزاني باستحسان شديد، حيث كانوا ينوهون إلى شجاعته الشخصية، لكنهم كانوا يشيرون ايضاً إلى مرونته السياسية بل والى دهائه وكانوا يتحدثون عن ذكائه الخارق. وكانت ثمة ملاحظات لها صبغة انتقادية، وهذا ما كان مرتبطاً بالكورد، الذين عاشوا مدة ١٢ عاماً في المجتمع السوفياتي، أخذوا يعتنقوا ببعض المقولات من الايديولوجية الماركسية- اللينينية والمقاربة الطبقية. فمنهم من كان يقول: "آجل، طبعاً، كل شئ صحيح. لكنني فلاح، أما هو فزعيم انه ينتمى إلى عالم آخر، وان اهتماماته تختلف عن اهتماماتنا، ولا اظن أن بوسعه معرفة مشاغلنا ومصائبنا، مع أنه، بالطبع، انسان مقاتل..." كما أشار إلى الفارق في مستوى الحياة والرفاهية. لقد كان الفوراق كبيرة بالطبع، مع أنه لم يكن للبارزاني ضلع فيها. وهكذا طالما كان المقاتلون العاديون يعيشون في البراكات، أجلسوه بعيداً عنهم، ثم نقلوه إلى موسكو في شارع نوفوسلوبودسك في دار للنخبة من اللاجئين السياسيين. وهكذا، فقد زعموا، أن البارزاني انقطع عن مجموعته والى حدٍ ما، بالطبع كان الأمر كذلك ظاهرياً وفيزيائياً، لكنه كان روحياً معهم دائماً، مع أن أمامه كانت مهام محددة تماماً في تلك المرحلة وهي توحيد الحركة والمجموعة، والنمو الابداعي الخاص. ليس عبثاً أنه أتقن اللغة الروسية خلال وقت قصير وعلى نحو عميق، كما كان مدرسوه في اللغة الروسية يتذكرون ذلك: فقد قالوا بأن الجهاز الإدراكي كان يعمل لديه بعمق ودقة، وكانت مقدرته على امتلاك الجهاز المفهومي رائعة، فلم يكن يحتاج إلى شرح حقائق ما أوليه، فهو كان يدرك كل شئ بسرعة

خاطفة، وكان يستدل سريعاً في المسائل السياسية والاجتماعية، لأن ذلك قد أكمل نضوجه في وعيه وهذا ما كان يستجيب لبعض من متطلباته الشخصية. وقصارى القول كان الرأي العام حول البارزاني ايجابياً بلا شك ويكاد يكون بالاجماع. وفضلاً عن ذلك كان الناس يعتقدون أن بعدهم اليومي عن البارزاني كان نتيجة الظروف التي عاشوها في الاتحاد السوفياتي، وسيتغير كل شئ حين العودة إلى الوطن وستصبح العلاقات أكثر قرباً ورسوخاً. لقد حصلت على هذه المعلومات حول البارزاني وللمرة الأولى في الباخرة. بعد ذلك وصلنا إلى البصرة، وكان اللقاء استعراضياً، حيث شاهدنا عشرات، بل مئات البواخر المرفقة، وكانت الطائرات تحلق فوق رؤسنا، ثم حشوداً من الجماهير في المرسى، كل ذلك كان مؤثراً جداً.

وكان البارزاني أيضاً بين الذين من جرى استقبالهم، رغم أنني لم أتمكن آنذاك من رؤيته. ثم جرى حفل استقبال رئاسي على شرفه في القصر الملكي في بغداد. لم أعرف من قام به ومكانه ايضاً، وعرفت أنه حفل استقبال فقط. وبما أن طاقم باخرة "جورجيا" خرج لمشاهدة المدينة، أصبحت مسؤوليتي مضاعفة لكوني مساعد الوردية وموظفاً في جهاز مكافحة الجاسوسية، لذا كان لزاماً علي البقاء في الباخرة تحسباً لأي طارئ. ثم وصل القنصل في هذه الفترة، الذي كان يعمل في جهازنا أيضاً. وكانت لديه مهمتان، الأولى هي نقل كمية أكبر من الفودكا والثانية نقلي إلى بغداد، ذلك أنه انبثقت فكرة تقديمي إلى البارزاني للتعرف علي، ولكي يقدم هدية ثمينة باسمه الي. لكنني تصورت أنه هناك شئ ما أكبر خلف ذلك. لأنه عندما قدموني اليه قلت له: "تحياتي أيها الرفيق الجنرال". وفي الحقيقة ما الذي حدا بهذا الشخص الذي عمل مساعداً للركاب في الباخرة وشخصاً مدنياً ان يتقدم نحو سيد لا يعرفه ويقول له: "أيها الرفيق الجنرال!؟ لكنني لاحظت انه ذلك كان يطيب له. وهنا جرى، كما بدا لي، تعارف غيابي: فقد ضمن وظيفتي الحقيقية. فقد انساناً محنكاً عارفاً بما فيه الكفاية وقد اجتاز مدرسة مراعاة السرية وبامتياز، وتبين لي انه كان يدرك بنظرته الثاقبة ما يخفي له محدثه حتى النهاية. لم يقل لي آنذاك كلمة واحدة، لكنه كان ينظر الي نظرة ما فاحصة وبلا انقطاع. وبعد ذلك قدم مساعده ساعة ذهبية من ماركة "أوميغا" هدية لي. هكذا تمت معرفتي الاولى به.

والمشهد الثاني كان استمراراً منطقياً لهذا اللقاء. فكما أدرك، أنه عندما وضعت خطة ارسال السلاح إلى كوردستان، درس قادتنا الموضوع من جميع جوانبه وهو أن لي علاقة بالبحر، ولا سيما أنني قضيت ثلاث اسابيع تقريباً بين الكورد وهؤلاء يعرفونني شخصياً. ووجدت نفسي في كوردستان بصفة مراسل صحفي.

كان الموقف متأزماً جداً، واللقاءات مع البارزاني متعددة، أضف إلى ذلك انها كانت تجري حسب القضايا التي كنت الجانب الكوردي يقوم بصياغتها وبدقة. وإن أكثرها حضوراً في ذاكرتي قد عرضت في كتابؤ "مهمة سرية في الشرق الاوسط".

عادة ما كان يقوم عدة أشخاص بالخدمة في اثناء اللقاء مع البارزاني، ومن جانبنا كنت لوحدي. كان اللقاء يحمل طابعاً بناءً، علماً انه لم يكن ثمة ما يهددني، فقد كنت اسافر إلى مكان ما بالعربات وبوسائل مختلفة، وأنتقل من سيارة إلى أخرى. كان البارزاني يستقبلني في منتهى الصرامة، وهنا كان يؤثر، كما يبدو، الفوارق في الوضع والسن. فقد كان أكبر سناً مني. كنت أدرك أن الوقت محدود دائماً، وكان علي أن أكون موفراً للوقت بما فيه الكفاية وان اتمكن من الحصول على الحد الأعلى من المعلومات كنت أمعن التفكير في كل موضوع وحتى في كل ما هو خاص، وما ينبغي ابرازه وما ينبغي التأكيد عليه. فقد كنت أعرض كل شئ بدقة وإمعان. وكان يصغي اليّ بانتباه شديد ولم يقاطعني قط، وفي هذه الاثناء كان ينظر ملياً اليّ، يبدو، أنه كان يحسب تطابق ما يقال مع الواقع، وفي ما إذا كان هناك أشياء لم يصرح بها؟ لم يكن يطرح الاسئلة وكان يسمح الحديث حتى النهاية. "هذا كل شئ؟" وكان يتفوه ببعض الكلمات الروسية مثل "نعم" و "كلا" و "حسن" والخ..، لكن لم تجر محادثة كاملة معه باللغة الروسية، فقد كان يتحدث اليّ من خلال المترجم دائماً، علماً أنه كان يفهم الترجمة الأمر الذي كان واضحاً من نظرته وايماءاته. ولكن كان، كما يبدو، حذراً، فقد كان يسعى إلى ان تكون افكاره واضحة، ولا يجرى تفسيرها على نحو خاطئ، وتصل إلى الآخرين بمنتهى الدقة، وهذا ما كان يجري ضمانه عن طريق المترجم وحده. لقد كان يدرك أن ما يقوله سيصل إلى موسكو تلغرافياً وبصورة حرفية في هذا اليوم او في الأيام القليلة القادمة ولهذا لا بد من صيغ دقيقة. وكان يعرضها على المترجم، كما افهم، بلغة كوردية سليمة، وبدوره كان المترجم يعرضها علي بدقة. وكنت أدون بعضاً منها حسب الامكانية المتاحة، لكنني كنت أدونها في ذاكرتي.

واحياناً ما كانت الابتسامة تعلو وجهه عندما يوجه اليه كلاماً ما لطيفاً، وكانت العبارات الطبيعية عادية في علاقاتنا. لكنه كان يستوعب ذلك بكبرياء وبلا انفعالات زائدة، بل بابتسامة حقيقية: كان يهمه أن يعرف دائماً: كيف هي الأمور؟ وفيما إذا كانت ثمة قضايا متأزمة جدا؟ وهل هناك حاجة إلى المساعدة؟ بينما كانت المساعدة ضرورية في توضيح الظروف المختلفة، لكنني لم أجعله يشعر بالضيق والملل بهذه الأسئلة وكنت أنقل ما لدي إلى إدارة آمنة قائلاً: "أيها الشباب احس بأن الأمور هنا لا تسير سيراً حسناً، علموّني كيفية التصرف مع أناس ما وفي ظروف ما لكن البارزاني كان يراعي أساليب العمل السرية وكان دقيقاً وعملياتياً ذكياً، ويبدو أن النضال الطويل في ظروف السرية قد زاد من احساس بالخطر وأتاح له تقديم ارشادات دقيقة حول مختلف المسائل العملية.

كان يهتم بأخبار موسكو اهتماماً شديداً، فقد كانوا يقدمون له ماورد من أخبار في نشرات الراديو، لكنه كان يرغب في سماع أجوبة على مجموعة من الاسئلة من روسي بجواره ولها تفسير غير رسمي. كان يقف من روسيا موقفاً ايجابياً إلى أبعد الحدود، ولم أسمع منه قط خلال أحاديثنا حتى اماءات تشير إلى ظروف غير مناسبة عاشها في الاتحاد السوفياتي. وعموماً أن نقدره حق قدره، فقد كان مدى اهتماماته خارج تلك الأطر القومية الضيقة، وهذا ما يؤثر في النفس تاثيراً حسناً.

بالطبع كان ابن طبقته الاجتماعية وبوعي مناسب لها، لقد كان زعيماً بنشأته، فلم يكن متكبراً، لكنه كان متحفظاً حسن المعاملة، ولم يسمح لنفسه ولا للآخر التفوه بعبارات سمجة... وتجلى في هذا العادات الشرقية وطابعه الشخصي، كما كان متحفظاً في حديثه، وعندما كان يمر بلحظات صعبة لم يظهرها ويعرض مالديه في غاية التهذيت وأحياناً ما كان يتركها وشأنها.

خلال خدمتي التي امتدت ٤٥ عاماً تطلعت ملياً إلى مختلف ضروب القادة. ولدي مع من أقارنه. وهكذا لم أجد فيه غطرسة أو خيلاء في تعامله مع المرؤسين ولا اية غطرسة يتصف بها الرؤساء، وكان يكفيه أن يميل رأسه، كي يحسب المرؤسين بما يريده.

كان يطيئاً بعض الشئ، ولم يقم بحركات سريعة، وحتى وان سمع، مثلاً، صوتاً قوياً من خلفه كان يلتفت بهدوء ثم يعود بهدوء إلى حالته السابقة. لقد كان يتصف بالتوازن والهدوء والدقة في جميع حركاته واعماله على حد سواء، وهذا ما كوّن انطباعاً عن أنه انسان صارم وجاد.

ذكرى الأجيال

سيامند البنا

في آوائل الخمسينات نشأ الجيل، الذي أنتمي إليه، على القصص التي كانوا يحكوها همساً، وهي تصور مآثر أعظم بطل من أبطالنا، فقد ردَّ، معه مجموعة من الناس وبموارد محدودة، رداً شجاعاً على الجيوش العربية والفارسية والتركية، وهو يدافع عن شعبه ويحميه عنها. ومن ثم قاد ٥٠٠ شخص في مسيرة ملحمية.

وهو يخوض معركة اثر معركة التي لم تكن متكافئة، ويقاتل ضد جيوش نظامية كبيرة، كي يصل إلى بر الأمان في الاتحاد السوفياتي. وبعد أن فقد عدداً من مقاتليه في تلك المعركة تمكن من خرق صفوف ألآلآف من الأعداء واستطاع اختراق الحلقة الحديدية.

وعاد من روسيا وهو يقود جيشاً بلغ عدده عشرات الآلاف بل ومائه الف كي يثأر من الأعداء الذين دنسوا أرض كوردستان ويحررها.

تراكمت الروايات واحدة فوق الأخرى، وكل راوٍ يضيف الاحترام وخلجات نفسه إلى الاسم الذي صار اسماً اسطورياً. وها قد حل الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ وأصبحت أكثر الأحلام جرأة وحقيقة خلال أسابيع عدة، حيث عاد الجنرال بارزاني باللفرح العظيم ولبهجة تلك الايام الخريفية عندما كانت روح كل كوردي تعيش لحظة ترقب سعيدة لعودة انسان عظيم!

وعندما حل اليوم السعيد اكتظت شوراع بغداد بالناس، الذين كاد عددهم يصل إلى نصف مليون، واكتظ شارع الرشيد بالشعب من بدايته وحتى نهايته، ورفعت هتافات باللغة العربية "زعيمنا الثاني مصطفى البارزاني" بالطبع كان الزعيم الأول والأوحد العقيد عبد الكريم قاسم، لكن اسم الملا لم يكن أقل من اسمه على شفة كل عراقي عربياً كان ام كوردياً.

وكانت صوره والرموز والشعارات المنقوش عليها صورته تباع في كل مكان وهو في بزه الجنرال العسكري، وفي الزي الكوردي أو كان يرتدي بزةً مدنية. وكانت تلك اللحظة من أشد اللحظات رسوخاً في الذاكرة لعصر الحماس الثوري. ولقد أدى شمال صائب الذي كان من أشهر المطربين في تلك المرحلة، وبصوته الرخيم تلك الاغنية آلاف المرات وبثتها أجهزة الراديو: "بارزاني أسد كوردستان بارزاني نجم سمائنا من لم يسمع اسمك يا بارزاني؟!"

أصبح اسم بارزاني في عشرات الكتب والمقالات وباللغات كافة مرادفاً للشجاعة والثبات والمرونة، الذي حول مسأله منسية كادت أن تكون فاقدة الامل إلى قضية حيوية وملحمة.

لقد تماهى كلياً مع مأساة شعبه وقضيته أكثر من أي قائد وطني آخر في القرن العشرين لكن تبين أنه والشعب لاينفصلان عن بعضهما البعض. لقد كان أعداء الكورد على قناعة راسخة من أن مصرع البارزاني لايقضي على حركة المقاومة وحدها، بل وعلى القضية الكوردية ذاتها. ولم يعترض سبيل قائد آخر مثل هذا العدد الكبير من الاغتيالات والمؤامرات التي تعرضت لها حياته. ففي حزيران عام ١٩٦٣ اعلنت الجريدة اللندنية "تايمز" أن نظام عبد السلام عارف يعرض مكافأة مالية قدرها مليون دولار أمريكي لمن يأتي بالبارزاني حياً أم ميتاً. وفي عام ١٩٨٣ أباد النظام العراقي جميع رجال أسرته الذين كانوا ضمن دائرة سيطرته بما فيهم جميع الاطفال الصغار. وفي عام ١٩٨٩ وبعد عمليات الانفال، عندما قتل النظام العراقي أكثر من ١٨٠ ألف من المواطنين الكورد الأبرياء، أعلن ممثل الرئيس العراقي طه ياسين رمضان وهو يقف على أنقاض قرية ثم تفجيرها في بارزان قائلاً: "الآن عندما قضينا على كل ماهو حي على أرض بارزان، علينا التأكد من أننا قتلنا حتى الديدان تحت الارض".

ورغم أن الهدف النهائي وبلوغ شاطئ الأمان لم يتحقق للشعب، فإن ما قدمه البازراني من خدمات في الحفاظ على الشعب وانقاذه من الابادة وتطوير الوعي الكوردي والحركة الوطنية هي كبيرة حداً. وبعد أن قام بعددٍ من الاجراءات السياسية والعسكرية الجريئة أعطى الكورد الأمل في أنه رغم عدم التكافؤ الكبير في القوى، لم يتم بعد فقدان كل شئ، وبوسع الكورد البقاء بصفتهم أمة.

كان الحزب الديمقراطي الكوردستاني، الذي أسسه البارزاني، أول حزب سياسي كوردي معاصر. فعندما نلقي نظرة ولو على لجنته المركزية نرى أنها تكونت من الماركسيين

المتشددين والقوميين وإثنان من ملاكي الأرض الكبار ومن الاشتراكيين. وهذا وحده يظهر مدى نفوذه وسحر شخصيته التي أتاحت المجال لتوحيد اكثر المجموعات والشخصيات تنوعاً تحت شعار القومية. كانت ولادة الحزب الديمقراطي الكوردستاني وما يحظى به من تأييد جماهيري واسع حدثاً فريداً، لم يتكرر منذ ذلك الحين، رغم محاولات التقليد الكثيرة. والانتفاضات التي قادها البارزاني بدءاً من عام ١٩٤٣، لم تكن انتفاضات محلية ولا عشائرية خلافاً للانتفاضات الكوردية السابقة. لقد انخرط الضباط والمثقفون وسكان المدن في مختلف أرجاء كوردستان في الحركة وانضموا إلى الثائرين إلى جانب العشائر من مختلف مناطق كوردستان ونواحيها. وكانت مسيرته إلى مهاباد والخدمة في جيشها أول حدث في التاريخ الكوردي، عندما يقوم آلاف الناس بتوخى الأهداف القومية العامة رغم كل المصاعب والالام وبعيداً عن موطنهم الأصلي. انها كانت إشارة رائعة للتضحية في سبيل المثل القومية التي وحدت بين الناس بروابط الدم وبالوضع الحقوقي الحكومي وبددت شكوك الكورد في مصير امتهم المشترك. لقد هدمت انتفاضة البارزاني الحواجز الطبيعية والعشائرية والدينية المترسخة في كوردستان ترسيخاً عميقاً، والتي كانت تحظى بدعم العثمانيين والفرس بدءاً من عام ١٥١٤، عندما قام الطرفان بتقسيم كوردستان بينهما.

وأصبح دمج المقاتلين من مختلف المناطق والعشائر في "ثورة" رائعة وموحدة، التي كانت ثورة رومانسية وحلماً شاعرياً حتى الآن، حقيقية بفضل جهود البارزاني. وارتقت الكوادر السياسية والعسكرية في جميع أجزاء كوردسان إلى مستوى جديد، والان تقوم بقيادة مناطق كاملة وإدارتها. على ان أكثرية هذه الكورادر لم تكن من أصول نبيلة، بل ومنها من كان ينحدر من أسر فقيرة. وحلت فكرة الاخلاص للامة والثورة محل الوفاء للعشيرة وللآغا الاستبدادي وفي ذلك يعود الفضل إلى البارزاني بالذات. ومن أعظم انجازاته هو تحول المجتمع الكوردي من العلاقات العشائرية الاقطاعية إلى الحالة الراهنة.

إن الاتفاقية السلمية الموقعة بين حدك والنظام البعثي بتاريخ ١١ آذار عام ١٩٧٠ كانت انجازاً فريداً من نوعه: فقد أرغم القائد الكوردي الحكومة العراقية والاعتراف بالحقوق القومية لشعبه رسمياً وللمرة الاولى. وهذا ما سيغدو، بما لاشك فيه، قادعة حقوقية فيما بعد، والتي انطلاقاً منها ستضطر السلطا إلى الاعتراف بحقوق الكورد كاملةً.

يتعذر علينا ضمن أطر هذه المقالة أن نعدد ما قام به البارزاني من انجازات، ومدى تأثيره الفعلي على حياتنا، وبوسع الباحث الصبور وحده، والذي يمتلك موهبة كبيرة وطاقة هائلة أن يشرع في تصوير حياة واحد من عظماء القرن العشرين وعصر وماقام به من انجازات، تصويراً كاملاً. لقد استطاع هذا الانسان خلال حياته توحيد الكورد جميعاً تحت شعار قومي موحد، تلك المهمة التي تبدو مستحيلة فيما مضى. لكن هذا ما حدث ذات يوم، يا أصدقائي، وقبل سنوات عدة، ونحن نفتخر ونبجل أبناء شعبنا الذين قاتلوا تحت قيادة البارزاني اسمحوا لي في هذا اليوم أن انحني إجلالاً لذكرى قائدنا العظيم، مقدراً تراثه تقديراً كبيراً، وأن نقطع عهداً في النضال من أجل اتحاد جديد لشعبنا في البحث عن عالم ستكون فيه جميع الشعوب حرة ومتساوية.

من أقوال البارزاني

"لن أطأطأ رأسي أبداً أمام أعداء الشعب الكوردي، ولن أسمح أن تتحول بلادي إلى مرعى يسرح فيها الأعداء والمغتصبون"

"لست شيوعياً ولاديكتاتوراً، أنني أؤمن بالديمقراطية وأردت أن تتمتع أمتي بالسلام والحرية. وأنتظر ذلك اليوم الذي أستطع أن أشاهد فيه علم كوردستان يرفرف فوق أية قمة من قمم الجبال في العراق وايران وسوريا أو في تركيا"

"عار عليَّ أن أظل لامبالياً وراضياً في وقت يعاني فيه الناس الجوع من حولي ولو وهبت لي امكانية انقاذ أحد ما من الموت جوعاً لحسبت ذلك شرفاً عظيماً لي"

"طالما أحمل البندقية في يدي فأنا سيد نفسي، ولن أخدم أية سلطة أو دولة أجنبية. لن أخدم الانكليز ولا الامريكان ولا الروس، فلست عميلاً ولا جاسوساً، بل خادم شعبي"

حول الشعب وأنصاره

"الشعب الكوردي يميل فطرياً إلى الديموقراطية واحترام القانون"

"لو نحظى بتأييد الشعب، فلن يتمكن العدو أبداً من إلحاق الهزيمة بنا، حتى لو كان متفوقاً علينا ألف مرة بالعدد والسلاح"

"نعتز بأبناء شعبنا، الذين هبوا دفاعاً عن حقوق الشعب الكوردي رغم الظروف القاسية، وتحملوا الأخطار والمعاناة من الجوع والبرد والملاحقات القضائية، والاعتقالات والقتل والتعذيب".

حول الواجب الأخلاقي والوطن

"على كل إمرئ أن يعرف واجباته ويؤديها بشرف واخلاص، وان كل من لايسعى إلى خير الشعب ويتهاون في أداء واجباته ينبغي عدّه عدواً"

"اسعوا إلى توحيد قلوبكم وأيديكم وضعوا وحدتها في خدمة مصالح الأمة الكوردية"

"حاولوا أن تكونوا ممثلين للأخلاق والمعرفة والشرف لشعبكم"

حول كركوك

"كركوك هي قلب كوردستان. إننا لن نقدم أبداً على أية مساومة حول كركوك ولن نتنازل عن شبر واحد من الاراضي الكوردية"

واجب القائد

"يجب ألا تكون القيادة هدفاً بحد ذاتها. وان من يكرس كل جهوده وقواه لخدمة الشعب فإنه يصبح قائداً بصورة آلية"

حول التعليم

"أطلبوا العلم وامتلكوا ناصية المعرفة، وابذلوا مالديكم من جهود كي تحرروا شعبكم من الأمية"

حول القوى المسلحة كضمان للاستقلال

"ما إن تتخلوا عن سلاحكم للأخرين، فإن ذلك سيعني أنكم سمحتم له بتقرير مصيركم وعليكم الخضوع لإرادتهم"

كنا نسميه الجنرال بارزاني

من حديث المخرجين السينمائيين الوثائقيين نياز لاهيجاني وطاهر هوراماني مع الطبيب الأمريكي، الذي كان يعالج البارزاني في مستشفى مايو (روتشستر، ولاية مينيسوت).

كان الجنرال بارزاني يجلس هنا، دخل الغرفة وجلس، وهنا كان هذا الكتاب (مجلة "National Geographic". كان مسعود معه. وتبادلنا عدداً من الأسئلة العامة، ثم سألني، بالطبع، عن طريق المترجم قائلاً: "هل تعجبكم هذه المجلة؟ أجبت بأنها تعجبني. كنت أعرف ماكان يقصده، أما هو فقد أردف قائلاً: "هل تعرف أنها نشرت صورتي" وتناول المجلة ثم فتح على الصفحة المطلوبة. هكذا مرت عشرة أو خمس عشرة دقيقة على لقائنا الأول عام ١٩٧٥.

- هل عرفتم فيها شيئاً عن الكورد؟

شاهدت هذه الصورة وقرأت المجلة وتحدثنا عن هذه الأماكن في كوردستان وعن الناس والنساء الكورديات ذوات الشعر الأشقر. إنها ظاهرة فريدة مرتبطة بمنشأهن الأول، فقد كان هناك هذا المزيج. وجدنا معه لغة مشتركة، وكان طيب المعاشرة دائماً فقد كان إنساناً ممتعاً، ومن الواضح تماماً أنه كان انساناً عظيماً، الأمر الذي كان يبدو حتى من مظهره الخارجي. كان ممعناً ولم يظهر قلة صبره. عندما يقوم الطبيب بتوضيح تاريخ المرض، فإن ذلك يحتاج إلى كثير من الوقت والحذر، لأن الأخطاء غير مسموح بها. ينبغي التحدث مع المريض ومعرفة كل شئ عنه؛ معرفة ماضيه وأسرته وعاداته الضارة مثل عادة التدخين، إن كل ذلك في غاية الأهمية. لقد كان صبوراً بما فيه الكفاية، مع أنه، بالطبع، كان يطمح، شأنه في ذلك شأن جميع المرضى، الوصول إلى معرفة الوقائع الحقيقية. ثم أصبح واضحاً مايحتاج إليه. أدخلناه إلى المستشفى لإجراء الفحص، الذي كشف عن طبيعة

ما كان يعاني منه، وأخذنا نعالجه انطلاقاً من ذلك. كانت علاقاتنا، كما يجب أن تكون بين المريض والطبيب، علاقات مؤتمنة جداً، بيد أنه تكونت علاقات بين أسرتينا أيضاً ونشأت فيما بينها علاقات حميمة جداً.

- متى سمعتم عن الجنرال بارزاني للمرة الأولى قبل اللقاء معه؟

اتصلوا بي هاتفياً، وبلغوني بوصول سيد يحتاج إلى مساعدة طبية. ثم قالوا لي بأنه كوردي، وسألوني فيما إذا أعرف الكورد، وهل سمعت عنهم فيما مضى. أجبت بأنني قرأت في مجلة "Nationag Geographic" عنهم. وهكذا تصفحنا المجلة مرة أخرى ووجدنا فيها صورة البارزاني، وأخبروني بأنه شخصياً سيأتي إلى هنا، ثم وصل إلينا.

- كيف جرى اللقاء الأول؟

جرى اللقاء بصورة جيدة جداً. إننا نسعى إلى خلق جو مريح وهادئ، وجلسنا في هذا المكتب مع المترجم. تحدثنا عن تاريخ مرضه وعرفت التفاصيل الضرورية جداً لإجراء تشخيص صحيح. لقد كان إنساناً لطيفاً وذكياً، وناقشنا سيرة حياته، التي يمكن أن تصبح وقائعها سبباً لمرضه.

- ماهو الانطباع الذي تكوّن لديكم بعد اللقاء الأول؟

بات واضحاً جداً المرض الذي كان يعاني منه، لقد كان، بالطبع، انساناً سليماً إلى حدٍ ما. وأخذ يلاحظ في الفترة الأخيرة أعراضاً تثير قلقه. وبعد إجراء فحص فيزيائي اعتيادي نصحته بأخذ خزعة من مكان محدد من جسمه، الأمر الذي أسفر عن وضع تشخيص سريع وكشفنا عن المرض، وتوجهنا إلى الأخصائيين في الأورام، الذين نصحوه بإجراء دورة علاجية معينة.

- متى عرف أنه مصاب بالسرطان وكيف كان رد فعله على ذلك؟

في الواقع، كان واضحاً، أنه إنسان- مناضل. لقد اعتبر ما أصابه من مرض مشيئة الله، ومن وجهة النظر هذه كان مريضاً خفيف الظل. فلم يكن يشكو من شئ، لا من

الفحوصات الطبية التي كنا نجريها له ولا من الإجراءات الأخرى، وإن أولئك الذين تعاملوا معه كانوا معجبين بشئ ما خاص فيه. لقد كان البارزاني شخصية، وهذا ماكان المرء يحس به حتى في الأحاديث، ويحس بذلك عندما كان يجلس ويتكلم ويعبر عن أفكاره. لقد كان انساناً متحفظاً، لكنه كان قوياً جداً، وعندما تعرف ما ضيه وما قام به من أعمال فإنك ستزداد اعجاباً به، وهذا ما يحدث دائماً: عندما تعرف شيئاً ما عن ماضي الانسان، فانك تعامله بطريقة أخرى، أكثر مما لا تعرف عنه شيئاً. وأفلح زملائي، الذين كانوا يعملون هنا، التعرف عليه. وقررنا أن أفضل أسلوب نخاطبه به هو "الجنرال"، وبالطبع كنا نعرف اسمه، لكننا كنا نسميه دائماً الجنرال بارزاني. لقد كان هذا اسلوباً مثالياً للتعبير عما كنا نكن له من احترام.

- هل كنتم تتحدثون مع الجنرال عن المرض وحده، أم أنكم تحدثتم معه عن موضوعات أخرى؟

خلال الزيارات الأولى كنا نتحدث عن صحته فقط، حيث كان في غاية الأهمية بالنسبة لنا معرفة كل شئ عن المريض من وجهة نظر الطبية. ثم صار بالامكان التحدث عن أسرته ومنشئه. عندما أجريت له دورة علاجية وكانا نجلاه طيلة الوقت هنا، وفي غاية القلق على صحته، مثلهما مثل الأبناء جميعاً يهتمون بوالدهم. والشئ الجميل أنه كان بالامكان التحدث اليهما. وقد بيننا لهما أننا نقوم بكل مانستطيع القيام به، وهذا ما كان يبعث الطمأنينة والهدوء في نفسيهما، وكان الاثنان يقدمان المساعدة له على مقاومة المرض طيلة الوقت، وهذا ما كان أمراً مدهشاً، لأنه اجتاز خلال هذه الفترة عدة دورات علاجية إلى أن كفت عن اعطاء النتائج وكان ذلك عام ١٩٧٩.

- سنة ١٩٧٩... هذه كانت المرة الأخيرة قدم فيها إلى هنا. ما حدث عندئذٍ؟

كان يرغب في أن يهيأ نفسه للعودة إلى كوردستان، فالعودة إلى الوطن كانت غايته. في هذه المرحلة لم يحدث أي شئ سوى المعالجة المركزة. عاد إلى واشنطن ومنها كان يستعد للسفر إلى طهران أو إلى مكان ما غير بعيد

- هل وصل إلى واشنطن قبل الوفاة؟

مهلاً، كلا، فقد مات...

- هل توفي قبل أن يصل إلى طهران؟

أجل، ثم نقلوا جثمانه إلى طهران.

كانت لديه رغبة شديدة في السفر إلى هناك قبل الوفاة.

أجل، كان يرغب كثيراً، لكنه كان واثقاً من دنو أجله وأن أيامه أصبحت معدودة. هذا ما كان يبعث الأسى والحزن في النفس، فعندما تعرف شخصاً ما فترة طويلة، فإن ذلك يكون صعباً.

- كيف كانت علاقته معكم ومع أسرتكم؟

كان يرغب في معرفة أسماء أبنائنا وما يفعلونه. كانت العلاقات بسيطة وكان مرتاحاً في علاقته معهم. كان إبني الأصغر دينيل محبوباً لديه، وكان يسميه ديني، الذي، بالطبع، قد تعلق به كثيراً. كان الجنرال يأخذه بالأحضان عند اللقاء ويقبل عينيه، وفي رسائله التي كتبها فيما بعد، أو تلك التي كتبها أحد ما بدلاً منه، كان يخاطبه كذلك

- عما كان يتحدثان ديني والجنرال بارزاني؟

كان الاثنان يتحدثان عن الخيل. لقد كان ديني يهتم كثيراً بالخيول، ومازال كذلك إلى يومنا هذا. إنه عضو لجنة وطنية مختصة في سلالات الخيول، وكتب عدداً كبيراً من الكتب الجيدة. كما كانت لدى الجنرال مثل هذه الاهتمامات. وأعتقد، ربما، في سني شبابه كان يسير راكباً بين الجبال. وهكذا كان لهما اهتماماً مشتركاً، كما كان الاثنان يتحدثان عن استخدام الابجدية الكوردية واختلافاتها عن الابجدية اللاتينيةن وذلك لتبادل المعارف فيما بينهما. كان لديه الوقت الكافي خلال وجوده هنا، وكنا نزوره في أيام السبت أو الأحد إن كان يخضع للمعالجة كنا نتحدث عن الكثير من الأشياء الرائعة.

- ماهي قصة الطريق الترابي؟

أجل، إنها قصة مثيرة. لقد دعوناه ذات مرة لضيافتنا، وكنا نسكن خلف خط روتشستر مباشرة. في ذلك الوقت لم يكن الطريق المؤدي إلى دارنا معبداً، بل مغطاة بالحصى. وكان سعيداً لدى رؤيته طريقاً ترابياً. وقال للمترجم بأنه زار مدناً كبيرة، واشنطن مثلاً، وكل مارآه هي الطرق والخطوط والخرسانة. فقد كان يظن أنه لاتوجد طرق ترابية في أمريكا بوجه عام. وكان شجر السماق ينمو على مقربة من الدار، وقال بأن السماق ينمو في وطنه أيضاً ويستخدم في الطعام كتوابل، فسألته مدى طيب مذاقها، لأنني لم أسمع من قبل قط بأن السماق يستخدم في الطعام. فرد بأنه السماق طيب المذاق ان لم يوجد شئ آخر

- كان هنا للمرة الأخيرة عام ١٩٧٩. هل بوسعكم تقديم وصف للموقف؟

كان يبدو مريضاً ومنهكاً، وبدت عليه علامات ضيق التنفس، وهذه كانت أعراض تدهور صحته. فكان الجميع يشعر بالحيرة لدى رؤيته، لأننا كنا نعرف كيف كانت حالته سابقاً. وكان يقول دائماً بأنها مشيئة الله، وكان يرغب في العودة إلى داره وأن تواصل أسرته قضيته وما كان يطمح اليه ولم تكن هناك شكوكاً في انه سيكون كذلك. كان نجلاه مخلصين أشد الأخلاص، بل وكل من من كان يحيط به أيضاً.

- بما كان يتميز عن مرضاك الأخرين؟

نحن نرى عدداً كبيراً من الناس ليسوا أقل روعة، فلقد عانى الكثيرون منهم، وأصبح هذا المكان المثوى الأخير للبعض. ولهذا السبب فإن الناس غالباً ما يظهرون الجانب الأكثر اشراقاً منهم بوصفهم عنيدين وأصحاب إرادة قوية. أتذكر الجنرال كشخصية فذة، وبما أنه كان يعرف نفسه حق المعرفة، فإنه كان يتحمل كل شئ بجلدٍ وصبر وبامتنان وفهم فلسفي عميق. لم يبارحه أقاربه ورفاقه، الذين كانوا في غاية النبل والشهامة، بحيث كانت امكانية لرؤية لوحة كاملة لحياته ومعرفة ماضيه. وبصفة عامة فإن موقفه ازاء كل شئ كان يحظى بالاحترام. لا أتذكر فيما اذا تحدثت، لكنه عندما زارنا في البيت أول

مرة لعبنا في البيستبول. الفناء كان كبيراً. وكان ولداه مسعود وسهاد هناك وكان الاثنان في حركة دائمة. تعلمون انه كلما كان الأبناء صغاراً يتحركون أكثر ولايهدأ لهم بالاً. وجئنا بالمضارب والكرة والكفوف واخذنا نلعب في لعبة المضرب. قضينا وقتاً رائعاً، وكان الجنرال سعيداً طالما أن الجلوس في الفندق أو في البهو لا يعد استراحة. أما نحن فقد أخذنا قسطاً كبيراً من الراحة، والوقت الذي قضيناه كان مثار اعجاب الجميع.

- هل بوسعكم إعطاء وصف له؟

لقد كان إنساناً رائعاً وحيوياً وحقق الكثير، غير أنه لم يرفع من شأن ما قدمه من خدمات وكان عليه تحمل مشقات كثيرة. وإحدى الأمثلة على ذلك هو طريقه إلى روسيا عبر دول عديدة. لقد اجتاز مسافة طويلة، وحينذاك، كما تعلمون، لم تكن هناك مدناً كبيرة ولاموتيلات للمبيت فيها. لقد استطاع تحمل ذلك. وفضلاً عن ذلك، أنه لم يتصرف خلافاً لما هو فيه. وكان يمتلك عقلاً متزناً، وبما أنه كان جنرالاً وقائداً عليه أن يغدو مثالاً يحتذي به، في القيادة عند اللجوء إلى القوة. لم نصطدم أبداً بهذا الجانب من حياته، لكننا كنا نعلم بأنه عليع أن يقترن الحياة العادية مع هذا النوع من العمل.

- هل تحدث لكم عن نضاله؟

أجل إلى حدٍ ما. لكنني عرفت ذلك أكثر من خلال موسى دزهيى ومحمود دوسكى. فقد كان الاثنان يتحدثان بلغة انكليزية جيدة، وتحدثا لي عن المغامرات والصعاب، وفضلاً عن ذلك فإن هذه الأحداث وجدت تعبيراً جيداً لها في الأدب والصحف والمجلات، وواصلت تقصي مصيرها. كنت في غاية السعادة عندما أصبح نجل أدريس رئيساً لمجلس الوزراء. كنت أعرف أدريس معرفة جيدة، لقد كان انساناً رائعاً ومما يؤسف له أن توفي. وأشاهد نجله في التلفزيون بصورة دورية. لكنني لم أراه منذ ذلك الحين. يبدو انني فقدت خيط الحديث... أفكار كثيرة تدور في خلدي، فلست واثقاً من أنني اعتزمت على قول هذا تحديداً.

- هل تتذكرون كيف عرفتم نبأ وفاة البارزاني؟

آه، كان نبأ حزيناً جداً وشجياً جداً بحيث تنهمر معه الدموع.

- عندما سافر البارزاني، ماذا قال لكم وما قلت له؟

كان ذلك وقتاً عصيباً، لأننا جميعاً كنا ندرك أنه لن يبقى طويلاً على قيد الحياة، ولهذا لم يتحدث كثيراً ولم نتحدث نحن أيضاً. ذهبنا نرافقه إلى المطار في وتشستر وودعنا بعضنا البعض ببساطة. كنا نعلم بأننا لن نراه ثانية، وهذا ما كان يبعث في النفس حزناً شديداً. لدى دينيل ذكريات طيبة عن الجنرال، فعندما تحدثت له مساء أمس عن اللقاء الصحفي، اعترف بأنه يعرف الشئ الكثير. فهو مازال يتذكر عندما سأله من أجل من يسعى الجنرال ولخير من. فرد هو قائلاً: "إنني أسعى دائماً من أجل الناس المضطهدين وهؤلاء الذين أقف إلى جانبهم. وهذا صحيح. ويطيب لي جداً أن أسمع بأن دينيل يتذكر ذلك بعد مضى سنوات كثيرة.

- عندما سافر البارزاني هل كان يعرف بأن أيامه معدودة؟

أجل، كان يعلم ذلك جيداً، فقد كان يعرف بأنه لن يعيش أكثر من اسبوع. لقد تواصلت المعالجة لعدة سنوات، الأمر الذي سمح له بان يقضي نمطاً عادياً من الحياة بهذا الشكل أو ذاك. ولما وصل في المرة الأخيرة بات واضحاً بأن معالجة الأمراض الداخلية لاتساعده بعد. لقد استفحل المرض وأصبح يتنفس بصعوبة، ولم يكن بوسعنا بعد إجراء الأحاديث والكلام معه، فحالته لم تكن على سابق عهدها. لقد تحدثنا كثيراً في السنوات المنصرمة عن أسرته وقضايا بلاده وعن مشاريعه وآماله وعن صعوبة العمل مع الناس في واشنطن والتوصل إلى نتيجة.

من مهاباد إلى ضفاف آراس

أريان

تشغل سيرة نضال عشيرة بارزان مكاناً خاصاً في تاريخ الشعب الكوردي البطولي والتراجيدي، والذي دام آلاف السنين. وكانت سيرة النضال هذه في سبيل حرية الشعب الكوردي وشرفه، الذي تعرض لاضطهاد وحشي من جانب الغزاة الاجانب- من الامبراطورية العثمانية وايران الشاهنشاية والبدو- الرحل.

احتدم هذا النضال في النصف الاول من القرن العشرين احتداماً شديداً، بعد أن اتسع نطاقه بزعامة مصطفى البارزاني في الأربعينيات. ويبين الترتيب الزمني لهذه الملحمة بوضوح تام ارادة الشعب الكوردي الراسخة وصموده الرائع وتضحية أبنائه وبناته بأرواحهم. لكن الثوار الكورد وأعداداً كبيرة من أقاربهم كانوا يتركون ديارهم مكرهين تحت ضغط قوى الأعداء المتفوقة عليهم و وحشية التنكيل الجسدي، ممن قد ارغموا على اختيار مصير مرير، مصير اللاجئين والناس الذين يهيمون على وجوههم في مكان آخر.

ولهذا السبب بالذات اضطر عبد السلام البارزاني مع أفراد عشيرته في الماضي البعيد عام ١٩١٤ على البحث عن ملاذ لآلاف الناس في كوردستان الشرقية (الايرانية). وبعد مضي ٣٠ عاماً أقدم على هذه الخطوة شقيقه الأصغر مصطفى البارزاني، الذي سلك لاحقاً أي في عام ١٩٧٥ الطريق المعروف مرة اخرى.

في عام ١٩٤٥ تمكن الجيش العراقي وبدعم الطائرات الحربية البريطانية من تضييق الخناق على قوى المقاومة الكوردية، في وقت كان يتمتع البارزاني فيه بنفوذ راسخ وتأثير كبيرين في كوردستان الجنوبية. وشق آلاف الكورد بما فيهم النساء والاطفال والشيوخ وبقيادة مصطفى البارزاني وشقيقه الشيخ أحمد طريقهم إلى كوردستان الشرقية. وشاءت

الأقدار أن تندمج وحدات البازراني في الوحدات المسلحة لجمهورية مهاباد، التي غدت الهيكل الأساسي القادر على الحرب للمدافعين عن الدولة الكوردية التي طال انتظارها.

وفي أعقاب الاندحار المأساوي وانهيار الجمهورية الكوردية الفتية واعدام قائدها قاضي محمد، ظل مقاتلو مصطفى البارزاني الأمل الوحيد لدى السكان، الذين أصبحوا "مشكلة" للشاه الايراني. لقد وجهت الآلة العسكرية- الايرانية وبكل ما كانت تمتلكه من قوة حربها ضد البارزانيين. لكن الحمكة الدبلوماسية أوحت للبارزاني بان يبادر إلى اجراء المفاوضات مع القيادة العسكرية- الايرانية لكسب الوقت الثمين، وقضاء الشتاء وانقاذ افراد مجموعته. ومع حلول فصل الربيع أمس واضحاً أنه يتعذر تفادي الاصطدامات العسكرية.

وبعد اجتماعات عديدة توصل مصطفى البازاني والشيخ احمد والقادة العسكريون الكورد إلى استنتاج حول ضرورة الانسحاب إلى بارزان ومواصلة الكفاح في جبال كوردستان الجنوبية. وفي هذه الاثناء جرى اتخاذ قرار صعب، بيد أنه كان القرار الوحيد والصحيح في تلك المرحلة وهو أن النساء والاطفال والشيوخ بقيادة الشيخ احمد سيتسلمون للسلطات العراقية (لاحقاً تم تجميع كلهم في معسكرات خاصة).

في ٢٠ نيسان عام ١٩٤٧ انطلقت مسيرة رائعة بمجازفتها والتي كانت تضم ٥٠٠ مقاتلاً بقيادة مصطفى البارزاني، من منطقة نهر غودار في كوردستان الشرقية. ومن البديهي أنه كان بوسع قلة من الناس أن يتكهنوا بأن هذه المسيرة تنتهي على ضفة نهر آراس على الحدود الايرانية- السوفياتية.

بعد أن أجتازت وحدة البارزاني المضائق الجبلية الوعرة وصلت إلى قرية دار صور على الحدود العراقية التركية. وهناك كانت الطائرات التركية تقصف الكورد ورغم ما ابداه سكان المناطق المجاورة من دعم، اضطرت وحدة البارزاني على التراجع إلى الأراضي الايرانية، حيث كانت القوات الايرانية له بالمرصاد. وفي مجرى معركة خاطفة تكبد العدو خسائر فادحة وأصيب مقاتل كوردي بجروح.

اتخذت وحدة البارزاني مواقعها في منطقة أرغوش وبعيداً عن الانظار، حيث كان انصاره ينتهزون فرصة الراحة المؤقتة للتزود بالمءن والمواد الطبية. وسرعان ما تلقى مصطفى البارزاني نبأ يقول بأن تركيا شرعت في حشد قواتها على الحدود وفي تلك المنطقة التي تتمركز فيها الوحدة الكوردية، وأن القطعات الايرانية ايضاً أخذت تتقدم

نحو هذه المنطقة. وقام الطيران العراقي وفي آن معاً بالتحليق من الجنوب، حيث كانت ١٢ طائرة تقصف الانصار.

في ٢١ أيار عبرت البشمركه الكورد الحدود التركية بالقرب من قرية بيداو متقدمة نحو الشمال والشرق. كانت المسيرة عبر هذه المنطقة الجبلية الشاهقة شاقة، ومما زاد الأمر تعقيداً هو وجود عدد من الجرحى جراء القصف الجوي في المؤخرة، والذين كانت جروحهم بليغة. وأوصى البارزاني بتركهم لدى العائلات الكوردية في بيداو للعلاج، وسرعان ما وصل تقرير سيء وهو أن ١٧ مقاتلاً تأخروا عن الوحدة الرئيسية والقى العدو القبض عليهم.

وفي ٢٣ أيار كشفت الطائرات التركية الوحدة الرئيسية هذه المرة في أراضي كوردستان الشرقية وعلى سفوح جبال اسيكر وقامت بقصفها. ولحسن الحظ لم يسفر القصف عن وقوع ضحايا بين أفراد المجموعة، وفي ٢٤ أيار وصلت الوحدة إلى الحدود الايرانية- التركية ثانية.

كان افراد الوحدة من دون مواد غذائية لليوم الثاني، وواصلت حركتها خلال عشرة أيام صوب الشمال وضمن الأراضي الايرانية. غير أن العدو قد عرف خطة البارزاني في الوصول إلى حدود الاتحاد السوفياتي. فقام مصطفى البارزاني بابلاغ مقاتلين حالاً عن خطته. أما القوات المسلحة الايرانية فقد تلقت أمراً وهو ضرورة وقف تقدم الكورد مهما كان الثمن والقاء القبض على البارزاني. ورغم أن القطعات العسكرية الايرانية والجندرمة المتمركزة في المنطقة الحدودية كانت مزودة بأحدث أنواع الأسلحة، فإن القوات الحكومية قد خسرت مع ذلك في معركتها ضد وحدة غير كبيرة بقيادة البارزاني، الذي كان يتجنب وبحكمة الاصطدامات المباشرة.

وانضم عدد من الوطنيين الشباب من عشيرة شكاك إلى وحدة البارزاني في المرحلة الأخيرة من الطريق الشاق والمؤدي إلى الحدود السوفياتية. وقد أخذ هؤلاء الفتية على عاتقهم حراسة الأجنحة والقيام بدور الدليل في المناطق الجبلية الوعرة.

لقد انهكت الاشتباكات العسكرية مع قوى ثلاث دون وفي آن معاً، والحركة المضنية دون توقف، وكذلك التعب والجوع قوى البارزانيين وبددت طاقتهم. ولم يفقد البارزاني حتى في مثل هذه الظروف العزيمة والروح المعنوية، فقد قال لرفاقه: "لو كان لدى

احتياط من المؤن، لكان بوسعي محاربة العدو لفترة طويلة أخرى، كنت أحاربه حتى الطلقة الأخيرة".

أصبح الهدف قريب المنال، لكن مازال شوطاً من الطريق اكثر صعوبة في منطقة مدينة ماكو، وهناك تحديداً وجه البارزاني في ١١ تموز ضربة صاعقة إلى العدو هذه الضربة التي اثارت دهشة الايرانيين ولفترة طويلة بجسارتها ومفاجئتها والتي اسفرت عن هزيمة الجيش النظامي أمام الوحدة الكوردية. أما خسائر الكورد فكانت اربعة قتلى و ١٣ جريحاً.

بعد أن ثابت القيادة العسكرية الايرانية إلى رشدها اثر الهجوم، أرسلت الطيران الذي قام في ١٤ تموز بقصف وحدة البارزاني لكن دون جدوى، فلم تقع ضحايا في صفوف الأنصار.

وفي ١٥ تموز وصلت الوحدة اخيراً ضفاف نهر آراس، وعبر مقاتلان وبأمر من البارزاني النهر سباحة إلى الجانب السوفياتي، وأبلغا حرس الحدود بوصول الوحدة ورغبة قيادتها في العبور إلى أراضي الاتحاد السوفياتي. ورد حرس الحدود بأنهم لايمتلكون صلاحية حل المسألة ميدانياً وقبول الوحدة قبل وصول الأوامر اللازمة من موسكو. وبينما كان أفراد الوحدة ينتظرون ردَ الجانب السوفياتي، تم ارسال عدد من المقاتلين إلى القرى المجاورة للتزود بالمواد الغذائية، الا انهم عادوا خاوي الوفاض، اذا كانت القرى خالية من سكانها، لأن القوات الايرانية قامت باجلائهم جميعاً (غالبتهم من الكورد) كي لا يقدموا المساعدة للبارزانيين. كان الموقف في غاية التعقيد، حيث كان يلوح في الافق احتمال أسر أفراد الوحدة وقتل جميع أفرادها وذلك في ظروف مجاعة حقيقية وخطر بمحاصرتهم من جانب القوات الحكومية. عندها اتخذ قراراً كان هو القرار الوحيد والممكن في تلك الظروف وتوجه إلى انصار بالعبارات التالية: "لم يبق لدينا الخيار ولا الوقت الكافي سوى ان تعبر الحدود سباحة دون أن ننتظر رد موسكو على رسالتنا. علينا بجمع جذوع الاشجار والاخشاب والشروع في ضع عدد من الطوافات وعلى عجل.

وعلى الرغم من التعب الشديد والجوع باشرت قوات البيشمركه بالعمل فوراً وسرعان ما كانت العوامات جاهزة. واجتازت المجموعة الاولى المؤلفة من ١٠٠ شخص الحدود إلى الأراضي السوفياتية، وفي هذه الأثناء كشفت طلائع وحدات الجيش الايراني المتقدمة طوافات البارزانيين، وتراجعت القوات الحكومية اثر معركة قصيرة وعبرت الوحدة كلها،

والتي كان يبلغ عدد أعضائها ٥٠٤ شخصاً، أما القائد فكان بين آخر من غادر الضفة الايرانية من النهر.

هكذا انتهى الطريق الشاق الذي قطعته وحدة شجاعة يتقدمه للشعب الكوردي وبزعامة القائد العظيم مصطفى البارزاني.

لم يظهر الجنرال مصطفى البارزاني وانصاره على انهم عسكريون شجعان على اهبة الاستعداد للقتال ضد قوى متفوقة عليهم وتابعة لثلاث دول من أقوى دول المنطقة وحسب، بل وابدوا صموداً فريداً من نوعه ونظاماً صارماً واستعداداً للتضحية بأرواحهم في سبيل حرية شعبهم وشرفه. ولقد برهن البارزانيون وفي أحلك الظروف على تفوقهم المعنوي والروحي دون منازع على الأعداء. وصار بقاء البارزانيين في الاتحاد السوفياتي الذي استمر ١٢ عاماً تتويجاً لهذه الطفرة التاريخية.

الأسم الذي أصبح رمزاً لنضال الشعب

شاكرو محوي

يقدم التاريخ العالمي عدداً من الامثلة الساطعة على أن القضايا المصيرية للشعب والأمة تتطور وتحقق نتائج لا سابق لها بفضل ما يقوم به الانسان من نشاط إلى حدٍ كبير. وكما لو أن هذا الانسان يجسد أفضل مزايا الشعب ويرفع بشخصيتة اللامعة من مقام الحركة الجماهيرية روحياً. وفي القرن العشرين كان مصطفى البارزاني هو ذلك الانسان، الذي تحلّى بهذه الصفات في كوردستان.

كان لظهور شخصية مثل شخصية البارزاني ضرورة تاريخية في عصر نهوض الحركة التحررية الكوردية. وفي هذا المنحى نشأت ظاهرة من أروع الظواهر في كوردستان وهي أن العصر أنجب بما له من رسالة عظيمة وصعبة في أن معاً، بطلاً خارقاً، مصيره أشبه بمصير شعبه في تفرده، وعلى استعداد للتضحية بكل ما لديه في سبيل قضية تحرير شعبه.

وعموماً يمكن لنا اختزال حياة مصطفى البارزاني وما قام به في عبارة واحدة وهي "حياة وهبت للنضال". فعندما ندرس سيرته الحياتية نكتشف بسهولة اخلاصه الشديد للطريق الذي اختاره ومدى تحمسه له. وفي الواقع كانت تتوفر لديه امكانيات كثيرة كي يعيش حياة هادئة فيها كل اسباب الراحة والرفاهية، لكنه رغم ذلك اختار طريق الزهد والنضال الشاق. لقد كانت حياته المضطربة محفوفة بالاخطار والهواجس والحرمان ومختلف الصعوبات. ومن المهم التأكد على أن اختياره لهذا الطريق لم يكن محض صدفة، ولا نتيجة الظروف التي مربها، بل عن ادراك تام، وهذا ما كان ينبع من إخلاصه الشديد لقضية تحرير شعبه. فالانتهاكات الدموية ومختلف أشكال الارهاب والتعسف والاضطهاد، التي مارستها الانظمة المعادية للكورد ضد المناضلين في سبيل التحرر الوطني وضد السكان المسالمين كانت تقع في كل مكان. فلم يعرفها مصطفى البارزاني سماعاً فقط، بل عانى منها شخصياً عندما وجد نفسه مع والدته في سجن من السجون التركية وهو طفل لم

يتجاوز الثانية من العمر بعد. لقد تركت أعمال التعسف الفظيعة والوحشية التي مارسها المضطهدون الأجانب ضد الكورد أثراً عميقاً في تكوين طبيعة مصطفى البارزاني في طفولته المبكرة، فقد كان موهوباً وحساساً جداً. وهكذا لم تبق واحدة من السمات المميزة لشعبه والتي نوّه اليها شرف خان بدليسي في القرن السادس عشر خارج دائرة ملاحظته وهي أن الكورد شعب مضطهد، لكنه شعب لايخضع ابداً. ومما يدل على ذلك هو تلك الواقعة التاريخية وهي أن مجموعة كاملة من الامارات الكوردية لها جميع وظائف التشكيلات الحكومية المستقلة في وقت كانت كوردستان تحت سيطرة الامبراطورية العثمانية وايران الشاهنشاهية. فالكورد كانوا يرفضون الاضطهاد دائماً. وهنا نلاحظ أنه رغم فشل حركات الكورد التحررية لم يستبد اليأس بهم ولم يفقدوا الامل في النهاية الحميدة لنضالهم العادل ذلك ان خسارة المعركة لاتعني خسارة الحرب. كان مصطفى البارزاني يتصف بهذا التفكير وبهذه العقلية اللذين وجدا تعبيرا لهما في ايمانه الراسخ بانتصار قضية تحرر شعبه.

وبهذا الشكل يمكن الجزم بأن روح عدم الخضوع كانت اهم سمة في طبيعة البارزاني. لقد كان يستمد قوته من التقاليد التحررية المجيدة لنضال شعبه. كما كان تاريخ اسرة البارزانيين وتقاليدها مصدراً آخر لوطنيته واخلاصه لقضية شعبه. وفي هذا الشأن يمكن القول بان مصطفى البارزاني لم يواصل التقاليد التحررية لشعبه، بل تقاليد بيته واسرته التي ساهم عدد كبير من أفرادها في النضال التحرري مساهمة كبيرة، وضحوا بحياتهم في سبيل هذه القضية المقدسة. ففي أثناء عملية النضال التحرري ضحى ٣٧ فرداً من أسرة البارزاني بحياتهم من أجل قضية الشعب. لقد كان الشيخ تاج الدين وعبد السلام البارزاني وغيرهما من ممثلي هذه العشيرة معروفين على نطاق واسع بين الكورد، حيث قاد عبد السلام البارزاني الشقيق الأكبر لمصطفى البارزاني الانتفاضة في بهدينان عام ١٩١٤، وطرح عدداً من المطالب المحددة في الادارة الذاتية الداخلية للكورد. نكلت السلطات التركية بالثوار تنكيلاً وحشياً، أما عبد السلام بارزاني فقد أعدم في الموصل. لقد ولد مصطفى البارزاني في آذار عام ١٩٠٣ وفي أسرة لها مثل هذه التقاليد.

عقب الحرب العالمية الاولى جرى تقسيم كوردستان من جديد، فقد ضمت كوردستان الجنوبية إلى عداد الدولة العراقية المتكونة حديثاً، والواقعة تحت الانتداب البريطاني. ومنذ ذلك العهد أخذوا يطلقون تسمية شمال العراق على هذا الجزء من كوردستان. ومع ان ضم كوردستان الجنوبية (ولاية الموصل) إلى العراق تم بعد اخماد حركات الكورد التحررية، فان ذلك، حسب توصية عصبة الامم، كان مشروطاً بوعد بغداد الاعتراف

بمجموعة من حقوق الكورد القومية. والنزاع كان قائماً على الدوام بين بغداد وقوات الانتداب من جهته والكورد من جهة أخرى، هذا النزاع الذي مراراً ما كان يتحول إلى معارك مسلحة ضارية، والسبب يعود إلى انتقاص حقوق الكورد.

بدأ مصطفى البارزاني نشاطه السياسي العاصف في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات. ففي نهاية العشرينيات ارتفعت راية النضال التحرري في بارزان، وذلك عندما أخذت ثورة الشيخ محمود البرزنجي، أبرز قائد كوردي تنحسر ضد الانكليز والسلطة العراقية. وكان مصطفى البارزاني أقرب المستشارين لشقيقه الأكبر أحمد البارزاني زعيم الانتفاضة. وفي ربيع عام ١٩٣١ قاد الشقيقان أحمد ومصطفى البارزاني ثورة شعبية قوية عجزت القوات المسلحة العراقية على اخمادها وحسب أقوال الباحث الانكليزي لونكريك فإن وحدة من الجيش العراقي وصلت إلى بارزان نفسها قد منيت بالهزيمة وانها تفادت هزيمة ساحقة بفضل تدخل الطيران الانكليزي وحده1 ولابد من التنويه إلى أن معظم حركات الكورد التحررية في سنوات الانتداب البريطاني وما بعدها قد أخمدت بفضل تدخل القوات المسلحة البريطانية ولا سيما القوى الجوية. وان مايثير الفضول في هذا الشأن هو تلك العبارات الواردة في الصحيفة البريطانية "تايمز" في عام ١٩٢٣، التي كتبت تقول: "قبل عامين اتخذت اجراءات فعالة لتوطيد أركان النظام الملكي، وحتى قبل ١٢ شهراً كانت مهمة من سيحكم بارزان، الشيخ احمد والآغا أم الملك والوزراء (العراقيون- شاكرو محوي) موضع شك2. لقد اقتنع مصطفى البارزاني وغيره من القادة الكورد أكثر فأكثر من أن أية حركة تحررية كوردية تنظر القوى المعادية للكورد إليها على أنها جزء من النضال الكوردي الشامل وتقوم بتحديد موقفها منها بناءً على ذلك. وفي هذا الاتجاه فإن مواقف تركيا من حركات التحرر الكوردية في العراق مؤشر على ذلك. وحسب شهادة المؤرخ اللبناني يوسف مالك قامت السلطات التركية خلال انتفاضة بارزان الواردة ذكرها آنفاً، بإعدام ١٠٠ شخص دون محاكمة او تحقيق كانوا قد عبروا الحدود إلى كوردستان تركيا3. وبعد التنكيل بالحركة البارزانية في عامي (١٩٣١ – ١٩٣٣) قام النظام العراقي بنفي أحمد ومصطفى البارزاني ولفترة طويلة، حيث أمضيا في المنفى عشر سنوات في مدن الموصل، والناصرية، والحلة، والديوانية وكركوك وأخيراً في السليمانية ومنها انتقل مصطفى البارزاني عام ١٩٤٣ الى منطقة بارزان وذلك بمساعدة

1- St. Ongrigg Iraq 1900 to 1950 L 1953 P. 196.
2- "Times" (London) 09. to 1932
٣- يوسف مالك، كوردستان أو بلاد الكورد. بيروت، ١٩٤٥ صـ٢٣ (الترجمة من العربية)

حزب "هيوا" الكوردي. وفي عام ١٩٤٣ قاد الانتفاضة ضد نظام بغداد وحماته الانكليز، وأرغمت الانتفاضة التي اتخذت طابعاً خطيراً العاصمة بغداد وأوصيائها الانكلير على الدخول في مفاوضات سلمية أسفرت عن هدنة عام ١٩٤٣ اعترفت فيها بحق الكورد في الادارة الذاتية الداخلية على نطاق محدود، لكنها كانت خدعة تكتيكية، وسرعان ما رفضت الحكومة العراقية تنفيذ شروط الاتفاقية مع الكورد. وقد أدى هذا الغدر إلى انتفاضة كوردية جديدة عام ١٩٤٥ والتي اخمدت وبمساعدة نشيطة من الانكليز. عبر مصطفى البارزاني ومئات من انصاره الحدود الى كوردستان ايران، حيث شاركوا في قيام جمهورية مهاباد. فقد كان مصطفى البارزاني إحدى الشخصيات البارزة في الجمهورية الكوردية الفتية، ومنحت له رتبة عسكرية هي رتبة الجنرال.

ارتبطت جميع الحركات التحررية الكوردية الهامة في كوردستان الجنوبية باسم مصطفى البارزاني بوجه عام والتي أعقبت ملحمة النضال التحرري بقيادة محمود البرزنجي ومن الطبيعي جداً أن عملية الكفاح التحرري. الوطني لم تكن تمثل نزاعاً مسلحاً نشب بين نظام الحكم في بغداد من جهة والقوى الكوردية الوطنية من جهة أخرى، فهي كانت تجسد مجموعة من المسائل والوقائع التي تعرضت للارتقاء وتغيرت اشكالها وفق ظروف تاريخية محددة.

وفي الوقت الذي كان فيه مصطفى البارزاني مناضلاً حازماً لايلين له قناة في سبيل تحرير شعبه، فإن اهداف الحركة الوطنية ومهامها، التي كانت ذاتية واعتباطية تتجاهل الظروف الموضوعية وصعبة التحقيق في المرحلة المعنيةن كانت غريبة عليه. لقد راى قيام حواجز جديدة وصعبة الاجتياز على طريق تجسيد حقوق الكورد القومية في المرحلة التي أعقبت الحرب العالمية الاولى. واذا كانت الحركات الكوردية تواجه فيما مضى الامبراطورية العثمانية وايران، فإن الكورد يواجهون في الوقت الراهن أربع دول، وفضلاً عن ذلك لم يزداد وضع القوى الوطنية الكوردية تفاقماً بسبب واقعة التقسيم الجديد لكوردستان وحدها، بل جرت في المرحلة المشار إليها توحيد الاثنيات المسيطرة في الدول المقسمة لكوردستان. وارتقى هذا التراص في ظل الازدياد الحاد للنزاعات القومية اليمينية في السياسة والتي تؤكد على عدم المهادنة إزاء حقوق الكورد القومية وطموحاتهم. وكانت الكمالية في تركيا والايديولوجية البعثية في العراق وسوريا والقومية المتعصبة في ايران الشاهنشاية ومن بعدها الخمينية تجسيداً لهذا الشكل المتطرف للقومية. لقد حرمت علاقات هذه الدولة الاقتصادية والسياسية- العسكرية مع دول الغرب (تركيا وايران قبل الثورة الاسلامية) ومحاولاتها المحمومة والرامية الى استغلال المسائل الافتراضية والمختلقة

احياناً على أنها امور مسلم بها حول "معاداة الامبريالية" و"الاشتراكية" في العلاقات مع الدول الاشتراكية (العراق وسوريا) الكورد عملياً من فرص تلقي اي دعم لهم من الشرق ومن الغرب على حدٍ سواء.

ومن الملاحظ أن مصطفى البارزاني قد اشار خلال لقائه مع ممثلي CNN أكثر من مرة إلى عزلة الكورد التامة في معركتهم المريرة ضد تحالف الدول المعادية لهم، والى غياب أي دعم ملموس من الخارج هذا العامل الذي كان مؤثراً في جميع الحركات الوطنية- التحررية طيلة ١٥٠ عاماً الأخيرة.

وطرح البارزاني خلال قيادته للحركات التحررية مهمة التوصل إلى حقوق الكورد القومية المتمثلة في الادارة الذاتية وضمن اطار الدولة العراقية اخذاً بعين الاعتبار هذه العوامل جميعاً. ولكن كيف كان الأمر عند طرح مسالة تتعلق بشرعية رفع الكورد شعار إقامة دولة كوردية مستقلة؟ هذا الموضوع الذي يجري تناوله من وقت إلى آخر في اوساط كوردية وغير كوردية على حدٍ سواء. واذا كانت هذه المسألة تثير اهتمام الباحثين المستقلين والسياسيين في اطار توضيح أهداف الحركة التحررية الكوردية وطابعها في المرحلة المعاصرة، فهي كانت بالنسبة لتلك الدول التي تقتسم كوردستان ذريعةً لنشر فكرة النزعة الانفصالية لدى الكورد ومشاريع إقامة دولة كوردية مستقلة.

ومن الطبيعي أن تحظى هذه المسألة باهتمام البارزاني أيضاً. فمن اليسير ان نستقصي في مواقفه وأقواله الكثيرة اثر تلك الفلسفة التي بمقتضاها لا يحق لأحد حرمان الشعب الكوردي من حلم إقامة دولته القومية إذ أن لدى الكورد مجموعة كاملة من العوامل مرتبطة بشرعية هذا الطلب، غير ان تقديم هذا الهدف او غيابه لايجعل بلوغه قريباً او بعيدا، فكل شئ مرتبط بالظروف الملموسة وبالعوامل الداخلية والخارجية التي تقرر مصير هذه المهمة التاريخية. يمثل تاريخ القضية الوطنية الكوردية لوحةً مثيرة للفضول، فمنذ قيام الدولة العراقية (عام ١٩٢٠) ولغاية عام ١٩٧٥ وقعت نزاعات مسلحة بين الأنظمة العراقية الحاكمة والقوى الوطنية الكوردية، هذه النزاعات التي استمرت طيلة ٢٧ عاماً أي ما يعادل نصف عمر الدولة العراقية. ويجدر بالذكر انه عقدت خلال هذه المرحلة أربع اتفاقيات (عام ١٩٤٢، ١٩٦٤، ١٩٦٦ وعام ١٩٧٠) بين المشاركين في الحركة الوطنية التحررية الكوردية والحكومات العراقية المتعاقبة وهي: حكومة نوري السعيد، وعبد السلام عارف، وعبد الرحن البزاز، وأحمد حسن البكر وصدام حسين، والتي نصت على ايجاد حل سلمي وعادل للقضية الكوردية. وكان لمصطفى البارزاني حضوراً في بدايات جميع هذه الاتفاقيات من الجانب الكوردي. وسيتأثر بالاهتمام واقعة متميزة اخرى وهي

أن الحكومة كانت تقوم باستغلال جميع هذه الاتفاقيات المنعقدة مع الكورد لكسب الوقت بغية الإعداد لمرحلة جديدة في وضع حلٍ للمسألة الكوردية حلاً قسرياً. وسيظل ناقصاً تقويم سلوك الحكومة العراقية في المسألة الكوردية اذا لم يتم الانتباه إلى الدور الذي تقوم به دول الجوار في تحديد مصير الكورد العراقيين. لقد أثرت هذه الدول، ولا سيما تركيا، وما زالت تؤثر على سياسة بغداد إزاء المسألة الكوردية تأثيراً مكشوفاً. وفعالاً ولأسباب معروفة، الأمر الذي تجلى في منع تطور عملية المفاوضات أو في استعدادها لتقديم الدعم إلى بغداد بغية ايجاد حل قسري للمسألة الكوردية. ففي أثناء اجراء عمليات عسكرية واسعة النطاق في كوردستان العراق عام ١٩٦٣ صرح ممثل الرئيس التركي غورسيل عقب اجتماع ملس الأمن القومي ما يلي: ((سنتعاون مع الحكومة العراقية لإلحاق الهزيمة بالبارزاني))[1] ولابد من ملاحظة وجود تناقضات بين الدول المقسمة لكوردستان حول عدد من المسائل بصورة تقليدية. وحاول مصطفى البارزاني مراراً استغلالها لصالح الحركة الكوردية، لكنه لم يفلح في ذلك دائماً، والسبب الرئيسي يكمن في أن الدول المذكورة آنفاً كانت تضع محاربة الحركة الكوردية ضمن اولويات سياستها. وفي عام ١٩٦٣ اجتاز البارزاني والقوى التي قادها وشعب كوردستان اختباراً صعباً، فقد قرر البعثيون، الذين استلموا مقاليد السلطة في البلاد، ومجموعة عبد السلام عارف العسكرية وضع حل ((لقضية شمال العراق))، بعد أن قاما بتصفية ممثلي النظام السابق والقوى التقدمية في العراق. لقد كان النظام العراقي يحظى في حملته العسكرية الشرسة التي لم تكن لها سابقة بوحشيتها واتساع نطاقها، بتأييد الدول المجاورة والدول القربية وامريكا على حد سواء، هذه الدول التي كانت ترى في الحركة الوطنية الكوردية ((احتياطياً)) موالياً للشيوعية.

وربما لم يكن للجبهة التي حاربت القوى الوطنية الكوردية عام ١٩٦٣ مثيلاً لها من حيث سعة نطاقها وفي آن معاً. ان تفاصيل هذه المعاناة هي مادة لدراسة خاصة، ومما ينبغي التاكيد عليه هو ان هذه المرحلة العسكرية والسياسية والدبلوماسية من نشاط مصطفى البارزاني وما بذله من جهود فعالة لرص صفوف الشعب باسره ضد عدو رهيب وجائر ستدخل في التاريخ كامثلة على شجاعة وبطولة لا نظير لها.

من السهولة بمكان ملاحظة طرق استخدام القوة لحل المسألة الكوردية، التي فرضتها الدول التي تقتسم كوردستان على الكورد. وهنا تجلت المواهب الخارقة لمصطفى البارزاني

---

[1] - "مرمره" (باللغة الأرمنية) ١٩٦٣/٦/٢٠

بصفته قائداً عسكرياً، وللتأكيد على موهبته العسكرية نورد مثالين من التاريخ الحافل لنشاطه العسكري. ففي الخمسينيات أصبحت سيرته الشهيرة من مهاباد إلى جولفا محط أنظار الخبراء العسكريين وفي عام ١٩٤٧ وعقب انهيار جمهورية مهاباد الكوردية رفض مصطفى البارزاني مطالب السلطات الايرانية له بالاستسلام وقام مع وحدته التي تضم عدة مئات من الاشخاص وخلال عدة أشهر بخوض معركة غير متكافئة مع الوحدات العسكرية الايرانية والتركية والعراقية، وتمكن من كسر طوق حصارها والدخول إلى اراضي الاتحاد السوفياتي في منطقة جولفا.

حقاً تعد مسيرة مصطفى البارزاني هذه إحدى التجليات الساطعة لموهبة قائد عسكري رائعة. فلقد تمكن البارزاني وفي ظروف صعبة للغاية، حيث الجبال الشاهقة وبرد الشتاء القارس وهو يخوض المعارك ضد القوات الايرانية والتركية من الوصول بوحدته (بينها كان عدد كبير من الناس العزل) إلى اراضي الاتحاد السوفياتي.

لكنهم عانوا هنا ايضاً مصير المنفيينن اذ تم نفي البارزاني وأنصاره وبمبادرة السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأذربيجاني آنذاك م. باغيروف إلى آسيا الوسطى، حيث عاشوا فيها حياة فقر مدقع. ولم يتم تحسين وضعهم الا بعد موت ستالين. وعلى الرغم من ذلك كله كان مصطفى البارزاني يتحدث دائماً بعبارات الامتنان والعرفان بالجميل للاتحاد السوفياتي الذي منحه حق اللجوء السياسي.

والمثال الثاني هو ان حكومة عبد السلام عارف قررت اثر خرقها للاتفاقية الموقعة في ١ شباط عام ١٩٦٤ مع البارزاني "حل قضية الشمال نهائياً" وبقوة السلاح. وفي اثناء اندلاع الحرب بين الكورد والنظام العراقي في شتاء وصيف عامي ١٩٦٤- ١٩٦٦ شرع أركان الجيش العراقي بعد استعداد طويل وشامل في تطبيق ما يسمى "بخطة عبد العزيز العقيلي" (كان العقيلي قائداً لأركان الجيش العراقي). ولم تثر نجاحات العملية العسكرية وعلى نطاق واسع ضد قوات البارزاني شكوكاً لدى القادة العسكريين العراقيين، هذه العملية العسكرية التي جرى الاعداد لها بدقة. كان القادة العسكريين على يقين راسخ من احراز النصر على الكورد، بحيث أنهم توجهوا إلى السلطات الايرانية والتركية بعدم منح اللجوء لمصطفى البارزاني وأنصاره بعد الهزيمة المرتقبة. والمعركة التي وقعت في أوائل أيام عام ١٩٦٦ من اجل السيطرة على الطريق الاستراتيجي الهام رواندوز- حاجي عمران ومن أجل السيطرة على القمتين الهامتين زوزك وهندرين قد استمرت عدة أيام وانتهت بانتصار ساحق للكورد. لقد أحرزت قوات البشمركه بقيادة مصطفى البارزاني نصراً مؤزراً على القوات العراقية المتفوقة على الكورد عدداً وعدةً، وذلك بعد أن لجأت

البيشمركه إلى استخدام اشكال تكتيكية فعالة تم الاعداد لها جيداً في خوض المعارك. لقد كانت هذه المعركة من اكبر المعارك التي شهدتها كوردستان العراق منذ بدء العمليات العسكرية في ايلول عام ١٩٦١، وأدى النصر الذي أحرزه الكورد في هذه المعركة إلى الغاء خطط انصار حل المسألة الكوردية حلاً عسكرياً. واضطرت حكومة عبد الرحمن البزاز في حزيران عام ١٩٦٦ على عقد اتفاقية مع الكورد لحل مسألتهم حلاً سلمياً، هذه الاتفاقية التي ظلت كغيرها حبراً على ورق.

ومما لاجدال فيه أن اتفاقية ١١ آذار عام ١٩٧٠ بين الكورد والحكومة العراقية تعد من أهم انجازات النضال الطويل والعنيد الذي خاضه الكورد بقيادة مصطفى البارزاني، هذه الاتفاقية التي اشتهرت باسم "اتفاقية الحكم الذاتي الكوردي" فقد لحضت هذه الوثيقة التاريخية مدة تسع سنوات، خاض الكورد خلالها كفاحاً مسلحاً في سبيل الحكم الذاتي. وهذا ماتم اقراره في قانون البلاد، وجرى للمرة الأولى في تاريخ نضال الكورد التحرري في جزء من أجزاء كوردستان المقسمة. حقاً كان دور مصطفى البارزاني عظيماً في بلوغ هذا الهدف. ومما يؤسف له أن الكورد لم يتمكنوا بحكم مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية من استغلال منجزات نضالهم استغلالاً تاماً. وان مافعلته الحكومة العراقية في حصر الحكم الذاتي للكورد ضمن أطر إدارة ذاتية منقوصة جاء نتيجة تواطؤ قوى خانت الكورد في مرحلة حاسمة من مراحل نضالهم. وفي الوقت الذي نعطي الدور العظيم الذي قام به مصطفى البارزاني حقه في التوصل إلى اتفاق حول الحكم الذاتي للكورد، فانه ينبغي ان نلاحظ أيضاً تلك العجالة في ضمان الظروف لتنفيذ الاتفاقية التي تم التوصل اليها تنفيذاً كاملاً وغير منقوصة، آخذين بالحسبان دروس الماضي وليس غدر الحكومة العراقية في المسألة المتعلقة بتنفيذ الاتفاقية التي تم التوصل اليها وحده ومما هو أكثر أهمية هو أن نظام بغداد قد أقدم في عام ١٩٧٠ على توقيع الاتفاقية مع الكورد كرهاً وليس طواعية. ويظهر أن ذلك الزم الكورد في تحديد فرص النظام الحاكم للتراجع عن الاتفاقية الموقعة في أقل تقدير، ان لم يتم الغاؤها. والكلام هنا يدور عن مواعيد اعداد قانون الحكم الذاتي لكوردستان العراق. فقد كان بوسع الحكومة العراقية في تلك الفترة، حسب ما نراه القيام باعداد قانون الحكم الذاتي مع الجانب الكوردي خلال نصف عام أو عام كحد أقصى، فإنها خصصت لهذه القضية ٤ أعوام. وأستغلت الحكومة هذه الفترة

الزمنية الطويلة والتي لم تكن مبررة، لكسب الوقت وتجميع قواها بغية فرض حكم ذاتي منقوص على الكورد، الأمر الذي أدى إلى نزاع جديد.

ومع ذلك لابد من الاشارة الى الطابع المعقد والمتناقض للموقف عند صدور القانون رقم ٣٣ بشأن الحكم الذاتي للكورد في آذار عام ١٩٧٤، هذا القانون الذي كان مجحفاً بحق الكورد. والمسألة تكمن في أن الاستياء الجماعي للجماهير الواسعة في كوردستان العراق من العمل الغادر للحكومة العراقية كان شديداً في عنفوانه، بحيث أن مصطفى البارزاني نفسه رغم ماكان يتمتع به من نفوذ قوي لم يكن قادراً على منع الكورد في ما اعتزموا عليه في الحفاظ على ثمار نضالهم الطويل... لكن، مما يؤسف له، أن هذا ما يحدث أحياناً، وهو أن العدالة والحق ليسا كافيين لتحقيق النصر في المواقف المتنازع عليها.

كان مصطفى البارزاني وقيادة الحزب الديمقراطي الكوردستاني يدركان جيداً الجهة التي يتعاملان معها، آخذين بالحسبان الانعطافات المحتملة والسيئة في سياسة نظام الحكم في بغداد ازاء المسألة الكوردية. ومما يرثى له أن الكثير من خطط البارزاني السياسية والدبلوماسية بقيت دون تنفيذ، لأن الكورد ظلوا وحدهم في كفاحهم المسلح ايضاً، فلم تكن معهم تلك القوى الكبيرة التي تضمن نجاح الخطوات السياسيةز ومما لاريب فيه أن قائد الحركة الكوردية كان يدرك أن فكرة الحكم الذاتي لكوردستان لاينبع من سياسة النظام الحاكم وإيديولوجيته، بل تتجسد عن طريق نضال عنيف يخوضه الكورد. وتكاد تكون الانعطافات في السياسة الحكومية أمراً لا مناص منه، وهذا بالذات كان سبباً لذلك العرض الذي اقترحه البارزاني أكثر من مرة حول توفير ضمان دولي للحكم الذاتي الكوردي في العراق، وقد اقترح آنذاك أسماء عدد من الدول هي: الاتحاد السوفياتي ومصر والهند بوصفها دولاً تكفل هذا الضمان. لكن، وآ اسفاه، ظل طلب الكورد العادل بلا اكتراث.

وعلى هذا النحو أخفق الكورد في نزاعهم المسلح في كوردستان العراق عام ١٩٧٤- ١٩٧٥ وبعد إقامة قصيرة امضاها البارزاني في ايران انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث توفي هناك وبتاريخ ٢ آذار عام ١٩٧٩ في إحدى مستشفيات واشنطن، ودفن في كوردستان العراق، وفي قبر متواضع حسب وصيته، مثلما كانت حياته كلها متواضعة...

كان مصطفى البارزاني شخصية غير اعتيادية، وحازماً في طبعه، مخلصاً لقضية شعبه اخلاصاً شديداً، غير أنه كان متسامحاً مع الطرف المقابل في المواقف، عندما كان ذلك يتطلب مصالح حركة الكورد الوطنية، كما أنه تحلى بشجاعة فائقة وكان نزيهاً. إن جميع هذه الصفات رفعته إلى مقام قائد قومي يحظى بإعتراف الجميع. ولم يعاني من "الزعامة" ذلك المرض الذي انتشر في الشرق وعلى نطاق واسع. فلم يكن نفوذه الواسع

وما يكنوا الناس له من احترام أمراً مفروضاً على الشعب. ومما جعله يشتهر بين الناس بطلاً شعبياً وقائداً لحركة الوطنية هو الطابع الكوردي الاصيل الذي تجلى في وفائه للعهد الذي يقطعه على نفسه والزهد في الحياة الشخصية والشجاعة والحكمة الشعبية. لقد كان الجنرال مصطفى البارزاني يتحلى بصفات كان يتحلى بها القادة العسكريون العظام. من المعروف أنه كان مراراً يشارك شخصياً في المعارك الجارية خلال سيرورة نضال التحرر الوطني، ومراراً ما كان يعرض حياته للخطر، ويشارك أتباعه الآلام والصعوبات المتعلقة بالكفاح الشاق جداً الذي كان يخوضه الشعب الكوردي.

والوقائع التالية لها أهميتها في صياغة صورة متكاملة لمصطفى البارزاني. فمنذ نهاية العشرينيات أمضى أكثر من ١٦ عاماً في معمعان الكفاح المسلح، وأمضى ٢١ عاماً في المنافي، كما دبر عبد الكريم قاسم محاولة اغتياله في عام ١٩٦٢، وعقب اعلان النظام البعثي حرباً شعواء على الكورد عام ١٩٦٣، عرضت بغداد مكافأة مالية قدرها ١٠٠ ألف دينار (٢٥٠ ألف دولار) لكل من يأتي بالبارزاني حياً أم ميتاً. وفي عام ١٩٧١-١٩٧٢ وبعد الاتفاقية التي تم التوصل اليها مع الحكومة قامت الحكومة العراقية بمحاولتين لاغتيال البارزاني.

كما ان وفاته في واشنطن في آذار عام ١٩٧٩ محاط بهالة من السرية. فمن المعروف أنه كان على مصطفى البارزاني الوصول إلى ايران في ٦ آذار ١٩٧٩ وبدعوة من آية الله الخميني، في حين أنه توفي بصورة مفاجئة في ٢ آذار. وفي هذا الاطار سيتأثر بالاهتمام وضع القوى السياسية حول المواقف العاصفة في ايران من وجهة نظر أمريكا والعراق... وليس صعباً ملاحظة ان وصول البارزاني الذي كان مقرراً إلى ايران كان من شأنه إدخال شحنة حساسة في تطور الأحداث. ومن البديهي أن البارزاني كان يصل ايران ولديه نوايا وخطط محدودة حول "الشؤون الكوردية"، والمرتبطة بالنظام العراقي الذي كان الخميني يقف منه موقفاً عدائياً. وهكذا فإن وجود البارزاني في ايران بوصفه "حليفاً" للخميني لم يكن يرق لبغداد ولا واشنطن... العامل الذي يكمن في أساس التخمينات والاشاعات الكاذبة بشأن وفاة مصطفى البارزاني المفاجئ.

تقدم حياة مصطفى البارزاني وما قام به من أعمال مادة غنية لإجراء دراسة مستفيضة والتوصل إلى استنتاجات وتعميمات. فوجوده خلال فترة طويلة في غمرة الكفاح الوطني التحرري، الذي خاضه الشعب الكوردي، وأجتيازه مراحل جديدة من تطور هذه الحركة، واحساسه بتأثير العوامل الخارجية والداخلية على عملية النضال الكوردي لايفسح المجال أمام تقويم ود الحركة التي قادها ومالها من تأثير على مصير

الشعب الكوردي وحسب، بل التوصل إلى استنتاجات وإبراز أكثر الدروس أهمية، والتي تمثل عند أخذها بالحسبان اهمية استثنائية للنضال الوطني اللاحق.

إن أول مايلفت الانتباه صفة عامة في سلوكه وطبعه وهي أنه كان يأخذ الوقائع بعين الاعتبار ولايستبق الاحداث، ذلك العامل الذي مازال يلعب دوراً مصيرياً في نضال الكورد الوطني. وربما لم يبلغ احد من قادة الحركات التحررية الكوردية تلك النتائج التي بلغها مصطفى البارزاني في كفاحه الوطني. وينبغي الإشارة هنا إلى أن الكلام لايدور حول الاعتراف الدستوري بحقوق الكورد القومية وحسب، هذا الحدث الذي لا سابقة له في التاريخ الكوردي كله. كما لايقل أهمية ذلك الجانب وهو ان الحركة التي قادها مصطفى البارزاني قد نالت اعترافاً دولياً. إذ أصبحت المسألة الكوردية موضوعاً للمفاوضات علنيه وسرية، رسمية وغير رسمية. وقصارى القول فإن الدور الذي لعبه هذا القائد البارز في الحركة الوردية هو دور له شأن عظيم في عملية جعل القضية على نطاق واسع، والتي تلعب دوراً جوهرياً في مصير الشرقيين الأوسط والأدنى.

كان البارزاني شخصية واقعية، لديه القدرة على تقويم دور جميع العوامل الخارجية والداخلية ودلالتها، التي حددت مصير النضال الذي كان يقوده. وهذا ما تجلى في قدرته على المناورة في موقف متناقض وصعب، واستغلال التناقضات القائمة بين الدول التي تقتسم كوردستان ولصالح الحركة الوطنية الكوردية. ومما لاشك فيه أنه استطاع انجاز الكثير في هذا المضمار، وهذا ما وفر الظروف المناسبة لتطور الحركة الوطنية الكوردية. لكن للعدل والانصاف ينبغي التنويه إلى أنه قد أخفق أيضاً في خططه لاستغلال التناقضات بين دول المنطقة والتناقضات بين الدول العظمى. وهنا يتعين على الباحث الموضوعي والمنصف أن يتجنب موقف مراقب ساذج، وعدم التوصل إلى استنتاجات متسرعة، ومحاولة الغور في ما هو السبب الأول للأخطاء المرتكبة في التقدير. عندئذ تتكشف أمام أنظار الباحث مجموعة من العوامل ليست مرئية دائماً، التي لايمكن لها أن تكفل تجنب حتى أكثر شخصية حكمة ارتكاب الأخطاء في الحسابات ونعيد إلى الأذهان ولو تلك الواقعة أنه هل كانت لدى مصطفى البارزاني وقيادة الحركة الكوردية في ذلك الوضع المتشابك والسياسي الداخلي للعراق ولا سيما في اطار العلاقات القائمة بين أربع دول في المنطقة، وفي وقت لم يحل فيه مصير عدد من المسائل والتي كانت مصيرية أحياناً على ساحة القتال، بل في ميدان عمل المخابرات السرية، تلك الامكانيات التي كانت تمتلكها المخابرات التركية (ميت) والسافاك الايرانية والمخابرات العراقية والسورية؟ وما يعرفه الجميع هو أن الكفاح المسلح والنضال السياسي العلني ما هو سوى جزء من السياسة الكبرى

التي تمارس حول قضية الكورد القومية. وتنسب عدد كبير من المسائل (أحياناً ما تكون مصيرية) إلى مجال ما يسمى "بالنضال السري". وهنا فإن امكانيات الجانب الكوردي مقارنة مع ما تمتلكه الأنظمة التي تتنازع معها سواءاً كان ذلك من وجهة نظر القاعدة المالية أم من وجهة المنفذين- المحترفين هي متواضعة.

لم تسمح السياسة السوقية وضع تقويم نشاط مصطفى البارزاني وما يرتبط باسمه من أحداث تقويماً موضوعياً. وهذا ما يتم توضيحه ومن غير صعوبة تذكر في تقويم نشاطه في مرحلة الحرب الباردة، ففي كثير من المطبوعات المنشورة في تلك المرحلة لم توضع شجاعته الشخصية واخلاصه لقضية شعبه والظروف الصعبة غير الاعتيادية التي قاد فيها نضال شعبه محل خلاف، لكن إعطاء تقويم موضوعي يحيط بكافة جوانب نشاطه ولاسيما دوره في تطور نضال الكورد الوطني ظل بعيداً عن اهتمام المحللين والباحثين.

يلاحظ أن أحد أسباب غياب تقويم كامل لما قام به مصطفى البارزاني من نشاط يكمن في نقص المعلومات والمعارف الصحيحة حول الكورد وكوردستان وعدم وجود فهم عميق وواسع لقضية هذا الشعب، التي تعد قضية غير عادية في نواحي كثيرة. والسبب الثاني يكمن في أن البارزاني كان "موضوعاً صعباً" للدراسة من جانب أكثر المؤلفين موضوعية من الشرق ومن الغرب على حدٍ سواء، لأنه لم يتموضع كلياً ودائماً ضمن تلك الأطر التي انطلقت من مصالح "الشرق الاشتراكي" أو من "الغرب الامبريالي" على حد سواء فقد تحتم عليه مواصلة نشاطه في ظل ظروف يسودها نزاع عالمي، كان الكورد فيه، حسب عبارات بوريس بوليفوي، عملة صرف في السياسة الوقحة للدول العظمى، وأعطى لهم دوراً وظيفياً في أحسن الأحوال. وهذا ما وضع البارزاني وما قام به في نضال في موقف لا يحسد عليه. إن التقليل المصطنع لأهمية القضية الوطنية الكوردية، والذي ينبع من السياسة السوقية وخاصةً عندما تنسب هذه القضية إلى قائمة "المسائل الداخلية" لدول المنطقة كان احد العوامل الاساسية لسوء فهم بين مصطفى البارزاني وقادة الحركة الكوردية من جهة والدول العظمى والرأي العام العالمي من جهة أخرى.

كان مصطفى البارزاني يدرك لكونه سياسياً محنكاً صعوبة وضع القوى الرئيسية التي تحدد الجو على الساحة الدولية. فقد كان يطمح إلى دفع الحركة الوطنية الكوردية من خلال تلك العقد المركبة والمتناقضة لمصالح دول المنطقة وخارجها، غير أن مشاريعه واجراءاته لم تكن قادرة تماماً على تلبية مصالح الدول الكبرى، التي كانت تصنع الجو على الساحة الدولية. وفي هذه الظروف فإن ما دفعه من توجه لا مناص منه إلى هذا أو

ذاك من المراكز العالمية، أو نحو هذه الدولة أو تلك من دول المنطقة، هذا التوجه الذي جاء لاعتبارات تكتيكية، واضطرارياً في بعض الأحيان، قد قدم ذريعة لتقويمات ساذجة حول "تأرجح" آرائه "وعدم ثباتها" و"قصر نظره" و "التفكير العشائري" و "الانتهازية"... الخ. وليس صعباً أن ندرك وعلى ضوء ما قيل عبثية تلك الآراء وبطلانها، التي كانت تصور البارزاني أداةً لتنفيذ ارادة الاتحاد السوفياتي تارة وأمريكا، وايران واسرائيل تارة أخرى. وفي حقيقة الأمر كان قائداً مخلصاً لكفاح شعبه، وتوصل إلى نيل الاعتراف بحقوق شعبه الانسانية المغتصبة.

والى جانب ذلك فإن مأساة مصطفى البارزاني وحركته تكمن في انهما لم يكونان في نزاع مع دولة واحدة بمفردها، بل في نزاع مع المنطقة بأسرها عملياً، لقد رأت دول المنطقة تلك المطالب المتواضعة للحكم الذاتي خطوة تمثل طوراً على طريق إقامة دولة مستقلة لإتنوس كبير. وفي هذا المضمار كان مصطفى البارزاني ونضاله وانطلاقاً من مطالب صارمة تميلان موضوعياً مصالح هذا الاتنوس الكبير في نزاعه مع اثنيات ثلاث كبيرة أخرى في الشرقين الأوسط والأدنى أي مع العرب والفرس والأتراك، وغم ما لهم من تفوق اقتصادي وسياسي ودبلوماسي وعسكري واضح على الكورد.

لم يهتم الكورد عملياً بما كان يدور من صراع شديد بين الشرق والغرب، بين الشيوعية والرأسمالية، فهذه القضية كانت بالنسبة لهم قضية مستقبلية، ذلك أنه كي يحسن الكورد الاختيار بين الأنظمة الاجتماعية لابد من حل المسألة القومية أولاً ولو كان ذلك على شكل حكم ذاتي. ولم يكن يتعين على مصطفى البارزاني المناورة بين الشرق والغرب وحسب، لكنه كان يحاول ان يجعل من تلك الشريحة من "الكورد" التي استبقت الزمن والأحداث على الحياد، هذه الشريحة التي اعتنقت إلى حين الأفكار الثورية واليسارية المتطرفة، التي أصبحت موضة في ستينيات القرن الماضي، وجعلت الأهداف الحيوية والملحمية للحركة الوطنية ضحية هذه الأفكار، متجاهلة في الوقت ذاته الشرعية التاريخية الموضوعية، التي تقر بأولوية المصالح الوطنية العامة على المصالح الاجتماعية-الطبقية.

كان العامل الحاسم في تحديد موقف مصطفى البارزاني في ظروف صراع شديد جداً بين الإيديولوجيتين هو ايمانه الراسخ بالافكار الوطنية وإدراك أن المصالح القومية العامة لا خيار فيها وليست لها الأسبقية على جميع المهام الأخرى للحياة السياسية.

لقد صورت المصادر العلمية وعلى نحو مستفيض الاشكال الوحشية وأساليب التعسف والتعذيب التي مارستها الانظمة المعادية للكورد ليس ضد المشاركين في الحركة التحررية

الكوردية وحسب بل ضد السكان الأبرياء. لقد كان مصطفى البارزاني يتمسك وبثبات بالنهج الذي يتمحور حول أن الكورد لا يحاربون شعوب الدول التي تقتسم كوردستان، بل يحاربون الأنظمة الديكتاتورية التي تضطهد الشعب الكوردي. لقد جاء في أحد النداءات عام ١٩٤٣ مايلي: ((على أصدقائنا العرب أن يدركو أنه لاتوجد ولن توجد عداوة بيننا)). كما أكد عدد من المؤلفين، الذين زاروا كوردستان خلال الأحداث العاصفة في الستينيات والسبعينيات على الموقف الإنساني الذي اتخذه الكورد المناضلون في سبيل الحكم الذاتي إزاء الجنود الأسرى من العرب وازاء السكان العرب بصفة عامة. ومن الجدير بالذكر أن هذه المواقف لم تظل خافية عن أنظار الرأي العام العربي ولا سيما عن أنظار المثقفين العرب البارزين. لقد وقف الكاتب اللبناني أنطوان ثابت، والشاعر الجزائري كاتب ياسين موقفاً يدعمان فيه بحزم نضال الشعب الكوردي، بينما كرس شيخ الشعر العربي والشاعر العراقي المعروف محمد مهدي الجواهري قصيدة بعنوان "موطن الأبطال" للشعب الكوردي المناضل وقائده.

ومما لا جدال فيه هو أن مصطفى البارزاني قد ساهم في نيل الاعتراف العالمي بالطابع العادل والنبيل للحركة الوطنية الكوردية مساهمة كبيرة، وليس عبثاً أنه برزت شخصيات عالمية معروفة كانت من اكثر المدافعين المتحمسين عن الحركة الكوردية نذكر منها أندريه ساخاروف، برتراند راسل، وجان بول سارتر، وجون برنال وغيرهم.

لقد ترك مصطفى البارزاني أثراً واضحاً في تاريخ الشعب الكوردي. فما قام به من مأثر عظيمة حقاً جعلته يتبوأ مكاناً فخرياً في ذاكرة الشعب الخالدة.

الفهرست

مصطفى البارزاني بقلم يوري نابييف (عن لجنة إعداد الكتاب) ٥

إلى القارئ الروسي بقلم خوشافي بابكر ممثل حكومة إقليم كوردستان في روسيا ٧

المسافة والمراحل وحكم التاريخ بقلم بافيّ نازى ١١

البارزاني ونضال الاكراد الجنوبيين بقلم: د. دينيس كوماروف..... ١٩

مصطفى البارزاني (بمناسبة الذكرى المئوية لميلاده) م. س. لازاريف..... ١٠٧

رسالة وجهها مجموعة من البارزانيين إلى ستالين..... ١١٥

الكبير يُرى من بعيد أ. ف. كيسيليوف..... ١١٩

ذكرى الأجيال سيامند البنا..... ١٢٥

من أقوال البارزاني..... ١٢٩

كنا نسميه الجنرال بارزاني..... ١٣١

من مهاباد إلى ضفاف آراس أريان..... ١٣٩

الاسم الذي أصبح رمزاً لنضال الشعب شاكرو محوي..... ١٤٥